تفسير من هدى القرآن

المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي

الجزء العاشر

سورة الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الأعمال للشيخ الصدوق بإسناده الى ابي عبد الله (ع) قال:

"من قرأ سورة العنكبوت و الروم في شهر رمضان ليلة ثلاث و عشرين فهو - و الله يا أبا محمد - من أهل الجنة لا استثني فيه أبـــدا ، و لا أخاف أن يكتب الله على يميني إثما ، و إن لهاتين السورتين من الله مكانا "تفسير نور الثقلين / ج ٤ - ص ١٦٩

الاطار العام

الاسم

استوحي اسم السورة من واقعة تاريخية هامة جرت بين الروم الذين كانوا على هدى المسيح بن مريم (ع) ظاهرا ، و بين الفرس ، في عصر الرسول (ص. (

تدور آيات هذه السورة حول عدة محاور ، أبرزها:

أ -تبصير الانسان بهيمنة الرب على السموات و الأرض ، و أن هناك تقديرا ظاهرا ، و قضاء خفيا ، و يضرب القرآن مثلا من هذه الحقيقة بغلبة الفرس على الروم في أدنى الارض ، كيف انها جرت ضمن تقديرات الخليقة ، الا أنه ينبئنا بقضاء الله الذي لا يرد بنصر الله ،و هذا وعد الهي لا يخلف ، بيد أن أكثر الناس لا يعلمون سوى الظاهر من الحياة الدنيا.

و أعظم ما يجهله أغلب الناس من الحياة : ان الله خلقها بالحق و أجل مسمى ،و لذلك ترى الظالمين قد دمروا حين خالفوا الحق ، و لكن عندما حان أجلهم ، بالرغم من شدة قوتهم و عظيم عمرانهم.

ب - و يتصل هذا المحور بالمحور الثاني ، ألا و هو مسؤولية الانسان عن أفعاله دون أن يقدر الشركاء المزعومون على نجاته من جزاء السيئات.

و يطول الحديث حول هذا المحور (١٦/١٢) و (28/45)حيث يبين القرآن أن المجرمين يبلسون عند قيام الساعة ، و ان الناس يومئذ يتفرقون بين صالحين يجزون و كافرين يحضرون في العذاب.

و يحتج الذكر وجدانيا لوحدانية الرب و ضرورة إخلاص الدين له و تطهيره من دنس الشرك ، و يحذر من الشرك في السياسة باتباع القادة الذين لم يأمر الله باتباعهم ، و من الشرك في الاجتماع بالتحزب و التوسل بغير الله ، و من الشرك في الاقتصاد بالاستئثار بالثروةو عدم إنفاقها في سبيل الله ، و كذلك بالربا الذي لا يربو عند الله.

و يبين القرآن أن ما يظهر من الفساد في البر و البحر إنما هو بما كسبت أيدي الناس ، و أن الحكمـة منه :تحسيس الناس بنتائج بعض أعمالهم السيئة ، لعلهم يرجعون عن غيهـم.

و هذا دليل واضح على المسؤولية ، و هناك دليل آخر يتمثل في عاقبة المشركين من قبل الذين يأمر الله بالسير في الارض للنظر في نهايتهم.

ج - و لكي يعي البشر مسؤوليته أكثر فأكثر ، لابد ان يؤمن بالساعة ، حين يبعث للجزاء . و هذا هو المحور الثالث و الأهم في السورة . و لكن كيف يؤمن البشر بالبعث ، و هوى نفسه ، و شيطان قلبه يزينان له سوء عمله ، و يطولان أمله ، و يلقيانفي روعه الشبهات ؟

و الجواب : بمعرفة الله . أليس الله بقادر على أن يعيد الانسان بعد هلاكه ؟ بلى . أوليس حكيما ، و من حكمته أن يجزي الصالحين بالحسنى و الكفار بالنار ؟ بلى . إذا فالساعة آتية لا ريب فيها.

و ليزداد المؤمن معرفة بخالقه ، فيزداد إيمانا و تصديقا بالنشور ، و وعيا للساعة ، يذكرنا الرب بآياته المبثوثة في الآفاق و المحسوسة في النفس مساءا و صبحا و عشيا و عند الظهيرة ، و التي يتجلى بها أن حق التسبيح و الحمد لله وحده.

و يهدينا الى روعة الحياة ، و كيف يخرج الحي من الميت و الميت من الحي ، و يأمر بالتفكر في أنفسنا : كيف خلقنا من التراب ، ثم جعل لنا أزواجا نسكن إليها ، و يأمرنا بتعلم آياته في السماء و الارض ، و في اختلاف ألسنة الناس ، و كيف ننام ليلا ثم يبعثنا نهارا لاكتساب المعائش ، و يذكرنا بنعمة الغيث الذي يحيي به الأرض بعد موتها ، و يلفت نظرنا الى عظمة السموات و الارض .. و يستدل بذلك كله على أنه عزيز حكيم (٢٧/١٧. (

و مرة أخرى يبين لنا نعمة الرياح التي تبشر ببركات الغيث ، كما تحمل الفلك ، و توجب الشكر ، و يصف لنا سبحانه نزول الغيث بأروع وصف ، و يأمرنا بأن ننظر الى آثار رحمته ، و كيف يحي الارض بعد موتها .. ثم يذكرنا بأنه سبحانه على كل شيء قدير.

و يبين لنا آياته في أنفسنا :كيف نتقلب بين ضعف و قوة ، ثم ضعف وشيبة ، و يذكرنا - مرة أخرى - بأنه العليم القدير (٥١/٤٦. (

و يصور لنا بعض مشاهد القيامة حيث يعالج طول الأمل عند الانسان ، و أنه لاينفعه يومئذ عذر و لا هو يستتاب.

وبالإضافة الى هذه المحاور نجد في السورة حديثا مبثوثا بين أرجائه عن شروط المعرفة ، و عن أهميتها ، و أن في القرآن من كل مثل.

كما ان السورة تذكرنا بالزمن ، و موقف المؤمنين منه ، و ضرورة الصبر حتى يأتي وعد الله.

لله الأمر من قبل و من بعد

هدى من الآيات

تبين آيات هذا الدرس الأول من سورة الروم ، العوامل الخفية التي تغرب عن بال كثير من الناس ، و يضرب الله سبحانه مثلين على ذلك:

الأول : الهزيمة التي لم تلبث أن تحولت الى انتصار للروم ، الذين كانوا يعتبرون أصحاب رسالة مقارنة مع الفرس الذين كانوا مجوسا.

و قد كان الكفار - الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا - قد تفاءلوا بانكسار الروم ، بيد أن الله سبحانه أكد نصر عباده ، و هكذا كان حيث فرح المؤمنون بنصر الله.

الثاني : يضرب الله مثلا لأولئك الذين امتلكوا حضارة كانوا أشد قوة ، و أثاروا الأرض و عمروها أكثر مما عمروها ، و كذبوا برسالة الله لما جاءتهم.

إن الناظر البسيط الساذج سيظن ان تلك الحضارة لن تبيد أبدا ، و لكن من ينظرالى عواقب الأمور ، و يستدل بالظواهر عما وراءها من السنن الخفية ، فيرى في الحضارة مثلا جراثيم التخلف ، و الظلم ، و البغي ، و سحق الكرامات ، يعرف أنها حضارة هالكة في سنوات تطول أو تقصر حسب حجم الإنحراف فيها ، الا ان يغيروا ما بأنفسهم.

بينات من الآيات

] [1]الم[

-كما سبق القول - ربما تكون هذه الحروف المقطعة إشارة الى القرآن الحكيم ، و تهدينا هنا الى عظمة كشف القرآن لأسرار الخليقة ، و ربما تكون رموزا لا يهتدي إليها سوى أولياء الله.

] [2]غلبت الروم[

إنتصرت الفرس على الروم ، و كان المسلمون يأملون انتصار الروم ، لانهم مثلهم أصحاب رسالة ، بعكس الفرس.

] [3]في أدنى الأرض[

في الشرق الأدنى . و قد روى التاريخ أن حربا طاحنة دارت رحاها خلال (٢٤) عاما بين الفرس و الروم بين السنين (٦٠٤/٦٢٨) و هاجم القائدان الفارسيان) شهر براز) و (شاهين) الأراضي المستعمرة للروم ، و احتلت القوات الفارسية الشامات و مصر و آسيا الصغرى ،و كان ذلك حوالي السنة السابعة من بعثة الرسول . (١)(١) تفسير نمونه / ج ١٦ - ص ٣٦٩

و لقد سجل القرآن أعظم الحوادث التاريخية ، و بين عبرها و البصائر التي نستوحيها منها ، و هكذا اختصر هنا الإشارة الى تلك الحادثة ، ثم أشار الى نهاية الحرب فقال:

]و هم من بعد غلبهم سيغلبون [

إنهم سوف ينتصرون بعد أن غلبوا و انهزموا . و هذه نبوءة قرآنية بدأ الله بها سورة الروم ، لكي لا ننخدع بظاهر الأمور ، بل نرى القوى الخفية التي تكمن وراءها.

فبالرغم ممـا حقـق الفرس من انتصار ، إلا أن هذا الإنتصار كان مقدمة لانتكاستهم ، لأن هذا الانتصار كان سببا لترهلهم ، و استرخائهم ، و كان من أسباب انتكاستهم انتشار الطبقية المقيتة.

وفي عام (٦٢٢) قاد الامبراطور الروماني (هرقل) حملة مضادة ، و ألحق هزائم متتالية بجيش الملك الايراني (خسرو) ، و استمرت حملاته لعام (٦٢٨) حيث صادف العام الخامس او السادس للهجرة ، حيث كانت الجزيرة العربية تشهد ولادة حضارة إلهية ، و تتوالى انتصاراتالمسلمين ، و لعل أعظمها عسكريا تمثلت في هزيمة الأحزاب في حرب الخندق ، و اعتراف قريش بقوة المسلمين في صلح الحديبية.

[4]و بعـــد بضع سنين إذا بالروم ينتصرون على الفرس ، و تتحقق نبوءة القرآن فيهـم.

]في بضع سنين[

و هذا التعبير يدل على تأثير عامل الزمن على جريان سنن الله ، فبعض الناس يريدون ان تجري سنن الله بلا أجل ، و هذا لا يكون ، لأنه يتنافى و حكمة الإبتلاء ،وقد جاء في الأثر : أن الفترة بين دعوة موسى و استجابة الله له كانت أربعين سنة.

فقد روي عن زرارة عن أبي جعفر (ع) قال:

"أملى الله تعالى لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم أخذه الله نكال الآخرة و الأولى ، و كان بين أن قال الله عز و جل لموسى و هارون : " قد اجيبت دعوتكما " و بين ان عرفه الإجابة أربعون " (١. (

ثم يؤكد القرآن أن هذه السنة إنما هي سنة ظاهرة ، و أن السنة الخفية ، و الإسم الاعظم بيد الله ، الذي يشاء أن ينتصر الفرس أو ينهزموا ، أو ينهزم الروم أو ينتصروا ، اذا ما غير أي طرف ما بأنفسهم - سلبا أو ايجابا. -

]لله الأمر من قبل ومن بعد [

و هذه الآية تعبير عن كلمة " إنشاء الله " فإذا شاء الله سينتصر الروم على الفرس ، وإن لم يشأ لا ينتصرون ، قال تعالى : " و لا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله " (٢)كما ان هذه الآية تهدينا إلى سنة الحرية التي ضمنها الله للانسان ليبتليه في الدنيا ، إذ جعل ربنا لنفسه البداء في كل شيء ولا يكون لأي شيء فرض حتم عليه ، إلا ما حتم على نفسه و وعد به فلا يخلف وعده سبحانه.

]و يومئذ يفرح المؤمنون[

بماذا يفرح المؤمنون ؟

(1)تفسير نور الثقلين /ج ٢ - ص ٣١٥

(2)الكهف / ٢٣

]بنصر الله ينصر من يشاء و هو العزيز الرحيم[

فبعزته يأخذ الكافرين ، و برحمته يفتح للمؤمنين.

[6]لا شيء يحدد أو يعجز إرادة الرب العزيز المقتدر ، و كل شيء مستجيب طوعا أو كرها لمشيئته التي لا ترد ، و لكن ذلك لا يعني أنه سبحانه يريد شيئا بلا حكمة أو يخلف وعدا أو ينقض عهدا ، كلا .. لقد وعد عباده الصالحين النصر ، و هو لا يخلف وعده أبدا.

]وعد الله لا يخلف الله وعده[

و إنما يخلف العاجز أو الجاهل ، و ربنا عزيز عليم.

]و لكن أكثر الناس لا يعلمون[

فتراهم يركنون الى الظالمين خشية بطشهم ، و لا يأوون إلى ركن الحق الذي وعد الله بنصره.

[7]أكثر الناس لا يعلمون طبيعة الدنيا ، لأنهم:

]يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا و هم عن الأخرة هم غافلون]فهم غافلون عن عواقب الأمور ، و إنما يرون ظاهر الأمور ، و من العواقب التي يغفلون عنها النشور.

إن الآخرة هي غيب الدنيا ، و الدنيا منطوية عليها ، و لكن أكثر الناس ينظرون الى هذا الظاهر المشهود دون ذلك الغيب . إنهم ينظرون الى سلطة الجبابرة ولا يعلمون ان سنة الله (التي يسمونها بلغتهم المادية قانون الطبيعة) تقتضي زوالالظلم ، لأنه باطل ، و لأن المظلوم يثور ضده . و لأن صراع الظالمين كفيل بالقضاء علهيم و .. و...

وإن سنن الله تجري و لكن عبر مسيرة الزمن ، فكما أن من يزرع القمح سوف يحصده بعد مدة ، كذلك من يزرع الظلم سوف يحصد الإنقلاب ، و لكن بعد مدة أيضا.

و هذه هي حقيقة الجزاء التي تتجلى جزئيا في عواقب الأمور في الدنيا ، بينما تتجلى في الآخرة بصورة تامة ، حيث يجزى المرء على أعماله هنالك الجزاء الأوفى.

و لعل كلمة الآخرة هنا تدل على عاقبة الأمر سواء قبل الموت أو بعده ، حيث فسرها البعض بالعاقبة في الدنيا ، بينما الكلمة تطلق عادة على ما بعد الموت ، و إنما نستوحي من الكلمة هذا المعنى الشامل لأن الدنيا و الآخرة في منطق القرآن - حسبما يبدو لي - لا تنفصلان ، إنما هما حقيقة واحدة تنكشف لذوي الأبصار في الدنيا ، ولا تنكشف لغيرهم إلا بعد الموت.

[8]أولا ينظرون الى ان تركيبة الحياة قائمة على اساس الحق ، و الأجل ؟

فالزمن جزء من الكون ، لأن الكون متغير ، و التغير جزء من الكون ، و الزمن جزء من التغير.

]أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات و الأرض و ما بينهما إلا بالحق و أجل مسمى]و الأجل المسمى يدل على:

أولا :ان الله إنما خلق الكون بحكمة و لهدف محدد سلفا ، و كذلك الانسانفما هو الهدف من خلقة الانسان ؟ الهدف ليس إلا البعث بعد الموت.

ثانيا : هذه الآية تدل على ان الكون ينتهي لأنه لأجل مسمى.

و جاء في الحديث القدسي:

"يا ابن آدم إنما أنت إيام فإذا مضى يوم فقد مضى بعضك "إن النظرة الجامدة الى الخليقة مسؤولة عن أخطاء منهجية عديدة ، و من لم يحسب للزمن حسابه فإنه ليس فقط لا ينجح في حياته ، و يأوي الى ظل الكسل و الترهل ، بل و ايضا لا يعي حقيقة الدنيا التي جعل الأجل جزء هاما فيها.

من جهة ثانية : إن الحق الذي يعني جملة السنن الإلهية أساس الخليقة ، فما من شيء إلا و تحيط به أنظمة إلهية تحدد مسيرته.

و إذا تعمق الانسان في هاتين الحقيقتين الحق و الأجل اهتدى الى الايمان بالبعث و النشور ، لأنه يعرف ان الاساس الذي خلق عليه الخلق هو ذاته الاساس الذي خلق به الانسان.

]و إن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون[

] [9]أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم]لينظروا بأعينهم تجسيد تلك الحقائق التي سبقت.

]كانوا أشد منهم قوة و أثاروا الارض و عمروها أكثر مما عمروها]فلا ينخدع البشر بما صنعه ، من أسلحة تدميرية ، و من إثارته للأرض و استخراج خيراتها ، و استنبات و تحسين نوعية المزروعات ، و لا ينخدع بما عمر من ناطحات السحب و المحطات و .. و..

يجب أن نفكر حقا في العاقبة ، بالرغم من اننا نراهم أشد قوة ، و إثارة للأرض ، و عمارة لها.

]و جاءتهم رسلهم بالبينات[

لقد اكمل الله لهم الحجة ، فأرسل الرسل ينذرونهم من الله و من عذابه ، فلما كذبوا برسله:

]فما كان الله ليظلمهم[

حين أرسل عليهم عذابه الوبيل .

]و لكن كانوا أنفسهم يظلمون [

[10]بعد ذلك يذكرنا الرب بأحد سننه و تقاديره في الحياة و التي قد لا يراها البعض ، و هي : إن عاقبة الذين اساؤا ستكون السوأى ، بان يكذبوا بآيات الله ، و من ثم الاستهزاء بهـــا ، و هذه الآية - في الواقع - تهز الانسان من الأعماق ، ذلك ان الشيطان حين يخدع البشر يهون عليه السيئات الى ان يستدرجه من الذنب الصغير إلى اكبر منه ، حتى تغطي الذنوب كل أعماله ، و من ثم يأتي الى عقيدته و يسلبها منه ، و يتركه في جهنم ، و إن السيئات تشبه منحدرا ، كلما هوى أكثر كلما ازدادت جاذبية الارض و ضعفت مقاومته.

و لكن السؤال : كيف يصل البشر الى هذه المرحلة من الضلال ، فيكذب بآياتالله و يستهزأ بها ؟

و الجواب : إن للانسان في داخله قوة تبريرية ، تبرر لضميره فعل السيئات ، فقد يرى - مثلا - يتيما يمسك قطعة خبز يأكلها ، فيسلبها منه ، و يأخذها عنوة ، ثم يشعر بوخز الضمير ، و عتـاب الوجدان ، فيعمل على تبرير عمله ، بمجموعة من الأعذار المعلبة ، فيقول مثلا : أولا : أنا جائع و اليتيم ليس بجائع ، ثانيا : الناس يعطون اليتيم و لا يعطونني ، و من الذي يقول بأن اليتيم ليس بسارق للخبزة ، و إلا لما أكلها بعيدا عن الأنظار ؟! و أخيرا : من الذي يدعي بوجود العطف على اليتيم ؟! و شيئا فشيئا تتبدل قيم هذا الانسانحتى يصدق قناعاته الجديدة ، فهذا الذي عمل الذنب بدافع الغريزة - الجنس ، الجوع ، الخوف .... - يفعل الذنب بعدئذ بدافع التعود على الذنب نفسه ، فيصبح مجرما محترفا.

و هكذا كان نمرود و فرعون و سائر المستكبرين ، فهم لم يدعو الإلوهية من أول يوم ، بل استدرجهم الشيطان حتى أنساهم ذكر الله ، و أصبحوا كذلك يكذبون بآياته ، و يستهزؤون بها .. من هنا يجب على الانسان ان يحسب حساب الخطوة الأخيرة حينما يقرر اتباع الشيطان فيالخطوة الأولى ، يقول الله تعالى :

]ثـم كان عاقبـة الذين اسائوا السوأى أن كذبوا بايات الله و كانوا بها يستهـزؤون]السوأى :مؤنث الاسوء ، أي كانت عاقبتهم أسوء عاقبة.

و نعوذ بالله فهذا البشر الضعيف الحقير المستكين المحتاج ليس فقط يكذب بآيات الله ، بل و يستهزأ بها.

فسبحان الله حين تمسون و حين تصبحون

هدى من الآيات

المجرمون لا يعرفون الحقيقة اذ تحتجب عنهم فلا يرونها ، أو لا يرونها بوضوح كاف ، لأن قدرة الانسان التسويلية - حسب تعبير القرآن - تظل تزين له أفعاله السيئة حتى تسلب عقله و لا يكتشف الحقيقة إلا بعد فوات الأوان ، و عندما يموتون أو ينزل بهم عذاب حينها يستيقظون من غفلتهم ، و يعرفون أنه كان بإمكانهم أن يصبحوا من أهل الجنة فصاروا من أهل النار.

و في ذلك اليوم يتفرقون ، و يتميز المؤمنون عن المجرمين ، أما المؤمنون فهم في روضات يحبرون ، بينما يلقى المجرمون في النار ، و نتساءل : كيف يمكن للانسان الخروج من دائرة الجريمة التي يرتكبها ، إما بسبب ضغط شهواته و أهوائه ، أو بضغط الآخرين كالمجتمع والطاغوت ، و يتخلص من الآثار التي تتحول بمرور الوقت الى حجاب غليظ يحجبه عن الحقيقة.

الجواب نجده في الحديث المروي عن أمير المؤمنين (ع) حيث قال وهو يوصيأصحابه بالصلاة:

"أرايتم الى الحمة تكون على باب الرجل فهو يغتسل منها في اليوم و الليلة خمس مرات ، فما عسى

أن يبقى عليه من الدرن ؟! " (١)فالصلاة تغسل ذنوب البشر ، و لهذا السبب يذكرنا ربنا سبحانه في آخر هذا الدرس بأوقات الصلاة.

بينات من الآيات

[11]لكي لا يسترسل الانسان في ارتكاب السيئات فتنتهي به إلى العاقبة السوءى يذكره الرب سبحانه بالساعة ، حين يقدم الناس للحساب بين يدي الله العليم القدير.

و بإيجاز بليغ يبين السياق الحجة على الساعة : أوليس الله قد بدا الخلق ؟ فهو إذا يعيده كما بدأه ، و هنالك يرجع الناس اليه للحساب.

]الله يبدؤا الخلق ثم يعيده [

أي يعيد الخلق بعد الفناء.

]إليه ترجعون[

يعني حين تعودون فإنكم تعودون إليه.

و يحتمل أن يكون معنى " ثم يعيده " أي يطويه بالفناء ، كما نشره بالخلق ، ثم اليه يرجعون بالخلق من جديد.

(1)نهج البلاغة / ج 199ص ٣١٦ -٣١٧

[12]و حين الرجوع الى الله ماذا سيكون مصير المجرمين ؟

في ذلك اليوم يلوذ المجرمون - الذين طالما برروا بألسنتهم الحادة جرائمهم - الى الصمت البائس ، لأن الحزن الناشئ من اليأس قد أحاط بقلوبهم.

]و يوم تقوم الساعة يبلس المجرمون[

جاء في القاموس : أن المبلس من لا خير عنده أو عنده بلاس ، و في مفردات الراغب :الإبلاس الحزن المعترض من شدة الياس ، و لما كان المبلس كثيرا ما يلزم السكوت ، و ينسى ما يعنيه ، قيل : أبلس فلان إذا سكت ، و إذا انقطعت حجته.

و ربما السبب في سكوت المجرمين الناشئ من حزنهم و يأسهم هو : إن الله لا يترك لأحد حجة يوم القيامة ، و قد بينت الأحاديث التالية جانبا من احتجاج الرب لعباده يوم القيامة ، مما يفحم المجرمين و المذنبين.

-1عن المفيد ، عن ابن قولويه ، عن محمد الحميري ، عن أبيه ، عن هارون ، عن ابن زياد قال : سمعت جعفر بن محمد (ع) - و قد سئل عن قوله تعالى : " فلله الحجة البالغة " - فقال:

"إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ، عبدي أكنت عالما ؟ فإن قال : نعم ، قال له : أفلا عملت بما علمت ؟ و إن قال : كنت جاهلا ، قال له : أفلا تعلمت حتى تعمل ؟ فيخصم ، فتلك الحجة لله عز و جل على خلقه " (١)٢ - و روى معاوية بن عمار قال : سمعت أبا عبد الله)ع) يقول:

"إن الرجل منكم ليكون في المحلة فيحتج الله يوم القيامة على جيرانه فيقال لهم : ألم يكن فلان بينكم ؟ ألم تسمعوا كلامه ؟ ألم تسمعوا بكاءه في الليل ؟

(1)بحار الانوار / ج 7ص ٢٨٥ - ٢٨٦

فيكون حجة الله عليهم (1) "

- 3و روى عبد الاعلى مولى آل سام قال : سمعت أبا عبد الله (ع) يقول:

"يؤتى بالمرأة الحسناء يوم القيامة التي قد افتتنت في حسنها فتقول : يا رب حسنت خلقي حتى لقيت ما لقيت ، فيجاء بمريم (ع) فيقال : أنت أحسن أو هذه ؟ قد حسناها فلم تفتتن ، و يجاء بالرجل الحسن الذي قد افتتن في حسنه ، فيقول :يا رب حسنت خلقـي حتى لقيت من النساء ما لقيت ، فيجاء بيوسف (ع) فيقال :أنت أحسن أو هذا ؟ قد حسناه فلم يفتتن ، و يجاء بصاحب البلاء الذي قد اصابته الفتنة في بلائه فيقول : يا رب شددت علي البلاء حتى افتتنت ، فيجاء بأيوب (ع) فيقال : أبليتك أشد أو بلية هذا ؟ فقد ابتلي فلم يفتتن " (٢(

] [13]و لم يكن لهم من شركائهم شفعاؤا[

يشفعون لهم حيث تسقط آنئذ تلك التصورات بأن الشركاء سيشفعون لهم . و الشريك هو الذي يظن البشر أنه كما الله قادر عليم و غير ذلك ، بيد أنه عندما يشرك الانسان بالله فمن الطبيعي أن يتشبث بالشركاء ، لانه لا يترك ربه الا بضغط من الشركاء ، سواء كان الطاغوتأم الهوى أم المجتمع ، و عموما كل من يستمد منهم الانسان التشريعات ، فيحلون له و يحرمون بغير هدى من الله.

و لكن ماذا عسى أن ينفعه الشركاء ؟!

في ذلك اليوم الرهيب لا يقف أحد من الشركاء إلى جانب المجرمين للدفاع عنهم و الشفاعة لهم.

(2) (1)بحار الانوار /ج ٧ ص ٢٨٥ -٢٨٦

و الواقع : ان فطرة الانسان تهديه الى أنه ضعيف عاجز و بحاجة الى من يركن إليه ، و الشيطان يضله عن ربه ، و يغويه الى الشركاء ، و يزعم له أنهم هم الركن الذي يمكنه الاعتماد عليهم ، فيحجبه بذلك عن ربه ، و اذا سقط الشركاء عن عينه ، و عرف أنهم لا يضرون ولا ينفعون سقط عنه حجاب كثيف كان يمنعه عن رؤية الحق و معرفة الرب.

و في يوم القيامة يتبين للمشركين مدى ضلالة الإعتماد على الشركاء ، حيث لا يشفعون لهم و لا ينصرون.

و ليس فقط لا ينفعونهم ، بل و يتبرؤون منهم ، و آنئذ فقط يعرفون أن ضغط الهوى و المجتمع و الطاغوت لم يكن حقيقة بل وهما.

]و كانوا بشركائهم كافرين[

] [14]و يوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون[

فريقان ، بعكس ما كانوا في الدنيا مختلطين.

[15]فريق في الجنة:

]فأما الذين ءامنوا و عملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون]الروضة : هي المكان الذي تكثر خضرته و

طيبه.

و يحبرون : (من اصل حبر) بمعنى نضرة النعيم في وجوههم . أوليس تغمرهم حالة الرضا ، و تحيط بهم ألوان النعم ، فتنعكس على وجوههم انبساطا و بشرا ؟!

و قد أولت الكلمة هذه بأمرين :

الأول : الإكرام ، كما جاء في تفسير علي بن ابراهيم.

الثاني : التلذذ بالسماع ، كما روي عن رسول الله (ص) انه قال:

"ما من عبد يدخل الجنة إلا و يجلس عند راسه و عند رجليه ثنتان من الحور العين تغنيان بأحسن صوت سمعه الإنس و الجن ، و ليس بمزمار الشيطان ، و لكن بتمجيد الله و تقديسه " (١)و عن أبي الدرداء قال : كان رسول الله (ص) يذكر الناس ، فذكر الجنة و ما فيها من الأزواج و النعيم ، و في القوم أعرابي فجثا لركبته و قال : يا رسول الله هل في الجنة من سماع ؟ فقال (ص: (

"نعم يا أعرابي ، إن في الجنة نهرا حافتاه الأبكار من كل بيضاء يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط ، فذلك أفضل نعم الجنة " (٢)و الغناء إشباع لحاجة الانسان الروحية ، فبالإضافة الى النعم المادية التي يتمتع بها المؤمنون في الجنة كالأكل و الشرب ، هناك نعمة معنوية و هي إشباع القلب ذكرا لله و معرفة به و حبا له ، و بالرغم من ان الصوت الحسن ليس كل اللذة الروحية ، إلا انه لو كانيحمل للانسان فكرا و علما ، و تذكيرا بالله ، و هدى يبلور القيم الحق ، آنئذ يكون لذة جسمية و معنوية في نفس الوقت ، و لذلك جاء في الحديث السابق : أن السماع أفضل نعم الجنة حين تمجد الحور الله و تقدسنه.

و هكذا كانت أعظم لذات المؤمن في الدنيا الصلاة و مناجاة الله سبحانه ، يقول رسول الله (ص: (

(1)تفسير نور الثقلين /ج ٤ - ص ١٧١

(2)المصدر

"حبب إلي من الدنيا النساء و الطيب ، و قرة عيني الصلاة " (١)و كان يقول (ص) لبلال حين يحين وقت الصلاة.

"أرحنا بالصلاة يا بلال"

و في مناجات العارفين للامام السجاد (ع) يقول:

"إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق اليك في حدائق صدورهم ، و أخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم ، فهم إلى أوكار الأفكار يأوون ، وفي رياض القرب و المكاشفة يرتعون ، و من حياض المحبة بكأس الملاطفة يكرعون ، و شرايع المصافات يردون ، قد كشف الغطاء عن أبصارهم ، و انجلت ظلمة الريب عن عقائدهم ، و انتفت مخالجة الشك عن قلوبهم و سرائرهم ، و انشرحت بتحقيق المعرفة صدورهم ، و علت لسبق السعادة في الزهادة هممهم ، و عذب في معين المعاملة شربهم ، و طاب في مجلس الأنس سرهم " (٢)[١٦] هذا عن حال المؤمنين في الجنة ، فما هو حال الذين كفروا ؟!

]و أما الذين كفروا و كذبوا باياتنا و لقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون]فالمــؤمنون يذهبون سراعا الى الجنة ، أما الكافرون فإنهم يساقون الى النار سوقا ، و لأن الجنة تزلف الى أهلها فهي أمامهم ، بينما تقرب النار الى الكافرين ، و يساقون إليها في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا.

(1)الخصال / الشيخ الصدوق / ص ١٦٥

(2)الصحيفة السجادية المناجات الثانية عشر.

و لعل الآية تعالج مرضا روحيا ، و تبريرا طالما يأوي إليه الجاحدون ، ألا و هو تكذيب لقاء الله ، حيث يزعم الكفار أنه بمجرد تكذيب الساعة تسقط عنهم المسؤولية ، بينما القرآن يؤكد ان هذا التكذيب بذاته جريمة يعاقب عليها الجاحدون ، فلم يوضع الحساب فقط لمنآمن بالساعة ، بل و أيضا لمن كذب بها ، حيث أنه ينال جزاء تكذيبه كما ينال جزاء جرائمه.

] [17]فسبحان الله[

إن اردت ان تكون من اصحاب الجنة ، لا من أهل النار ، فسبح الله و احمده آناء الليل و أطراف النهار.

]حين تمسون و حين تصبحون[

حين غروب الشمس و حين طلوعها .

] [18]و له الحمد في السموات و الأرض[

و نحمده لما نرى من آياته في السموات و الارض.

]و عشيا و حين تظهرون[

عشيا عند صلاة العصر ، و عند الزوال وقت صلاة الظهر ، و هذه مواقيت الصلوات الخمس التي ذكرت جميعا إلا صلاة العشاء لقربها إلى ميعاد صلاة المغرب.

بلى .حين يتنفس الصباح أو تودع آخر اشعة الشمس الروابي ، و عندما ينتصف النهار وفي وقت العشية ، تحدث تطورات على الطبيعة ، و في نفس البشر ،تقتضي تسبيح الرب ، لكي يطمئن الانسان الى خالقه الذي جل عن التغير ، و الذي يهيمن على اختلاف الزمن.

إن تسبيح الله و حمده طرفي الليل و وسط النهار يمنع النفس من تقديس الطبيعة التي تعكس في هذه الحالات هيبتها عليها ، و من الناس من يعبر عن ذلك بالسجود للشمس و القمر ، و تقديس الاشجار و الأحجار .. و إن تسبيح الله و حمده يتسع مع آفاق الخليقة حتى يشمل السموات و الأرض ، فلا ينظر العارف بربه الى شيء إلا و يتجلى له الرب بجلاله و جماله فيتوهج فؤاده تقديسا و حمدا.

و قد عبرت الآيات هنا عن اتساع تسبيح الله و حمده عبر آنات الزمان و آفاق المكان ببيان رائع و إيجاز بليغ فقال : فسبحان الله ، و قال : و له الحمد . هكذا بصفة عامة دون أن يذكر ذاكر التسبيح و قائل الحمد ، لان كل شيء يسبح له و يحمده ، و تسبيح الله و حمدهمقتضى تحول الحالات بتدبير حكيم ، ذلك أن انتقال الوقت من المساء الى النهار و مـن النهار الى المساء يعني وجود نقصا في الطبيعة ، فالطبيعة ليست ثابتة ، و إنما هي متغيـرة ، فنستدل بهذا النقص على أن ربها و مقدرها ليس بناقص ، و لأن لكل متحرك ثابتا يحركه ، لذلك كل ما نرى في الطبيعة من نقص نسبح الله ، فالنقص في الطبيعـــة أمر حق ، و قد كان القدماء يستدلون على الله بأن العالم متغير ، و كل متغير حادث ، و كل حادث يحتاج الى محدث ، و المحدث هو الله . و جوهر هذا الاستدلال صحيـح.

فالطبيعة أعجز من أن تخلق نفسها ، أو تديرها ، فلابد لها من خالق مدبر ، و هكذا استدل ابراهيم (ع) لما رأى أفول كل من الشمس و القمر و الكوكب.

و نستوحي من الآية ان مواعيد الصلاة مرتبطة بتغيرات الطبيعة لا بحسب الساعات ، كالساعة العاشرة مثلا ، لأن الساعة العاشرة ليست حدثا في الكون ،و لكن الأوقات التي رسمها الله للصلوات مرتبطة بالظواهر الطبيعية التي تنعكس على النفس ، و تحتاج الى رؤية سليمة للتعامل معها.

و كلمة أخيرة : إن لهذه الآيات فضلا كبيرا لما فيها من التسبيح و الحمد لله ، و لذلك جاء في الحديث المأثور عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال:

"من قال - حين يمسي - ثلاث مرات : سبحان الله حين تمسون و حين تصبحون وله الحمد في السموات و الارض و عشيا و حين تظهرون " لم يفته خير يكون في تلك الليلة ، و صرف عنه جميع شرها ، و من قال ذلك حين يصبح لم يفته خير يكون ذلك اليوم و صرف عنه جميعشره " (١. (

(1)نور الثقلين / ج ٤ -ص ١٧٢

و له المثل الأعلى في السموات و الارض

هدى من الآيات

ذكرنا السياق بآيات الحمد و التقديس التي ترتسم على محيا الخليقة مساء و صباحا ، و أنى قلبت وجهك في السموات و الارض بصرت تسبيحا لله و سمعت حمدا . و تأتي آيات هذا الدرس تبيانا لتلك الحقيقة من خلال واقع الانسان نفسه ، حيث يخرج الله الحي من الميت و الميت من الحي ، و نرى من حولنا تقلب الأشياء بين الحياة و الموت ، لنهتدي إلى قدرة الرب الواسعة ، و نؤمن بيوم البعث.

و حياة الانسان ابتدأت بخلقه من التراب ، و انتشاره - بإذن الله - في الأرض ، و أعظم ما حفظ الله به نسل البشر الزواج حيث خلق الزوجين و جعل بينهما مودة و رحمة ، ومن أبرز سنن الحكمة التي نظم بها حياة البشر فوق هذا الكوكب اختلاف السنة الناس و ألوانهم)
حسب الحاجات المتباينة و التي تتكامل في وحدة منسقة) ليتعارفوا ، و من أهم النظم الحياتية التي أجراها الرب لحفظ البشر المنام بالليل و النشاط من أجل الرزق (فسكون الليل يمهد لحركة النهار ، و الله يباركفيها للبشر) ، و من أعظم نعم الله على البشر التي حفظ بها حياته على البسيطة نعمة الماء الذي ينزله من السماء ، فيحيي به الأرض .. أو ليس كل ذلك آيات تهدينا إلى اسماء ربنا الحسنى و إلى قدرته و رحمته و حسن تدبيره ؟ بلى . و لكننا بحاجة الى التفكر و العلم والسماع و العقل حتى نهتدي بهذه الآيات الى معرفة الرب و صفاته.

بينات من الآيات

] [19]يخرج الحي من الميت و يخرج الميت من الحي[

آية الحياة أعظم آية يتعرف عليها الانسان ، حيث ان الحياة تنبعث من الأشياء الميتة ، و ربما تشير الآية الكريمة الى حقيقة مهمة يغفل عنها الانسان عادة : فالحياة موجودة سواء في النطفة ، أو في الحبة الصغيرة ، و لكنها من مجموعة أشياء ميتة تنبعث و تتكامل ،فالأرض ميتة ، و الاوكسجين ميت ، و المواد الكيمائية ميتة ، بل و الغذاء من الارض بالنسبة للنبتة أو من مجموع عدة أشياء بالنسبة للحي ميت ايضا.

كل هذه الأشياء الميتة تحيط بالنواة الحية داخل حبة الحنطة - مثلا - فتخرج منها نبتة كبيرة حية ، فربنا سبحانه يخرج هذا الحي من الميت ، و العكس صحيح ، فعندما يموت الانسان الحي هل تنتهي حياته ؟ كلا .. بل تبقى ، و لكن تنفصل الحياة عن الأجزاء الميتة التيكانت حية بحياته ، و تبقى تلك النطفة الحية ، و نستطيع أن نشبه تمدد الحياة في الأشياء الميتة و العكس بمصباح كهربائي تضيؤه في غرفة حيث اننا نجد أن الاشياء في الغرفة قد أضيئت بالمصباح ، و لا يعني أن الضوء قد انتهى لو وضعهنا ذات المصباح في صندوق . إن الأشيـاء في الغرفة لما أضيء المصباح أصبحت اضاءتها غيرية ، لا ذاتية ، أي ان الأشياء لم تتحول الى مادة النور .. ، و هكذا تمدد الحياة في الجمادات.

و الانسان كان نطفة حية في أصلاب آبائه جمعت حولها الأجزاء الميتة بارادةالله ، حتى صار أنسانا سويا ، فأخرجه الله من الميت ، ثم يعود كما كان عندما يموت ، فتبقى الحياة في القبر و لكن في حالة هجعة

، ثم تنمو مرة أخرى في يوم القيامة ، و يعود كما كان خلقا آخر ، فيكون المعنى كالتالي : يخرج الله الحي من الاشياء الميتة ، و يخرج الميت من الحي حين تتحلل الاشياء الميتة - أصلا - عن الحي ، و تبقى نطفته الاساس.

و كما يحيي الله الأرض بالمطر ، كذلك يحيي الانسان في الآخرة فيقول سبحانه : " و الله أنبتكم من الأرض نباتا " . (١)و في الروايات عن جعفر بن محمد الصادق)ع) قال:

"إذا أراد الله عز و جل أن يبعث الخلق أمطر السماء أربعين صباحا ، فاجتمعت الأوصال و نبتت اللحوم " . (٢)و هناك تفسير آخر للآية يقول : إن الله يخرج الحياة من الأشياء الميتة كما خلق الانسان من التراب ، و يخرج الشيء الميت من الحي كما يميت الانسان.

و لكن يبدو لي أن التعبير القرآني لا يتناسب و هذا التفسير ، كما أنه لا يتناسب و معلوماتنا الحديثة عن الحياة و الموت.

ثم قال ربنا:

]و يحي الأرض بعد موتها[

إن منظر الحياة تدب في الأرض الموات يبعث البهجة في القلب ، و يهدينا الى(١) نوح / ١٧

(2)بحار الانوار / ج - 7ص ٣٣

جلال خالقنا العظيم ، كما يهدينا الى قدرته الواسعة التي يخرج بها الناس من قبورهم كما يخرج الخبأ من رحم الارض.

]و كذلك تخرجون[

و إن للآية تأويلا بينته الرواية المأثورة عن الامام الكاظم (ع) قال:

"ليس يحييها بالقطر ، و لكن يبعث الله رجالا فيحيون بالعدل ، فتحيي الارض لإحياء العدل ، و لإقامة العدل فيه أنفع في الأرض من القطر أربعين صباحا(1) . " كلما أمعن النظر البصير في تقلب الاشياء بين الموت و الحياة كلما ازداد معرفة بقدرة ربه ، و انه يبعث الناس بعد الموت.

[20]ومن آياته سبحانه خلق الانسان من التراب في عالم الذر ، ثم أودعه في اصلاب الرجال و ارحام النساء.

]و من اياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون]قال العلامة الطبرسي في قوله : " خلقكم من تراب " أي خلق آدم الذي هو أبوكم و أصلكم " من تراب " ثم خلقكم منه و ذلك قوله : " ثم إذا أنتم تنتشرون " (٢) و لكن يبدو أن التفسير المناسب و أحاديث المعصومين هو ان الله خلقنا جميعا ذرأ من التراب ، ثم أودعنا صلب أبينا آدم (ع) ثم نشرنا بقدرته.

[21]و من آياته سبحانه الحاجة الى الجنس الآخر ، تلك الحاجة التي تتجاوز(١) نور الثقلين / ج ٤ -ص ١٧٣

(2)تفسير مجمع البيان /ج ٨ - ص ٢٩٩

الجسد لتتصل بالروح ، و تنتهي حالة التوتر لدى الطرفين بالزواج.

إن حالة التوتر الموجودة لدى الطرفين تدل على أن خلق الانسان لم يكن عضويا ، فالله عز و جل جعل نظام الكون قائما على أساس الزوجية في كل شيء قال تعالى " :و من كل شيء خلقنا زوجين اثنين " (١) و هو سبحانه الذي خلق الزوجين الذكر و الأنثى.

و لو لم يكن الانسان ليجوع لما شعر بلذة الطعام ، كذلك لو لم يتوتر لما شعر بلذة الزواج ، و هذا دليل التقدير في الحياة.

]و من اياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها]إن الله جعل استمرار حياة نوع البشر عبر التقاء الذكر بالأنثى ، و لكن هذا الإلتقاء لا يتم قسرا ، إنما يتم برغبة الطرفين ، فيبحث الرجل عن أنثاه ، و قد يلقي بنفسه الى التهلكة حتى يجدها ، ولولا هذه الرغبة الجامحة للزواج لتخلى عن الزواج رأسا ، لما فيه من مسؤوليات كبيرة ، و لكن الله الذي جعل خلقة الانسان عن طريق الزواج هو الذي جعل فيه حاجة نفسية لا تتحقق إلا به فقال:

]و جعل بينكم مودة و رحمة[

الزوجان اللذان لم يعرفا بعضهما حتى لحظة الزواج يندمجان معا ، و كأنهما روح واحدة تقمصت بدنين.

إن الصلة التي يمتن ربنا أصرتها بين الزوجين و من خلالهما بين سائر أبناء المجتمع تتجاوز المودة المادية القائمة على أساس المصالح المشتركة و الخدمات المتبادلة(١) الذاريات / ٤٩

لتصبح صلة روحية تفكر كل طرف في مدى عطائه قبل أن يبحث عما يأخذه ، و قد يضحي بنفسه من أجل المحافظة على قرينه أو قريبه.

و بتعبير آخر : ينطلق التقاء الزوجين من أرض الشهوة الجنسية ، و الحاجة الى اشباع الحاجات المادية المختلفة ، و لكنه لا يقف عند هذا الحد ، بل يمضي قدما حتى يصبح حبا عميقا ، يقوم على اساس الإيثار و العطاء ، و يصل الى حد الفداء و التضحية.

و هكـــذا تكـون العلاقة في البداية " المودة " ، و لكنها لا تلبث حتى تصبح " رحمة. "

]إن في ذلك لايات لقوم يتفكرون[

و هدف التفكر هو إثارة المعلومات الظاهرة و تقليبها على بعضها للحصول على معلومات جديدة ، و حين يتفكر الانسان في ظواهر الحياة المحيطة به و التي قد يستخف بها لأنها أصبحت جدا واضحة ، فإنه يبلغ غور المعرفة و يفهم حكمة الحياة.

[22]و من آياته سبحانه خلق السموات و الارض ، و اختلاف ألوان الناس و ألسنتهم ذلك الاختلاف الواسع.

]و من ءاياته خلق السموات و الأرض و اختلاف ألسنتكم و ألوانكم إن في ذلك لايات للعالمين]يبـدو أن هناك علاقة بين خلق السموات و الارض ، و بين اختلاف اللون و اللسان ، و ربما تكون هذه العلاقة موجودة ، ففي المناطق الإستوائية لون البشرة سمراء ، و تقل السمرة كلما ابتعدنا عن خط الإستواء ، حتى تتحول الألوان منالأسمر حتى الأبيض فالأصفر ، و هذا الاختلاف يسهل التعارف الذي هو اساس تنظيم الحياة البشرية . و الحديث التالي يبين كيف أن طبائع الارض ذات أثر في اختلاف البشر ، و ما هي حكمة هذا الاختلاف : يسأل رسول الله (ص) عبد الله بن يزيد بن سلام فيقول : فأخبرني عن آدم لم سمي آدم ؟ قال:

"لأنه من طين الأرض و أديمها"

قال : فآدم خلق من الطين كله أو من طين واحد ؟ قال:

"بل من الطين كله ، و لو خلق من طين واحد لما عرف الناس بعضهم بعضا ، و كانوا على صورة واحدة " .

قال : فلهم في الدنيا مثل ؟ قال:

"التــراب فيه أبيض و فيه أخضر و فيه اشقر و فيه أغبر و فيه أحمر و فيه أزرق و فيه عذب و فيه ملح و فيه خشن و فيه لين و فيه أصهب ، فلذلك صار الناس فيهم لين و فيهـــم خشن و فيهم أبيض و فيهم أصفر و أحمر و أصهب و أسود على الوان التراب " . (١(

أما اختلاف اللسان فهو خاضع للظروف و البيئة المحيطة بالانسان.

و هذا الاختلاف دليل الحكمة ، ذلك لأن كل نوع يتناسب و محيطه ، كما لو راينا اختلاف أجهزة الطيارة و مختلف أجزاءها ، و عرفنا كيف أن كل جهاز يقوم بدور و هو مناسب لدوره و لو بدلنا جهازا أو جزء من جهاز بجهاز آخر أو جزء ثان لما تكاملت الطيارة و نهتدي منوراء ذلك الى كلمة صانع الطيارة.

(1)نور الثقلين / ج ٤ -ص ١٧٧

[23]و من آياته - عز و جل - منامكم بالليل و النهار ، و حسبما أعلم لم يتوصل العلماء حتى الآن الى سر النوم ، و كيف ينام ، و لماذا عندما يتعب الانسان تتراخى اعضاؤه و ينام ، و يكون مثله مثل الميت ؟

]و من اياته منامكم بالليل و النهار[

فالانسان ينام ليلا ، و قد ينام نهارا في القيلولة ، و قد أكدت بعض الروايات على استحباب نوم النهار إذ إنه يساعد على قيام الليل ، و قد جاءت بعض الروايات لتوضح حقيقة النوم.

- 1عن أمير المؤمنين (ع (قال:

"النوم راحة من ألم ، و ملائمة الموت " (١)٢ - عن ابي عبد الله (ع) قال :

"ان النوم سلطان الدماغ ، و هو قوام الجسد و قوته " (٢)[ابتغاؤكم من فضله[

نهارا.

ما الذي يدفعك الى الحصول على الرزق ، و بينك و بينه الكثير من العقبات ، إنك تصل الى رزقك عبر حاجة غريزية ولو لا تلك الحاجة الملحة ، ولولا قدرات الانسان العقلية و الجسدية التي تمكنه من تحصيل رزقه بتسخير ما في الارض ، لما(١) غرر الحكم

(2)بحار الانوار / ج - 62ص ٣١٦

بقيت الحياة . أوليس في ذلك دليلا على حكمة خالقه و لطف عنايته ، و دقة تدبيره ؟

ثم ان لكل شخص رزقه الذي يهديه إليه ربنا ، ولو أمعنا النظر في أحوال الناس لغمرنا الايمان بربنا الذي يهيئ لكل واحد منهم طريقا للرزق حتى لا يدع أحدا إلا و يطعمه من رحمته.

جاء في الدعاء:

)اللهم إنه ليس لي علم بموضع رزقي ، و إنما أطلبه بخطرات تخطر على قلبي ، فأجول في طلبه البلدان ، فأنا فيما أنا فيه كالحيران ، لا أدري افي سهل هو أم في جبل ، أم في أرض أم في سماء ، أم في بر أم في بحر ، و على يد من ، و من قبل من ، وقد علمت ان علمه عندك و أسبابه بيدك ، و أنت الذي تقسمه بلطفك ، و تسببه برحمتك ، اللهم فصل على محمد و آله و اجعل يا رب رزقك لي واسعا ، و مطلبه سهلا ، و مأخذه قريبا ، و لا تعنني بطلب ما لم تقدر لي فيه رزقا ، فإنك غني عن عذابي و أنا فقير الى رحمتك ، فصل على محمد و آله وجدعلى عبدك بفضلك إنك ذو فضل عظيم) (١(

[24]ومن آياته رزق الانسان من السماء ، فهو سبحانه يرسل السحاب حاملا معه الخوف و الطمع ، ذلك أن الانسان يخشـــى السحب التي قد تكون نذيرا بالصواعق أو السيول ، و لكنه يطمع في خيراتها في ذات الوقت.

]و من اياته يريكم البرق خوفا و طمعا و ينزل من السماء ماء فيحي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لايات لقوم يعقلون (1)[مفاتيح الجنان / تعقيب صلاة العشاء

و للبرق قيمة زراعية ، إذ أنه يؤمن الجو فيتكون المازوت من اندماج ذرات الأوكسجين بالهيدروجين بالنيتروجين.

هذا التناسب في الكون دليل على ان الذي يقدر الكون و يديره هو الله سبحانه ، و أن هذه الآيات القرآنية المبثوثة في الكون لا يفهمها و لا يستفيد منها إلا أولئك الذين يفكرون و يستفيدون من عقولهم.

ذكر الله سبحانه في هذه الآيات أربع جمل عقب كل آية ، و لعلها تخبر عن مراحل المعرفة ، فقال تعالى :

"ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون"

"ان في ذلك لآيات للعالمين"

"أن في ذلك لآيات لقوم يسمعون"

"ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون"

فنحن بحاجة الى الفكر و العلم و السماع و العقل.

فنحن نفكر حتى نحصل على العلم ، و العلم يدعونا للإستفادة من علوم الآخرين عبر سماع علومهم و أخبارهم ، و عندما نجمع علومنا الى علومهم آنئذ نعقل ، و عندما نعقل نصبح مؤمنين بالله عز وجل ، لاننا نستطيع أن نستوعب آياته و نتوصل بها إليه.

فأقم وجهك للدين حنيفا

هدى من الآيات

بعد أن أرسى الذكر قاعدة الايمان في النفس حين ذكر بآيات الله في خلقه البشر شرع في تصفية الايمان من رواسب الشرك ، تلك العقبة الكأداء في طريق البشر الى ربه ، و الشرك في القرآن الكريم ليس لونا واحدا ، بل لأنه نقيض الايمان فهو متعدد الأبعاد ، و الألوانذلك لأن من يترك الحق و يتجه الى الباطل فليس بالضرورة ان يعبد باطلا من نوع واحد ، بل إن كل كافر قد يعبد باطلا مختلفا عمن سواه ، فمن اتبع هواه فقد اشرك بالله ، و هكذا من اتبع سلطانا جائرا أو مجتمعا فاسدا أو غنيا مترفا ، فقد أشرك بالله سبحانه ، و هكذا من فرق دينه حسب هواه ، و هكذا كلما لم يكن ايمان المرء خالصا كان مشوبا بالشرك.

و كلما أردنا معالجة نوع من الإنحراف لابد ان نؤكد على التوحيد ، لأن التوحيد عصمة الانسان و حصنه من الإنحراف ، و كل انحراف عن طريق التوحيد هو بالتالي سقوط في مادية الشرك.

و يذكرنا الرب بنظام السموات و الارض و حسن التدبير في حركتها ، لعلنا نهتدي الى قدرة المدبر الحكيم الواسعة و التي تحيط بنا من حولنا ، و نؤمن بيوم النشور حيث يدعونا دعوة واحدة ، فإذا بنا خارجون من القبور بلا تريث أو تباطئ.

و مادامت الهيمنة التامة له فان كل شيء مملوك له قانت لأمره و مطيع لسلطانه أوليس قد بدا الخلق ، و هو يعيده بأيسر مما خلقه ، و إنه له الاسماء الحسنى التي تهدي إليها آياته في السموات و الارض ، و هو العزيز الحكيم ؟ بلى . إذا لا ينبغي الشرك به . أو يجوزان يشركك فيما تملكه بجهد غيرك ممن لا سلطان له ؟ كلا .. إذا حرام أن نشرك بربنا من خلقه أحدا .. هكذا يبين ربنا آياته بوضوح بالغ لمن يعقل ، أما الذين ظلموا فإنهم لا ينتفعون بعقولهم بل يتبعون أهواءهم بغير علم و لا يهديهم الله . أرأيت من لم يهده الله هليهديه من بعده أحد ؟ أو هل ينصره أحد ؟

دين التوحيد فطرة إلهية خلق الله الناس عليها ، و لا تبديل لخلق الله و هو دين قيم لا عــوج له و لا أمت ، و إنما يخالفه الناس لجهلهم ، فعلينا ان نتبعه طاهرا من الشرك ، و نعود إليه كلما أبعدتنا عوامل الإنحراف ، مستعينين بالصلاة التي هي ركن كيان التوحيد ، فلا نشرك بربنا أحدا.

و آية التوحيد في الواقع وحدة الدين ، و ألا نفرقه و نكون شيعا متفرقين ، يفرح كل شيعة بما يملكون ، و يتركون ما يؤمنون به من الدين الذي يوحدهم.

إن ما يملكه كل حزب زيف يتلاشى عندما يمس الناس ضر ، اذ يدعون هنالك ربهم عائدين اليه ، و لكنهم إذا أحسوا برحمة لا يثبتون جميعا على الهدى ، بلى . يشركون بربهم ، و هذا عين الكفر بالنعمة ، و يهددهم الله بزوالها و سوف يعلمون مدى خسارتهم بالشرك.

بينات من الآيات

[25]بين القدر و القضاء ما بين التشريع و التنفيذ ، و لقد سن ربنا للخليقة سننا نسميها بالأنظمة و القوانين ، و لكنها لا تعني شيئا لولا إجرائها و امضائها و تنفيذها و الذي لا يكون إلا بالقضاء وهو يتجلى في امر الله ، فما هو أمر الله ؟

لكي نعرف قدرا من ملكوت السموات و الارض يستخدم القرآن الفاظا تعودنا عليها في حياتنا اليومية ، فنحن حينما نريد ان يتحقق شيء نأمر به من هو دوننا ، و عندما يريد الله شيئا يأمر به و لكن أمره مشيئته التي لا راد لها.

و السموات و الارض منظمة بتقديرات الهية و سنن ثابتة ، و لكن من يطبق تلك النظم و يجري تلك السنن ؟

إنه ربنا و بماذا ؟ بأمره.

إذا أمره مظهر سلطانه الدائم و هيمنته على كل صغيرة و كبيرة.

دعنا نضرب مثلا - و تعالى الله عن الامثال: -

إن الساعة الصغيرة ليس فيها نظام داخلي فحسب ، بل فيها أيضا قوة تجعل هذا النظام يطبق ، فلو سحبت هذه القوة لتوقف النظام ، هكذا أمر الله لو انعدم فرضا فان الكون ينتهي ، و ذلك لسببين:

أولا : لان النظام يتوقف تماما لعدم وجود ما يقوم به.

ثانيا : لأن وجود الخلق ذاته ينتهي ، لأن وجود كل شيء قائم بأمر الله سبحانه ، و لعل الآية التالية تشير الى كلا السببين:

]و من اياته ان تقوم السماء و الأرض بأمره[

بأمره قامت السموات و الارض ، و كلمة " أمر " توحي بالقدرة التامة ، و بأن الفعل لا يكلف صاحبه عملا و لا يورثه نصبا ، و هو أصدق تعبير عن قيام الخليقة بالله سبحانه جاء في الدعاء:

)و جعلت الشمس و القمر و البرية سراجا وهاجا ، من غير أن تمارس فيما ابتدأت به لغوبا و لا علاجا) (١)و كلمة القيام توحي بتمام الشيء ، و كماله فكما إن البشر حين يقوم يكون على أتم استعداد و في أفضل حالة ، فكذلك قيام السموات و الارض تعبير عن افضل حالاتهما ، و معروف ان تمام الشيء لا يعني مجرد وجوده ، بل و ايضا صلاحه و سلامته كل ذلك يدلنا على تمام قدرة ربنا و مطلق سلطانه و انه يقيم الخليقة بـ (أمره) فهو اذا يهلكها بـ (أمره) و يعيدها بـ (امره. (

و الانسان بين الخليقة يقوم بأمر الله ، و يهلك بأمره و دعوته ، و ينشر بأمره و دعوته ، و قد استخدمت هنا كلمة الدعوة لان البشر صاحب عقل ، و العاقل يدعى فيجيب.

و قدرته هي التي تستطيع ان تعيد ما في السموات و ما في الارض الى ما كانت عليه سابقا.

]ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون[

حين يأمر اسرافيل أن ينفخ في الصور فإذا هم قيام ينظرون ، يخرجون من(١) مفاتيح الجنان / دعاءالصباح

الأجداث إلى ربهم ، و كلمة " إذا " تدل على المفاجأة.

أي تخرجون كلكم جميعا ، دفعة واحدة ، بمجرد دعوته اليكم دون ان تملكوا قدرة الامتناع و التمرد أو التريث و التباطئ.

[27]و الله يبدؤا الخلق بقدرته ، إذا فهو أهون عليه حين يعيده ، و بالنسبة الى المخلوق فإن تقليد شيء مصنوع أسهل من ابتكاره ، أما بالنسبة الى الخالق المبدع فإن الامور لا تقاس بالصعوبة أو بالسهولة ، لأن أمره بين الكاف و النون ، " انما أمره اذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون " (١) و إنما عبر بأنه أهون لبيان هذه الحقيقة ، أن اعادة الشـــيء بعد الخلق بذاتها أهون من ابتداع خلقه (حتى ولو كانا بالنسبة الى قدرة الله سواء) فلماذا نراهم يؤمنون بأول الخلق ، و يكفرون برجعته ، و هي عند الله يسير ؟!

و من هنا قال الحكماء : ان الكلمات عاجزة عن التعبير عن ذات الرب سبحانه ، و إنما تعبر عن اسمائه و أفعاله ، و قالوا : خذ الغايات و اترك المبادئ ، فاذا قلنا ان الله رحيـــم ، فاننا لا نعني ان لله قلبا ينبض بالحب ، بل انه عندما يرحم يفعل موجبات الرحمة ، و كذلك عندما نقول : " هو أهون عليه " "وهو الذي يبدء الخلق ثم يعيده و هو أهون عليه. "

و هو اذ يبدء الخلق و اذ يعيده هينا لا يمارس لغوبا و لا علاجا ، ولا يحتاج الى أدوات و آلات ، و لا تجد في خلقه ثغرات أو فطورا ، و كلما مشيت في مناكب أرضه ، و قلبت وجهك في ملكوت سمواته ، و أنعمت النظر في عظيم تدبيره ، و حسن نظامه ، و متانة صنعه ، كلما ازددت بصيرة باسمائه الحسنى بأنه الملك القدوس السلام(١) يس / ٨٢

المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، و بالتالي بأن له المثل الأعلى الذي تشير اليه آيات الجمال و الكمال في السموات و الارض.

]و له من في السموات و الارض[

بلى .السموات عظيمة واسعة ، و جميلة ، و رائعة النظام ، و حسنة التدبير ، إذا فهي تهدينا الى أن لربنا المثل الأعلى فهو العظيم الواسع (قدرة) و الجميل و المدبر . وفي الارض آيات الجمال و الجلال و هي تهدينا الى سلطان الرب و ملكوته و سائر اسمائه الحسنى.

و لأن لربنا المثل الأعلى فلا يمكن ان نقيس به شيئا فهو الأعلى مما نرى و مما لا نرى في السموات و الارض ، و لا يجوز إذا ان نشبهه بشيء أو نتوهمه أو نتصوره سبحانه ، جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق (ع) في تفسير الآية:

"الذي لا يشبهه شيء و لا يوصف و لا يتوهم فذلك المثل الاعلى " (١)[٢٨] يضرب ربنا سبحانه مثلا من واقع الجزيرة العربية ، حيث كانوا يعيشون نظام السادة و العبيد فيخاطبهم : هل يقبلون أن يشاركهم عبد من عبيدهم ما يملكون فهم و اياه سواء ، علما انه و ما يملك لهم ؟!

اذا كانوا لا يوافقون على هذا الاقتراح . فكيف يجعلون لله اندادا ؟!

]ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء]متساوون في الشركة ، و أكثر من ذلك...

(1)نور الثقلين / ج ٤ -ص ١٨٠

]تخافونهم كخيفتكم أنفسكم[

كما هي عادة الشركاء يخاف بعضهم من بعض ، فهل تخافون عبيدكم ؟ كلا..

]كذلك نفصل الايات لقوم يعقلون[

لأنه لا يعقل آيات الله إلا ذوي الألباب.

[29]و الحقيقة هي : إن الذين يشركون ليس يتبعون شريكا كرها ، و لا يضلون عن الحق لغموضه أو لعدم قدرتهم على معرفته ، بل لاتباعهم الهوى.

]بل اتبع الذين ظلموا اهواءهم بغير علم[

و عبادة الهوى هو جوهر الشرك ، لأن المشرك إنما يتبع طاغوته خوف الذبح ، ولا يخضع المشرك للغني إلا طمعا في ماله ، فالمشكلة بالنسبة الى المشرك هي حب الخلود و الراحة.

و الآية تذكرنا بأن الظلم أساس اتباع الهوى ، و هو بدوره سبب الضلالة ، و لعل ذلك يهدينا الى دور الفساد في العلاقات الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية و دوره في ضلالة الانسان.

فاذا كانت العلاقات القائمة بين ابناء البشر سليمة ، و لم يكن بعضهم يظلم بعضا ، لم تكن حاجة الى اتباع الهوى .

كما تذكرنا الآية ان الهوى و العلم ضدان ، فمن اتبع هواه رحل عنه العلم ، و من خالف هواه استضاء بنور العلم ، و الذي يتبع هواه بغير علم سوف يضله الله.

]فمن يهدي من أضل الله[

إن الله يضل الانسان ، و يسلب منه علمه اذا لم يعمل بذلك العلم ، و ترك علمه الى جهله ، و اتبع هواه ، و لا يجد إذا من يهديه من دون الله.

ثم ان الانسان يتبع هواه ، و يطيع الأنداد ، طمعا في نصرتهم ، و بحثا عن القوة عندهم ، و لكن الله يذكرهم بأنهم لا ينتصرون له أذا جاءه عذاب الله ، اذ لا يقدرون على ذلك.

]و مالهم من ناصرين[

في الدنيا و الآخرة من الذين عبدوهم ، و مالهم من شافعين.

و هـــذا يعني ان الانسان يحتاج في حياته الى شيئين : عقل يهديه ، و قوة تنصره ، فمن اتبع هواه فقد خسر العقل و القوة معا.

[30]ثم يقول الله للانسان : إذا أردت ان تعبد الله حقا ، عليك ان تنحرف عن كل الضغوط ، و بتعبير آخر عليك ان تكون حنيفا عن الشرك طاهرا نظيفا.

]فأقم وجهك للدين حنيفا[

الوجه أظهر شيء عند الانسان ، و لذلك يعبر به عن مواقفه و جهة سيره فيقال : توجهات فلان أي طريقته و سلوكه.

و القيام بمعنى الكمال ، لأن الانسان يكون في أفضل حالاته عند القيام ، و لذلك يقول الذكر : " أقم الصلاة " تعبيرا عن إتيانها بالوجه الكامل.

و يعبر الذكر هنا عن خلوص العمل بالدين عن شوائب الشرك بـ " أقم وجهكللدين " لأن مجرد قبول الدين لا يكفي ، بل ينبغي تطبيق كل المواقف و السلوكيات و التوجهات مع شرائعه ، و يؤكد ذلك قوله سبحانه " حنيفا " أي طاهرا من رجس الشرك ، و دنس الرذائل.

و لا يكون ذلك إلا بتحدي الضغوط.

فالحنيفية حقا ان تقدم و منذ البداية على مخالفة المشركين ، انك ان تتبع الذين يضلـونك بغير علم فأنت لست على طريق مستقيم ، يجب ان تشق طريقك بنفسك ، الى حيث..

]فطرت الله التي فطر الناس عليها[

حيث الاستقامة . و هذا يعني انك اذا كنت تواجه ضغوطا خارجية تدعوك لاتباع الطريق المنحرف فان هناك ضغطا معاكسا في ذاتك يدعوك لاتباع الطريق المستقيم ، و هي الفطرة التي فطر الناس عليها ، حيث قال الله : " و اذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا انما اشرك اباؤنا من قبل و كنا ذرية من بعدهم افتهلكنا بما فعل المبطلون " (١)و أصل الفطرة الشق ، و سمي الخلق فطرة ربما لأن الخلق يتم عادة بانشقاق شيء عن شيء ، و معنى فطرة الله هنا : الوحدانية ، حيث انها جزء من خلق الناس جميعا (و ليس المؤمنون منه فقط. (

]لا تبديل لخلق الله[

(1)الاعراف / ١٧٢ - 173

لعل معناها ان الانسان لا يمكن ان يغير فطرته بالتربية أو التوجيه ، و حتى الأعمال السيئة لا تغير فطرة

البشر.

فأنت ومن يعاقر الخمر أو يقتل الادميين في الفطرة سواء ، صحيح ان الفطرة تنتكس ، و تغطى بالذنوب الا ان المذنب يشعر بذنبه ، و الكاذب يشعر بكذبه ، و الضال يعلم بخطئه ، و لكن فطرتهم ضعيفة.

و هذه الفطرة الالهية الثابتة أفضل دين يلتزم به البشر ، و يتبعه ، و يرى شخصيته فيه لانه قيم لا عوج فيه ، و تستقيم معه شخصية الانسان و حياته و مجتمعه ، بينما تتطرف سائر الاديان يمينا و شمالا ، و تفسد ضمير البشر ، و تمسخ شخصيته و تضيع حياته.

و نستوحي من هذه الكلمة ان الدين ضرورة انسانية ، يشعر القلب من دونه بفراغ كبير ، الا ان أغلب الناس يخطئون في نوع الدين الذي يعتنقونه.

]ذلك الدين القيم[

و نستنتــج من هذه الآية ان طريق معرفة الدين الصحيح يتلخص في دليلين : الاول : هدى الله حيث يقول " : فأقم وجهك للدين حنيفا " و الثاني : الوجدان.

]و لكن أكثر الناس لا يعلمون[

مشكلة الناس انهم لا يستفيدون من علمهم ، لأنهم يتبعون أهواءهم ، و علينا ألا توحشنا قلة الديانين بدين الحق ، أو كثرة الميالين الى سبل الشيطان ، ذلك لأن اكثر الناس هم الذين لا يعلمون.

[31]و ليس هينا الإستقامة على الدين الحق ، لأن دواعي الشهوة ، و وساوسالشيطان ، و ضغوط المجتمع تميل بالانسان عن طريق الحق ، فلابد إذا من الإنابة الى الله دائما ، فكلما مالت اسباب الانحراف به شرقا أو غربا أناب الى ربه ، و التزم التقوى بتطبيق كافة الشرائع التي هي حصن التوحيد ، و سور المعرفة ، و من أبرز معاني التقوى إقامةالصلاة ، تلك الحصن المنيعة للإيمان ، و السور الرفيع لعرفان الرب.

]منيبين إليه و اتقوه و أقيموا الصلاة[

و الفرق بين هذه الآية وما قبلها ان ما قبلها تأتي بصورة مفردة بتعبير " فاقم " بينما في هذه الآية تأتي بصورة جمع ، و ذلك لأن الانسان واحد في مقام المسؤولية ، و لكن في مقام العمل يعمل مع الآخرين ، فالانسان مسؤول أمام الله لوحده ، و كل نفس مسؤولة عن نفسها.

ان الله طلب منا الالتزام بالصراط المستقيم عبر اقامة الوجه لدينه ، و اتباع فطرتــه التي غرسها فينا ، و لكن كيف يتم ذلك ، و كيف نحافظ عليهما ؟ يقول ربنا سبحانه " :منيبين اليه و اتقوه و اقيموا الصلاة. "

فأنت مؤمن بدينك و بدافع فطرتك ، انك عندما تذهب الى المسجد مثلا تجد هناك امثالك ، فانت وهم تكونون مجتمعا ، فأنيبوا الى الله ، و هناك نظرية تقول : ان الايمان يتبلور في مجتمع ، و ليس الفرد بوحده قادر على ان يترجم دين ربه لوحده ، فالله يدفع الناس بعضهم ببعض كي يحوطون هذا الدين.

و الانابة الى الله ، و تقواه ، و اقامة الصلاة كعجلة القيادة التي لا تدع السيارة تنحرف لو أمسكنا بها في طريق مثلج ، فالمجتمع يسحبنا يمينا و يسارا ، و لكن الانابة الى الله و تقواه ، و اقامة الصلاة تجعلها على الطريق المستقيم.

و هناك فرق بين اقامة الصلاة و بين الاتيان بالصلاة ، فإقامة الصلاة هو الالتزام بحدودها.

عن ابي عبد الله الحسين (ع (انه قال:

"و حق الصلاة ان تعلم انه وفادة الى الله - عز و جل - و انك فيها قائم بين يدي الله - عز و جل - فاذا علمت ذلك قمت مقام الذليل الحقير ، الراغب الراهب ، الراجي الخائف ، المستكين المتضرع ، المعظم لمن كان بين يديه بالسكون و الوقار ، و تقبل عليها بقلبك و تقيمها بحدودها ، و حقوقها(1) . "

و عن ابي عبد الله الصادق)ع) انه قال:

"اذا استقبلت القبلة فانس الدنيا و ما فيها ، و الخلق و ما هم فيه ، واستفرغ قلبك عن كل شاغل يشغلك عن الله ، و عاين بسرك عظمة الله ، و اذكر وقوفك بين يديه يوم تبلو كل نفس ما أسلفت ، و ردوا الى الله مولاهم الحق ، و قف على قدم الخوف و الرجاء.

فاذا كبرت فاستصغر ما بين السموات العلى و الثرى دون كبريائه ، فان الله تعالى اذا اطلع على قلب العبد و هو يكبر و في قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال : يا كاذب اتخدعني ؟! و عزتي و جلالي لاحرمنك حلاوة ذكري ، و لاحجبنك عن قربي ، و المسارة بمناجاتي.

و اعلم انه غير محتاج الى خدمتك و هو غني عن عبادتك و دعائك ، و انما دعاك بفضله ليرحمك و يبعدك من عقوبته " . (٢)(١) بحار الانوار / ج ٨٤ - ص ٢٤٨

(2)المصدر / ص ٢٣٠

و في بعض الاحاديث ان للصلاة حدودا.

عن زكريا بن آدم ، عن الرضا)ع) قال : سمعته يقول:

"الصلاة لها اربعة آلاف باب " (١(

و عن ابي عبد الله الصادق)ع) قال:

"للصلاة اربعة آلاف حدود " (٢(

]و لا تكونوا من المشركين[

[32]من اجل الاستقامة على الدين الحنيف ، و الطهارة من رجس الشرك ، لابد من الإنابة ، و التقوى ، و اقامة الصلاة هنالك يدخل المؤمن في حصن التوحيد ، و يتقى مظاهر الشرك و من أبرزها الاختلاف في الدين شيعا و احزابا.

]من الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون]" فرقوا دينهم "اي اختلفوا عن الطريق الذي رسمه الله لهم ، فلم توحدهم مناهج الشريعة ، و لعل (الشيع) تعني اتباع الشخص بينما الحزب هو التقاء مجموعة من الناس في الافكار.

فاذا اردتم ان تعرفوا هل انتم على شرك أم على بصيرة من ربكم فانظروا هل عندكم خلافات تنبع من أهوائكم ، فالمجتمع الذي يتبع الله لا يختلف لان افراده جميعا يتبعون شخصا واحدا ، يقودهم الى الله ، و لكن لماذا يسمي الله الذين فرقوا(١) و (٢) المصدر / ج ٨٢ - ص ٣٠٣

دينهم مشركين ؟

الجواب أحد احتمالين:

- 1اما انهم متبعون اهواءهم ، حيث قال ربنا : " بل اتبع الذين ظلموا اهواءهم بغير علم. "

- 2او لانهم اتبعوا اشخاصا بعينهم شذوا بهم عن سبيل الله.

و المشكلة الاهم ليس تفرقهم فحسب ، بل هم مغرورون بمكتسباتهم ، و كل حزب فرح بما حقق من مكتسبات و انتصارات.

و هذه الآية تكشف طبيعة التحزب الذي هو الغرور بما يملكه الشخص أو التجمع من حطام الدنيا ، دون التوكل على الله ، و الفرح بما يؤتيه عباده الصالحين من فضله.

و حين يعتمد البشر على غير الله يكله الله الى نفسه فيخسر الدارين أرايت كيف أخذ يقلب كفيه على ما انفق على حقوله الزراعية ، ذلك المغرور الذي نصحه صاحبه ان يقول مـا شاء الله ، فرفض ، أو رايت قارون حين أبى نصيحة قومه إذ قالوا له : لا تفرح ، كيف خسف الله به و بداره الارض ؟!

كذلك الذيــن يفرحون بما لديهم من اموال و انصار فيفرقهم هذا الغرور عن بعضهم ، و يبعدهم عن دينهم ، و يلحقهم بالمشركين و هم يحسبون ان مكتسباتهم الدنيوية دليل صدقهم ، بينما هم الاخسرون اعمالا.

[33]متى يعرف البشر أنه على حق ، أم على باطل ؟

ان ربنا يعطينا مقياسا وجدانيا ذاتيا ، ففي حالات الضر و الاضطرار هنالكينسى كل الآلهة المزيفة التي كان يعبدها ، ينسى هواه و يتجه بقلبه الى ربه.

]و إذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه[

و لكن..

]ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون]و هذه مشكلة الانسان انه ينسى ساعات الحرج التي مر بها ، و لا عذر للانسان ان يقول : لم اعرف الله . بلى . قد عرفت حين الحاجة ، فقد توجهت آنذاك الى الله.

و نجد في الآية التعبير بـ " مس " و " أذاقهم " و هما يدلان على أدنى الاحساس ، و يعكسان بالتالي طبيعة البشر الجزوع ، و كيف انه بمجرد ان يمسه ضر يجأر الى ربه ، ثم بمجرد ان يذيقه طعم رحمته ينكفئ و يشرك به.

و المفهوم من الآية ان الناس جميعا يتوجهون الى ربهم عندما يحسون خطرا ، بينما بعضهم فقط يشركون بربهم عند النعمة.

وفي الآية هذه علاج حالة التحزب ، حيث ان الذين فرقوا دينهم إنما فرحوا بما لديهم ، و اغتروا بما يملكون من ثروة أو سلطان ناسين نعم الله عليهم ، و كيف انه سبحانه ملجأهم الاخير حين تتقطع بهم السبل ، و تضيق عليهم مذاهب الدنيا ، هنالك ينسون محاورهم الحزبية ، و انتماءاتهم المختلفة ، و يتجهون الى ربهم العزيز المقتدر.

[34]و هؤلاء الذين يشركون فور إحساسهم بالنعمة ، و يفرحون بما لديهم من نعم ظاهرة فيتبعون الانداد ، و يتحزبون لبعضهم غرورا بما يملكون ، انهم يكفرونبنعم الله ، و ينذرهم الله بأن كفرهم هذا يدعهم خاسرين لتلك النعم في الدنيا ، و لحظهم في الآخرة.

]ليكفروا بما ءاتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون[

و نستوحي من هذه الآية الحقائق التالية:

أولا :ان حالة التحزب القائمة على اساس الفخر ببعض ما لدى صاحبها من نعم تسبب الكفر بسائر النعم ، فمن بالغ في الفخر بابنائه ، لا يمكنه ان يتنعم بسائر الشباب في المجتمع ، و من تطرف في الاهتمام بثقافته و فكر حزبه لم ينتفع بعلوم الناس و معارفهم ، و منفرح بما يملكه من مال توقف سعيه ولم يستفد من فرص الاكتساب التي امامه ... و هكذا.

و عادة يصاب المتحزبون بانغلاق فيحرمون أنفسهم من نعم الله في الحياة.

ثانيا :ان الشكر على النعم ليس فقط يحافظ عليها و يزيدها ، و انما ايضا يجعلها هنيئة لصاحبها ، لان وعي النعم غذاء القلب ، و لذة الروح ، بينما الذين يكفرون بنعم الله انما يتمتعون ببعضها ، كما تتمتع الأنعام و لا يهنؤون بها كما يهنئ البشر ، اذ ان توجههم سيكون فقط الى الجانب المادي من النعم ، و ينسون الأبعاد المعنوية منها.

ثالثا : ان الكفر بالنعم يكون سببا لزوالها ، بل لتحولها الى نكال اذ ان من يتمتع بالنعم فقط سوف لا يراعي حدودها فيفسدها على نفسه ، كمن ينهم بالجنس مثلا لمجرد لذته تراه يسرف فيه حتى يفسد نفسه ، كذلك الذي يطعم لشهوة الأكل فقط يتجاوز الحد في التهام الطعام مما يفسد معدته ... و هكذا .

الشرك بين التبرير الثقافي و الآثار الاقتصادية

هدى من الآيات

بعـد ان يبيـن القرآن أثر الشرك في الدرس الماضي ، حيث ان الشرك يبث الخلاف ، و يكرس الصراع ، و يفرق الديانات ، ينسق في هذا الدرس أساسين يعتمد عليهما المشركون.

الاول : التبرير الشرعي للشرك ، و ذلك بالاعتقاد بان ربنا سبحانه قد خول هذه الفئة أو تلك بشؤون الدنيا أو الدين ، من دون اقامة دليل صادق على هذا الادعاء.

الثاني : التبرير الاقتصادي بزعم ان الأنداد يملكون للناس رزقا ، و يعالج السياق خلفية هذا الزعم النابع من الجهل بالله ، و القنوط من روحه عند الضراء ، و الكفر بفضله - غرورا - في السراء.

و هكذا يعيش الانسان بين خطرين:

الرجاء المفرط حال النعمة ، و اليأس القاتل عند البلاء ، بينما الرجاء و اليأسيجب ان يتعادلا عند الانسان.

و لإكمال بيان جوانب الموضوع يشير السياق الى البعد الإقتصادي للصورة ، مقارنا بين المجتمع التوحيدي و المجتمع الشركي.

يستوحي ربنا من هذه الآية فكرة نجدها في الآيتين التاليتين ، و هي : ان الانسان الذي ينفق في سبيل الله سيضاعف له الأجر ، فيما ذلك الانسان الذي يأخذ الربا اضعافا مضاعفة لن يربو عند الله ، ذلك لان الذي ينفق ماله في سبيل الله يعلم بأن الله سيعوضه خيرا منه ، بينما المرابي لا يثق بالله ، و لا يتحرك كما أمره الله بأن يشد عضده بأخيه المسلم.

بعد ذلك يذكرنا سبحانه بانه هو الرازق لمن خلق ، و انه يحيي و يميت ، فهل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ؟! سبحانه و تعالى عما يشركون.

بينات من الآيات

[35]انى كانت دوافع الضلالة و الاجرام عند البشر فانه يبحث لنفسه عن تبرير ثقافي ليسكت صيحة الوجدان التي لا تزال تدوي في ضميره ، و اخطر تبرير ثقافي يكون عندما يزعم الانسان أن الله أمره بما يهواه ، ذلك ان فطرة الدين الراسخة في كل قلب ، اعظم ضمانة لإصلاح البشر ، فاذا انتكست هذه الفطرة ترى اي ضمانة تبقى عنده ؟!

و السؤال : كيف نقف في وجه التبرير الشرعي للجرائم ، و كيف نواجه ادعياء الدين ، الذين لا زالوا يفترون على الله كذبا ، و كيف نتحدى هؤلاء الحكام الذين يبررون سلطانهم أبدا بأن الله معهم ، و انهم ظل الله في ارضه ؟

الجواب : انما يتم ذلك بالتأكيد على ان من يدعي انه من عند الله لابد ان يأتيبسلطان مبين ، بما لا يدع للشك مجالا ، و آنئذ فقط يجوز للعباد الاستماع اليه و التسليم لاوامره.

و هكذا يتساءل الذكر قائلا:

]أم أنزلنا عليهم سلطانا[

و برهانا يتسلط على القلب كله ، بما لا يدع فرصة للشك ، كما السلطان الذي أنزل الله على موسى (ع) بالعصى ، و على عيسى (ع) بإحياء الموتى ، و على محمد (ص) بالقرآن ، و لابد ان يكون هذا السلطان واضحا صريحا و كأنه ينطق بالذي يدعونه.

]فهو يتكلم بما كانوا به يشركون[

اننا ربما نتساءل : لماذا يرد الله على مثل هؤلاء المشركين ؟ فنقول:

ان مشكلة هؤلاء مشكلة ثقافية ، و ربما بنيت حياتهم و سياستهم و أعمالهم على امثال هذه الأفكار ، فينسف الله امثال هذه الافكار من أساسها ، و لكي لا يحتجوا على الله يوم القيامة بانه لم يوضح لهم الحقيقة ، لقد اوضح لهم اياها ، و لا حجة لهم.

و كثير من المشركين يتصورون انهم مكلفون من الله باتباع شركائهم ، أو يزعمون ان الاصنام شفعاء عند الله ، و انها تقربهم اليه زلفى!

كما يزعم الطغاة اليوم حيث يعتبرون أنفسهم ممثلين عن الله سبحانه ، و كذا كان سلاطين المسلمين الذين قاموا باسم الدين ، كان يصورهم الشعراء بانهم آلهة من دون الله كما قال بعضهم في وصف احد الخلفاء العباسيين:

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهارو قد ادعى هتلر انه مكلف من قبل الله سبحانه بأن ينقذ الشعب الالماني ، و كان رمزه الصليب المعكوف ، و هكذا المستكبرون في الغرب اليوم ، و القرآن يواجه كل هذه القوى الجاهلية التي تستعبد البشر باسم الدين بأنها ضالة ما لم ينزل الله عليهم سلطانا مبينا.

كما يجعل القرآن الناس امـام مسؤولياتهم مباشـرة ، من دون واسطة أدعياء الدين ، لكي يقطع الطريـق علـى وعاظ السلاطين ، و تجار الدين فلا يستغلوا سذاجة الناس ، و يحذروهم باسم الدين ، و يحرفون كلمه لقاء دراهم معدودة ، يتلقونها من الحكام.

[36]لماذا يتوسل بالشركاء و الانداد من دون الله ؟ السبب قد يكون التبرير الشرعي الذي نسفه السياق آنفا ، و قد يكون الزعم بانهم يرزقونهم من دون الله ، و الذي يعالجه القرآن من الجذور و يقول:

]وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها[

اي أحسوا بالبطر و الغرور ، و يبدو ان الفرح هو حالة الاحساس بالاشباع و الاستغناء ، و هي حالة ذميمة نهى الله عنها على لسان قوم قارون اذ قالوا له : " لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين " و لكنها حالة حميدة اذا اتصلت بالله ، فمن استغنى بالله أحسبالقوة بتوكله عليه.

و قد أمر الله بذلك اذ يقول :

"قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون " (١)(١) يونس / ٥٨

]و إن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم[

فان السيئات لا تصيب البشر الا بسبب ذنوبهم ، و عليهم ان يغيروا واقعهم الفاسد حتى يغير الله ما بهم ، و لكنهم يصابون بالقنوط بعد السيئة.

]إذا هم يقنطون[

و يستــوحى من كلمة " اذا " ان القنوط يداهمهم فجأة ، و ذلك بسبب ضعف نفوسهم ، و ضيق أفق التفكير عندهم ، و الآية تبصرنا بعدة حقائق:

أولا: ان الجهل بالله يجعل القلب متقلبا بين الغرور و القنوط ، بينما الثقة بالله تتسامى بالقلب فوق النعم ، فلا يبطر بها ، و النقم فلا ييأس بسببها.

و القلب الجاهل بربه و المتطرف بين البطر و اليأس هو الميت المنكر لله ، المشرك به ، اذ ترى صاحبه يهوى الى درك التسليم لاصحاب الثروة و السلطة رجاء وفدهم ، و خشية حرمانه.

و من هنا تجد المؤمنين يدعون ربهم الا يحوجهم الى لئام خلقه ، بل لا يبتليهم بالحاجة الى غيره لكي لا تميل نفوسهم الى غير الله ، فيزعمون انهم الرازقون لهم ، جاء في رائعة مكارم الاخلاق:

)اللهم اجعلني اصول بك عند الضرورة ، و أسألك عند الحاجة ، و اتضرع اليك عند المسكنة ، و لا تفتني بالإستعانة بغيرك اذا اضطررت ، ولا بالخضوع لسؤال غيرك اذا افتقرت ولا بالتضرع الى من دونك اذا رهبت فاستحق بذلك خذلانك و منعك و اعراضك يا ارحم الراحمين)(١(

(1)الامام علي بن الحسين (ع) / مفاتيح الجنان / ص ٦٠١و لعل في هذا تكمن الصلة بين هذه الآية و التي سبقتها.

ثانيا :تمهد الآية للحديث عن الصورة المشرقة التي يتحلى بها المجتمع القائم على أساس التوحيد ، و التباعد عن رجس الشرك . كيف ذلك ؟

ان كثيرا من الخصال الرذيلة تأتي بسبب حالة الجزع عند البشر ، فانما البخل و الغش و الكسب الحرام كالربا و غيره من افرازات شح النفس (الفرح - القنوط. (

كما ان فضيلة الانفاق و الكرم و العفة تأتي من الثقة بالله ، و بأنه الرازق ذو القوة المتين.

و هكذا مهد السياق للامر بالانفاق ، و النهي عن الربا ، بمعالجة هذه الحالة البشرية.

ثالثا :ان قلب المؤمن يعيش بين اليأس و الرجاء ، و لذلك يعيش التوتر الايجابي الفاعل الذي يبعث أبدا نحو النشاط و السعي ، بينما قلب المشرك يتطرف نحو الفرح ، فيغله جمود الغرور و البطر ، أو يتطرف نحو الياس فيقعده القنوط عن السعي ، و هل يتحرك من لا أمل له في النجاح ؟!

[37]ما علاقة هذه الحقيقة بالتوحيد ؟

العلاقة هي ان المؤمن يعتقد بان الرزق من الله ، و انه يبسطه لمن يشاء ، ويضيقه على من يشاء ، فلا يفرح ببسط الرزق لانه قد يسلبه في اية لحظة ، و لا يقنط بقبضه ، لان الله قادر على ان يبسطه في اية لحظة.

]أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر[

بلى .. و لكن أغلب الناس يبصرون العوامل المباشرة للرزق ، و ينسون العامل الغيبي لذلك قال ربنا:

]إن في ذلك لايات لقوم يؤمنون[

اما المؤمنون فانهم لا ينظرون فقط الى العوامل الظاهرة ، بل يبصرون اصابع الغيب التي تحرك تلك العوامل و تدبرها ، انهم يعلمون ان الفلاح لا يقوم الا بأعمال جدا ضئيلة اذا قيست بالعوامل التي تساهم في نمو الزراعة ابتداء من خصوبة التربة ، و عذوبة الماء ،و انتهاء بالمواد التي تنفسها الشمس عبر اشعتها ، و مرورا بسائر العوامل الرئيسية المفقودة مثلا في سائر الكرات الاخرى ، و لذلك أضحت الزراعة فيها مستحيلة.

و كما في الزراعة كذلك في سائر موارد الرزق ، و لذلك ترى المؤمنين وحدهم يهتدون بآيات الرزق ، و يشكرون ربهم عليها.

[38]لان الرزق من الله ، و لأن المؤمن لا يقنط من رحمته اذا فقد شيئا من ثروته ، ابتغاء رضوانه ، و لان المؤمن لا يفرح بما يؤتى ، ولا يحسب ما بيده دائما بل يراه عواري ، سوف يذهب منه في اية لحظة ، لذلك كله ينبغي ان ينفق من ماله للاقربين ثم ذوي الحاجةمن حوله.

]فئات ذا القربى حقه و المسكين و ابن السبيل[

ليس دور الترتيب الذي ذكر في هذه الآية اعتباطا ، فقد جاء في الروايات ان ذوي القربى مقدمون على غيرهم في الانفاق.

جاء في حديث مأثور عن ابي الامام الحسين (ع) قال:

"سمعت رسول الله (ص) يقول : ابدأ بمن تعول أمك و أباك و أختك و أخاك ، ثم ادناك ادناك ، و قال : لا صدقة و ذو رحم محتاج " (١)و قد جاء في بعض الاحاديث تفسير ذوي القربى بآل بيت الرسول (ص. (

/ 1و في كتاب الاحتجاج للعلامة الطبرسي (رض) عن علي بن الحسين (ع) لبعض الشاميين " أما قرأت هذه الآية " و آت ذا القربى حقه " قال : نعم ، قال (ع) : " فنحن اولئك الذين أمر الله عز و جل نبيه (ص) ان يؤتيهم حقهم " (٢)٢ / و في مجمع البيان ، عن ابي سعيد الخدري قال : لما نزلت هذه الآية : " وأت ذا القربى حقه .. " اعطى رسول الله (ص) فاطمة (ع) فدكا . (٣)[ذلك خير للذين يريدون وجه الله و أولئك هم المفلحون]يتراءى للانسان بادئ النظر ان الانفاق غرامة و خسارة ، بينما الحقيقة انه خير ، شريطة الا يداخله الرياء ، و حب السيطرة ، و ان يكون بالتالي في سبيل الله ، و الا فان ضره يطغى على نفعه ، اذ ان المستكبرين ايضا ينفقون اموالهم و لكن من اجل تحكيم قبضتهم علىالمستضعفين ، و سرقة ما تبقى عندهم من ثروات.

و السؤال : كيف يكون الانفاق خيرا ؟ و لماذا مجتمع الانفاق مجتمع مفلح ؟

الجواب :ان الانفاق سوف يزيد التكامل الاجتماعي ، مما يؤدي الى تماسك المجتمع و تقدمه ، بينما المجتمع المفكك ينهار سريعا امام المشاكل ، و لا ريب ان(١ (نور الثقلين / ج ٤ - ص ١٤٧

(2)تفسير نور الثقلين /ج ٣ - ص ١٥٥

(3)مجمع البيان / ج ٨ -ص ٣٠٦

فوائد التقدم تشمل المنفق كما المنفق عليه.

ثم ان يدك اليوم اعلى فهل تضمن ان تبقى كذلك كلا فقد تحتاج الى من انفقت عليه ، أو غيره و جاء في معنى الحديث من كف يده عن الناس فانه يكف يدا واحدة و تكف عنه مأة يد.

و الانفاق يحرك عجلة الاقتصاد ، و ينمي الثروة ، لانه يرفع الحاجات الملحة التي تقعد اصحابها عن النشاط.

و لعل اعظم فائدة للانفاق هي تحرير نفس صاحبه عن أسر المادة ، و مساعدته على الخروج من شح الذات ، و تحسيسه بلذة العطاء التي تفوق عند الانسان السوي لذة الأخذ ، و ربما جاء الأمر بالانفاق هنا بهذه المناسبة لانه يمهد سبيل الايمان بالله أمام الانسان ، أوليس حب الدنيا من اسباب الشرك.

[39]ان ما أخذ ربا لا يربوا عند الله ، لان المرابي يسلب من الآخرين اتعابهم و جهودهم ، اما من يؤتي الزكاة بغية وجه الله فاولئك هم المضعفون.

و في الحديث عن النبي (ص (قال:

"كل معروف صدقة الى غني أو فقير ، فتصدقوا و لو بشق تمرة ، و اتقوا النار و لو بشق تمرة ، فان الله عز و جل يربيها لصاحبها كما يربي احدكم فلوه أو فصيله ، حتى يوفيه اياها يوم القيامة ، حتى يكون اعظم من الجبل العظيم](1) " و ما ءاتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله](١ (بحار الانوار / ج ٩٦ - ص ١٢٢

ان الهدف من المال اقامة النظام الاجتماعي ، وتنشيط اجهزة المجتمع و الانفاق يقوم بهذا الهدف بافضل وجه ، بينما الربا يعوق ذلك ، اذ انه يقيد المال في حدود فوائد الدائن ، و يجعله شريكا ثقيل الظل لاتعاب الناس و جهودهم ، دون ان يتحمل خسارة أو يبذل جهدا .

و الربا ينمي طبقة مستكبرة متعالية و طفيلية في المجتمع ، مما تتجاوز أضراره الجوانب الاقتصادية الى الحياة السياسية فالثقافية و الاجتماعية.

و لعلنا اليوم نعي معاني هذه الآية اكثر من آبائنا ، لان الربا انتشر ليس في حدود ابناء المجتمع الواحد ، بل في مجال العلاقات الاقتصادية بين الأمم المختلفة ، و افرز الواقع المقيت الذي تعاني منه البشرية المتمثل في التمايز بين الدول المستكبرة التي تتأثربكل خيرات الارض و الدول المحرومة التي تحتاج الى أبسط مقومات الحياة ، فبينما تختزن الدول المستكبرة مثلا حوالي (٣٥٠) مليون طن من الغلال لعام (١٤٠٧ هـ 1987) (م) و تحتار كيف تختزنها ، بل كيف تتخلص منها نرى الدول المستضعفة محتاجة الى كل كيلو منها ، ويتضور اطفالها جوعا ، و يتساقط الملايين منهم كل عام لسوء التغذية.

و لعل اعظم اسباب هذا التمايز النظام الربوي السائد في العاللم ، حيث بلغت ديون البلاد المحرومة اكثر من كاترليون) الف مليار) دولار و (٣٥) مليار دولار أخذت الفوائد المتضاعفة تبتلع كل جهود الشعوب المحرومة ، و تجعل الأمل في تقدمها و استقلالها يتلاشى في طوفان الديون.

و لو دفعت البلاد المتقدمة زكاة اموالها للشعوب المحرومة لنشطت من عقال التخلف ، و للحقت بركب الحضارة و لأفادت حتى الدول الصناعية بتبادل التجارة معها.

و لو استجاب المحرومون لنداء القرآن ، و الغوا الربا في علاقاتهم الاقتصادية ، و تحرروا من أغلال الفوائد الباهضة (كما اضطرت البرازيل و دول أخرى ان تفعل ذلك أخيرا) إذن مشوا خطوة في طريق تقدمهم و استقلالهم لذلك قال ربنا سبحانه:

]و ما ءاتيتم من زكاة تريدون وجه الله[

اما العطاء الذي يتبعه المن و الأذى فانه مقدمة للطبقية المقيتة ، و لاستثمار البعض للبعض ، و بالتالي لا ينمي الثروة.

كما ان المعونات الاستعمارية للدول المحرومة التي تربط هذه الدول بعجلة الاستكبار هي الاخرى لا تنفع تقدما ، و لا تعطي خيرا.

]فأولئك هم المضعفون[

و لعـــل السبب هو ان الزكاة تنشط المجتمع ، و تضع عن اقتصاده اغلال الاستثمار ، و قيود الطبقية ، و يتوجه الجميع تجاه نعم الله المنبسطة في ارجاء الطبيعة ليستفيدوا منها ، دون ان يفكر كل فريق استغلال الآخرين.

ظهر الفساد بما كسبت أيدي الناس

هدى من الآيات

كما ان التوحيد هو المحور الاساسي في عالم التكوين ، كذا هو يعتبر المحور الرئيسي في عالم التشريع لسائر الاحكام ، و هكذا يكون الشرك هو السبب الرئيسي لكافة المشاكل و المصائب التي تعترض البشر ، و هو محور كل انحراف عن شرائع الله.

و لقد بين السياق القرآني في سورة الروم جانبا من آثار التوحيد و الشرك اللذان ينعكسان على حياة الفرد و سلوكياته ، و في هذا الدرس يبين لنا جانبا من آثار التوحيد و الشرك في المجتمع.

لقد فطر الله الخليقة صالحة ، و اعطى الانسان القدرة على تسخيرها ، و بين ان ما يكتسبه من موبقات يفسد في الطبيعة ، و حذره من ان عليه ان يعتبر بالفساد الذي ظهر في البر و البحر فيرتدع عن السيئات ، و الا فان عاقبته ستكون مثل عاقبة الأمم الغابرة ، الذي لو سار الانسان في الارض عرف سبب دمارهم المتمثل في الشرك.

كيف نتقي هذه العاقبة السوئى ؟

بإقامة الدين القيم الذي ينفعنا أولا في الدنيا حين يقينا الهلاك ، و ثانيا : في الآخرة حين ينقسم الناس فريقين : الكفار الذين يحتملون وزر كفرهم ، و الصالحون الذين يمهدون لأنفسهم حين يجزيهم الله من فضله.

بينات من الآيات

[40]الله هو محور الحياة الطبيعية للانسان.

]الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم[

و اذا كان الله هو الذي خلق و رزق ، و أمات و أحيا ، و اذا كان الله هو المحور في الحياة الطبيعية ، فلماذا لا نتبع الله في النظام الاجتماعي ، و لم لا نجعل التوحيد لا الشرك هو الذي يرسم حياتنا ؟!

]هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء[

كلا..

]سبحانه و تعالى عما يشركون [

] [41]ظهر الفساد في البر و البحر بما كسبت أيدي الناس]ان الانحراف الذي نشاهده كل ساعة ليس بالطبع ناتج عن انحراف الطبيعة ، لأن الله خلق الطبيعة حسنة ، و اتقن صنعها ، و الفساد انما هو بما كسبت ايدي الناس.

و حقيقة فساد الانسان ان المحور الاساسي لحياتهم كان التوحيد فبدلوه بالشرك ، و حين يوصل القرآن الفساد بذنوب البشر تعرف ان المنهج الاسلامي متقدم على المنهج الاجتماعي القائم بدرجة ، كما انه متقدم على النظرة الجاهلية بدرجتين ، فالجاهليون يعتقدون بان ما يظهر من الاثار في الحياة لا يمت الى سبب ، فلا يبحثون عن سبب معقول.

بينما المنهج القرآني يربط الظواهر الطبيعية باسبابها المشهورة و الغيبية ، فالظلم - مثلا - سبب لشقاء الظالم ، و نزول العذاب عليه ، اما بصورة مشهورة حيث انه يكون سببا لتحدي المظلوم ، مما يزعزع أمن الظالم و استقراره ، و أما بطريقة غيبية حيث ان الرب الذي بيده ملكوت كل شيء يقدر للظالم العذاب او الشقاء بتسليط الأمراض عليه و إنزال الصواعق و الكوارث الطبيعية على بلاده .

هكذا تضحى مسؤولية البشر عن أفعاله حقيقة لا فكاك منها في منطق القرآن ، لان الذي يجريها بيده الاسباب الطبيعية و غير الطبيعية.

و نحن حين نتلو هذه الآية لنتخذها بصيرة لوعي العصر الذي نعيشه نزداد يقينا بعظمة القرآن ، و صفاء بصائره.

بلى .ظهر الفساد في البر و البحر بانتشار وسائل الدمار فيهما ، من اسلحة نارية تقليدية تتكاثر كالجراثيم في جسم مريض ، و تدعمها اسلحة نووية تنشر مظلة رعب رهيبة ، و اخطر منها الاسلحة الكيمياوية التي طفقت البشرية التنافس عليها.

و في آخر تصريح لمراقب عليم عن اخطار هذه الاسلحة جاء : ان نشوب حرب نووية بين القوتين العظميين ستسفر عن سقوط (٤) مليارات قتيل في العالم الثالث ، و ذلك ان تغييرا أساسيا يحدث في اتجاهات الرياح الموسمية ، و ان الشمس تحتجببسبب الدخان الاسود الناجم عن احتراق المدن(1) .

و اذا عرفنا ان سكان العالم هم اليوم خمسة مليارات بشر فان ذلك يعني ان الحرب تهدد اربعة اخماسهم.

و من الرعب النووي الى الامراض التي لا شفاء منها كالسرطان ، و الايدز ، و القلق ، و الجنون ، و امراض الاعصار المتكاثرة ، و الى التخلف القاتل الذي يحصد الملايين في جنوب ارضنا ، و التخمة التي تطغى النخبة في الشمال ، مما حدى بعض العلماء اليائسين في فرنسا الى القول لان عضلات البشرية لا تعالج بسوى حرب نووية.

أما عن الخطر المحدق فعلا بالبشرية (تلوث البيئة (فتقول مجلة (الحقيقة الواضحة) التي تدعو الى العودة الى الدين في عددها المؤرخ (١٩٨٧/٢/١ م) و الذي طبع منه اكثر من سبعة ملايين نسخة تقول :

هل القوة النووية هي المصدر الوحيد لتدمير الارض ؟

لننظر الى مجموعة معلومات جاءت في بعض المجلات الرائدة : ان التلوث الجدي الذي لا يقارن بحادثة بوبال في الهند ، و لكن بتراكماته سوف يهدد الارض و تضيف :لقد اظهرت الابحاث الجديدة ان تدمير طبقة الاوزون بواسطة الغازات التي ينتجها الانسان سوف يكون اكبر مما كان متوقعا ، ثم تقول : لقد اكتشفنا أخطر المواد الكيماوية و ادخلناها في موادنا الغذائية ، و تعطي احصائية عن وسائل التدمير في امريكا ، و تقول : ان المواطنين الامريكيون ينتجون (١/٥ (مليار رطل من(١) احد علماء الطبيعة البارزين و اسمه (فردريك و ورنر) من جامعة (اسكس) البريطانية . انظر جريدة الوطن بتاريخ (١٠/ ج٢ / ١٤٠٧ هـ (الموافق (٩ / فبراير / ١٩٨٧ م. (

المخلفات المدمرة في اليوم و تضيف : ان تدمير البيئة يجري سريعا ، و اذا لم يوقف هذا التدمير فسوف يكون مرعبا.

و تضرب مثلا لحجم التلوث في امريكا و تقول : ان الابحاث تقول : ان هناك حاجة لـ (١٠٠) مليار دولار و خمسين سنة من الوقت حتى تتم ازالة المواد السامة من الولايات المتحدة ، حتى ان خبيرا في شؤون المحيطات قال : اننا نواجه النكبة ، و تختم المجلة تحذيرها:
لن يكون هناك خيار للانسان الا الدمار اذا ما نظر الى سياسة الربح و التوسع الصناعي بشكله الحالي.

و قد أكدت الروايات الاسلامية على الصلة بين النكبات و المصائب التي يتعرض لها البشر (افرادا أو مجتمعات) و بين أعماله . دعنا نقرأ بعض هذه الروايات:

عن الامام الباقر (ع) قال:

اما انه ليس من سنة اقل مطرا من سنة ، و لكن الله يضعه حيث يشاء ، ان الله - جل جلاله - اذا عمل قوم بالمعاصي صرف عنهم ما كان قدر لهم من المطر في تلك السنة الى غيرهم ، و الى الفيافي و البحار و الجبال ، و ان الله ليعذب الجعل في حجرها بحبس المطر عن الارض التي هي بمحلتها لخطايا من بحضرتها ، وقد جعل الله لها السبيل الى مسلـــك سوى محلة اهل المعاصي ، قال : ثم قال ابو جعفر الباقر " فاعتبروا يا أولي الابصار " (١)ثم قال : وجدنا في كتاب علي (ع (قال : قال رسول الله (ص (:

"اذا ظهر الزنا كثر موت الفجأة ، و اذا طفف المكيال أخذهم الله بالسنين(١) بحار الانوار / ج - 73ص ٣٧٢

و النقص ، و اذا منعوا الزكاة منعت الارض بركتها من الزرع و الثمار و المعادن كلها ، و اذا جاروا في الاحكام تعاونوا على الظلم و العدوان ، و اذا نقضوا العهد سلط الله عليهم عدوهم و اذا قطعوا الارحام جعلت الاموال في ايدي الاشرار ، و اذا لم يأمروا بمعروف و لم ينهوا عن منكر و لم يتبعوا الاخيار من اهل بيتي سلط الله عليهم شرارهم ، فيدعوا عند ذلك خيارهم فلا يستجاب لهم " (١)و روي عن الامام أمير المؤمنين (ع) قال : قال رسول الله)ص: (

"ثلاثة من الذنوب تعجل عقوبتها و لا تؤخر الى الآخرة : عقوق الوالدين و البغي على الناس ، و كفر الاحسان " (٢)و روي عن الامام الصادق)ع) قال:

"الذنوب التي تغير النعم البغي ، و الذنوب التي تورث الندم القتل ، و التي تنزل النقم الظلم ، و التي تهتك الستور شرب الخمر ، و التي تحبس الرزق الزنا ، و التي تعجل الفناء قطيعة الرحم ، و التي ترد الدعاء و تظلم الهواء عقوق الوالدين " (٣(

و روي في تفسير الآية عن الامام الصادق (ع) انه قال:

"حياة دواب البحر بالمطر ، فاذا كف المطر ظهر الفساد في البر و البحر ، و ذلك اذا كثرت الذنوب و المعاصي " (٤)(١) المصدر / ص ٣٧٣

(2)المصدر / ص ٣٧٤

(3)المصدر / ص ٣٧٣

(4)نور الثقلين / ج ٤ -ص ١٩٠

ربما لا يكتشف العلم العلاقة بين الزنا و موت الفجأة أو بين التطفيف و الفقر ، أو بين المعاصي و انقطاع المطر ، و لكن الحقيقة ان هذه أثر من تلك ، و ان طاعتك أو معصيتك تؤثر فيما حولك ، و قد أكد القرآن على هذه الفكرة مرارا فقال:

" -1و ألو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا " (١)٢ " -و لو ان اهل القرى آمنوا و اتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الارض و لكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون " (٢)٣ - " و ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فأذاقها الله لباس الجوع و الخوف بما كانوا يصنعون " (٣)انك اذا لم تعرف سبب الابتلاءات انها من الذنوب ، فلا دليل لك على ان تبقى على سلوكك المنحرف ، و تحتمل تبعة هذا السلوك ، فقد جاء في الحديث المأثور عن أمير المؤمنين (ع) في قوله تعالى : " و ما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم و يعفوا عن كثير: "

"ليس من التواء عرق ، و لا نكبة حجر ، و لا عثرة قدم ، ولا خدش عود الا بذنب ، و لما يعفو الله اكثر فمن عجل الله عقوبة ذنبه في الدنيا فان الله اجل و اكرم و اعظم من ان يعود في عقوبته في الآخرة " (٤)و قد عبر الله عن عمل الذنب بما كسبت اليد ، لان اليد هي التي تباشر عادة(١) الجن / ١٦

(2)الاعراف / ٩٦

(3)النحل / ١١٢

(4)بحار الانوار / ج - 73ص ٣٧٤

فعل الذنب ، و تعبير اليد تعبير عن الارادة كقولك : هذا الامر بيدك.

]ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون[

و تشير خاتمة الآية الى حقيقتين أخريين:

الاولى :ان الله سبحانه يعفو عن كثير من الذنوب ، و انما يعجل عقوبة بعض الذي عملـــوا ، و في التعبير القرآني بلاغة نافذة ، فان ما ينزل العذاب يكون ذا ألم يذاق " ليذيقهم " و انه تجسيـد لـذات المذنب حيث لم يقل ربنا سبحانه " ليذيقهمعقوبة بعض .. " و انما قال تعالى " ليذيقهم بعض " فالذي عملوه بذاته يضحى عذابا.

الثانية : ان حكمة العذاب تنبيه البشر لعله يرعوي عن غيه ، و يعود الى الطريق المستقيم و الدين القيم الذي يقي الناس ألوان العذاب.

[42]قد يتخذ البعض القرآن رصيد معلومات ، وقد يتخذه البعض منهجا لبلوغ معلومات جديدة عبر بصائره ، و بالرغم من أهمية الحصول على المعلومات المباشرة من القرآن إلا أن آياته الكريمة تؤكد على أولوية اتخاذه منهجا للبحث ، و وسيلة للمعرفة ، و بابا الى العلم، و بصائر و هدى.

و أكد الرب المرة تلو المرة ، ان القرآن بصائر و أمثال و هدى و نور ، و ان فيه آيات لقوم يعقلون و للعالمين و لقوم يسمعون.

و البصيرة اداة البصر ، و المثل وسيلة لمعرفة ما يشابهه . انه النموذج الذي يقـــاس عليه ما يطابقه و الهدى يبصرنا سنن الله ، و النور يضيء لنا الدرب لنراها بأنفسنا.

و من أمثال هذه الآيات يعرف خطأ الذين اتخذوا القرآن نهاية المطاف ، و ليسوراءه عمل يقومون به لمعرفة الحقائق ، بل القرآن منهج لفهم الحياة ، و اثارة لعقل الانسان ، بالاضافة الى اشتماله على رصيد لا ينتهي من العلوم و المعارف و هكذا فهو اطار يتحرك عبره البشر ، و بداية الانطلاقة ، و ربما هذا هو الفرق بين الامة الاسلامية في بدايةانطلاقها ، وعما عليه الآن بعد جمودها.

فالامة الاسلامية في بداية انطلاقها كانت تتخذ من القرآن وسيلة للبحث ، و منهجا للتفكيـر ، و لذلك كانوا يشدون الرجال لطلب العلم و لو في الصين لانهم كانوا طلاب تجربة ، لم يقولوا كما قال البعض : حسبنا كتاب الله ، اذ لم يكن كتاب الله بديلا عن الجهد ،بل كان إطارا له ، و لقد كان رسول الله (ص (يبعث اصحابه الى اليمن ليتعلموا فنون الحرب و التجسس على بعض الاسلحة الجديدة ، و لقد كان يزرع فيهم حب المعرفة بقوله:

"الحكمة ضالة المؤمن"

من هنا نجد القرآن يأمرنا بالسير في الارض لننظر آثار التاريخ على الارض مباشرة:

]قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل]ليس فقط ننظر الى ظواهر الامور ، بل نبحث عما وراء الظواهر من حقائق ، فننظر الى آثار الماضين ، و نستدل بها على حياتهم ، و نعرف منها بعض السنن الاجتماعية التي كانت حاكمة عليهم.

ان السير في الارض ، و البحث فيها عن ركام القصور المهدمة ، و بقايا المزارع المعطلة ، و نماذج الادوات المدفونة تحت الانقاض ، يدعونا الى النظر في نهايات تلك الامم التي كان جل سعيها الخلود في الارض ، و تحدي سنن الله في الخلق .. لقد بنواهراماتهم بمصر ، و قلاعهم في بعلبك ، و زرعوا ارض بابل و نينوى بالآثار العظيمة ، و لكنهم ابيدوا حيث اشركوا بالله.

يقول الامام أمير المؤمنين)ع: (

"اين العمالقة و ابناء العمالقة ! اين الفراعنة و ابناء الفراعنة ! اين اصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين ، و اطفؤوا سنن المرسلين و أحيوا سنن الجبارين ! اين الذين ساروا بالجيوش ، و هزموا بالألوف ، و عسكروا العساكر ، و مدنوا المدائن ! "(١(

]كان أكثرهم مشركين[

حينما تبحثون في الارض ، و حينما تنقبون في الاثار ، و تبحثون في الانظمة الاجتماعية السائدة عليهم ستكتشفون بانهم كانوا مشركين في الاغلب ، فإما كانوا عبدة الاصنام و ما ترمز اليه من الثروة و القوة أو عبد الطاغوت.

في الآيات السابقة بين القرآن الشرك و التوحيد في مجال الاقتصاد ، و بعدها في الاخــلاق ، و هنا بينها في مجال الصراع الحضاري ، أو بتعبير آخر الصراع من أجل البقاء ، فالشرك ليس الوسيلة المثلى للبقاء بل هو السبب الرئيسي للإنهيار.

[43]فاذا اكتشفنا بان الشرك هو مادة الفساد ، و سبب نهاية البشر فردا كان او مجتمعا ، فعلينا ان نخلص العبادة لله.

]فأقم وجهك للدين القيم من قبل ان يأتي يوم لا مرد له من الله](١) نهج البلاغة / الخطبة ١٨٢ - ص ٢٦٢

فاقامة الوجه لله أمان يوم القيامة.

]يومئذ يصدعون[

يتفرق بعضهم عن بعض ، و حيث يتميز الكفار عن الصالحين ، و تلك هي المفارقة الشرعية الوحيدة بين الانسان و فطرة الانسان.

[44]فالذين كفروا فعليهم كفرهم يوم القيامة ، اذ يتحول الى حميم و غساق ، و الذين آمنوا فسوف يجدون أعمالهم الصالحة.

]من كفر فعليه كفره و من عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون]فالعمل الصالح سيأتيك في يوم أنت أحوج ما تكون إليه ، و لكن من كفر فان نتيجة كفره ستكون وبالا عليه.

و في هذه الآية ملاحظة هامة و هي : ان الله عندما ذكر من كفر ، قال : " فعليه كفره " بصيغة الفرد ، و عندما ذكر من عمل صالحا قال " : فلأنفسهم يمهدون " بصيغة الجمع ، و الفكرة هي : ان نتيجة الكفر تكون على صاحبها فقط ، أما نتيجة الايمان و العمـــل الصالح فتكون اضافة على أنها لصاحبها لذويه و اقربائه و سائر المؤمنين ، فقد ورد:

"ان المؤمن يشفع في مثل ربيعة و مضر"

و قد ورد في تفسير الآية " : و كان ابوهما صالحا " في قصة اليتيمين اللذين اقام جدارهما الخضر (ع. (

عن ابي عبد الله عليه السلام :

"انه كان بينهما و بين ذلك الاب الصالح سبعة اباء " (١)وفي رواية أخرى عن ابي عبد الله (ع) قال:

"ان الله ليحفظ ولد المؤمن الى الف سنة ، و ان الغلامين كان بينهما و بين ابويهما سبعمائة سنة " (٢)[٤٥] [ليجزي الذين ءامنوا و عملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين]في الآية السابقة ابان الله في كتابه ان العمل هو الذي يحدد نهاية البشر " فمن كفر فعليه كفره ، و من عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون " و في هذه الآية يبين انه يتفضل على الصالحين ، و حين يكون الفضل من الله فبشرى للانسان و طوبى.

و لعل التعبير السابق " فلأنفسهم يمهدون " كان تمهيدا لبيان أن جزاء الصالحين ليس مجرد تمثل أعمالهم الصالحة في صورة نعيم ابدية في الآخرة و انما هي مجرد تمهيد لفضل الله الذي لا يحد و لا ينتهي.

و جاء في الحديث المروي عن الامام الصادق (ع: (

"ان العمل الصالح يسبق صاحبه الى الجنة فيمهد له كما يمهد لأحدكم خادمه فراشه " (٣)و لكن الله يجزيهم من فضله ، و هو لا يحب الكافرين:

[46]بعد ذلك يعود الله الى عرض بعض آياته في الحياة فيقول:

(2) (1)تفسير نور الثقلين / ج ٣ - ص ٢٩١

(3)المصدر / ج ٤ - ص 191

]و من ءاياته أن يرسل الرياح مبشرات[

من نعم الله على الانسان النظرة الايجابية الى الحياة ، و التي تنبع من الايمان بالله ، فالذي يؤمن بالله يجد ان الحياة تبتسم له ، و اذا رأى مشاكل الحياة فانه يتجاوزها بسهولة ، اما الكافر فان سحبا سوداء تكتنف قلبه ، فلا يبتسم لنور الشمس ، و لا لنعم الحياة ، و القرآن يثير فينا الاحساس بالجمال فيما يحيط بنا من حقائق ، أو تترى علينا من ظواهر.

ان الانسان مفطور على حب الجمال ، و ان مظاهر الطبيعة الرائعة غذاء مريء لروحه الحساس ، و لكن هذه الفطرة قد تدس في تراب العقد النفسية ، و الانشداد الى المشاكل اليومية ، و الغرق في طوفان الاوهام و التمنيات.

و هكذا نحتاج الى ما يدغدغ هذه الفطرة حتى يوقظها و ينميها ، و هذه مسؤولية الفن و الادب.

و آيات القرآن تثير فطرة الجمال في قلوب المؤمنين و تنميها - كما تنمي نوازع الخير و الفضيلة جميعا - حتى تغدو تلك القلوب تعيش مهرجان الحب ، و تستريح الى همسات الطبيعة التي تحدثها حفيف الاشجار و تلاعب المياه عند الشواطئ و الغدران.

الا ترى كيف يحدثنا الرب عن المبشرات من الرياح التي تنطلق من المنخفضات الجوية و تنساب بين الصخور و الاحجار ، و تهب على أولئك المزارعين الذين مزق اعصابهم طول انتظار الغيث ، و قد صرفوا اسابيع من عمرهم جاهدين لاستصلاح الارض و زراعتها ؟! بلى .. ها هي الرياح تأتي مبشرة بالسحب الخيرة ، و اذا بقطعات السحب تتسابق و تتكاثف و تحتك و تعلن عن نفسها بالبرق و الرعد ،و ترخى السماء عزاليها.

بلى .. كما تقوم الرياح بتلقيح الأشجار ، و نشر بذور الزرع المتراكمة في منطقة على مساحات شاسعة ، و توزع غاز الأوكسجين على الناس ، و تحمل منهم الى الاشجار الغازات السامة لتتغذى بها و تمنع اشعة الشمس من حرق الاوراق ، و تقوم بتحريك السفـــن الشـراعية من بلد الى بلد ، كما تساهم في انطلاق الطيارات و السفن التجارية ايضا.

كل ذلك من اجل ان يتذوق الانسان رحمة الله ، و يتصل قلبه الصغير بالكون الواسع عبر هذه المتغيرات.

]و ليذيقكم من رحمته[

من نعمة المطر فتخضر الارض.

]و لتجري الفلك بامره[

فهذه الرياح تدفع السفن الشراعية من بلد الى بلد.

]و لتبتغوا من فضله[

من نعم أخرى عبر التواصل التجاري بين الأمم.

]و لعلكم تشكرون[

إن ذروة السعادة - و هي غاية النعم - حين يبلغ الانسان مستوى الشكر لله ، يرضى قلبه ، و تطمئن نفسه ، و تملؤ البهجة أرجاء فؤاده ، اما حين يكفر بنعم الله فانالهدف منها لا يتحقق أبدا . أو ليس الهدف منها الإحساس بالسعادة ، و كيف يسعد من يكفر بالنعم ؟!

إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا

هدى من الآيات

الايمان يفتح عين الانسان على الحياة فيراها كما هي ، من دون حجب ، اما من لا ايمان له فكمن هو في الظلمات ، فالصلة مقطوعة بينه و بين ما حوله لأنه - أساسا - لا يعترف بضرورة البحث عما هو حق و عما هو واقع ، بل يكتفي بما يظنه ظنا ، و ان الظن لا يغني عن الحق شيئا ، اما الايمان فانه يجعل الانسان يبحث عن الحق انى وجده ، لان الايمان ذاته هو التسليم للحق.

جاء في توحيد المفضل:

"فاعتبر بما ترى من ضروب المآرب في صغير الخلق و كبيره ، و بما له قيمة و ما لا قيمة له ، و أخس من هذا و احقره الزبل و العذرة ، التي اجتمعت فيها الخساسة و النجاسة معا ، و موقعها من الزرع و البقول و الخضر أجمع (اجمل (الموقع الذي لا يعد له شيءحتى ان كل شيء من الخضر لا يصلح و لا يزكو الا بالزبل و السماد الذييستقذره الناس ، و يكرهون الدنو منه.

و اعلـم انه ليس منزلة الشيء على حسب قيمته ، بل هما قيمتان مختلفتان بسوقين ، و ربما كان الخسيس في سوق المكتسب نفيسا في سوق العلم ، فلا تستصغر العبرة في الشيء لصغر قيمته ، فلو فطنوا طالبوا الكيميا لما في العذرة لاشتروها بأنفس الاثمان ، و غالبوا بها" (١(

انك إذا سلمت للحق فسوف تبحث عنه ، و حين تبحث عنه تجده ، و اذا كانت الحاجة ام الاختراع ، فان الاحساس هو السبب الرئيسي للمعرفة ، لان الانسان لا يعرف بالشيء الا اذا احس بالحاجة الى معرفته ، فمن لا ايمان له و اكتفى بظنونه لا يحس بالحاجة الى المعرفة ،لان الهوى موجود عنده أساسا فلا داعي للبحث عنه.

و في الدرس ما قبل الأخير في سورة الروم نجد ربنا سبحانه يبين لنا بان الايمان هو البصيرة ، فالكافر كالاعمى و الاصم ، بينما المؤمن هو البصير و السميع لا تحجبه حجب الهوى ، ولا المسبقات الفكرية و العقد النفسية ، انه ينظر نظرة مجردة عفوية ، انه لا يلبسنظارة ملونة ، سواء كانت هذه النظارة افكارا جاهلية ، أو نظرات سلبية و قاتمة عن الحياة كنظرات الذي يعيش الحزن و الهم و الكآبة ، أو نظرات مغرقة في الغرور و التمني و التبرير.

فالمؤمن عادة ما يكون متفاعلا في الحياة ، اذ انه يرى الحياة كلها بصورتها الطبيعية ، فهو يشكر الله على النعم ، و يصبر في حال البلاء على النقم ، فكلما راى شيئا في الحياة شكر الله و حمده . لماذا ؟

(1)بحار الانوار / ج - 3ص ١٣٦

لانه يرى ان النعم من الله سبحانه ، بينما الكافر يتصور ان النعم من نفسه ، فكلما اعطاه الله خيرا قال : هل من مزيد.

و من نعم الله العظيمة : الرسالة التي حملها أطهر خلقه الينا ، و ما أخسر أولئك الذين اجرموا حين لم تنفعهم الرسالة ، و طوبى للمؤمنين الذين نصرهم الله بما فرض على نفسه سبحانه من تأييدهم.

و الرسالات تجل عظيم للرحمة الإلهية ، كما السحب المباركة التي تروي الارض و تملأها خصبا و رزقا ، و تملا النفوس بشرى ، بعد ان استبد بها اليأس و القنوط.

افلا تنظر الى الارض تهتز و تربو ، و تزهو بزرعها البهيج . ان ذلك من آثار رحمة الله ، و هكذا يحيي الارض بعد موتها . أفلا نهتدي بذلك الى قدرة الرب ، و انه كيف يحي الموتى ؟!

و آيات هذا الدرس تثير فينا الاحساس بالتفاؤل و الايجابية.

بينات من الآيات

] [47]و لقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا[

هذه من آثار رحمة الله ، انه لم يبادر الى انزال العقوبة بعباده فور انحرافهم عن الدين القيم مما يعرضهم للاصطدام بالسنن الالهية . كلا .. و انما انذرهم عبر رسله.

أرأيت لو شاهدت طفلا يلعب على حافة جبل أولست تخشى عليه السقوط ، و تسعى بكل جهدك ان تردعه ؟! كذل رسل الله سعوا من اجل ايقاف سقوطالأمم في وديان الفساد.

و لكن ذلك لا يعني أبدا اكراه الناس - عباده - على الهداية ، بل الذين اجرموا تعــرضوا لانتقام الرب في النهاية ، أما المؤمنون فكان على الله حقا ان ينصرهم قال تعالى:

]و كان حقا علينا نصر المؤمنين[

ورد في الحديث عن رسول الله)ص) انه قال:

"ما من امرء مسلم يرد عن عرض اخيه الا كان حقا على الله ان يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ، ثم قرأ (ص) : " و كان حقا علينا نصر المؤمنين " (١)و نصر الله المؤمنين لا يعني بالضرورة ان يكون مباشرة بيد الله سبحانه ، بل قد يكون نصر المؤمنين عن طريق بعض المؤمنين أنفسهم ، فالله سبحانه يدفع الناس بعضهم ببعض ، و مثل ما يعذب الكافرين بأيدي المؤمنين كذلك نصر المؤمنين ببعضهم.

] [48]الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء]فالله يرسل الرياح فتكثف السحاب ، و تركمه بعضه على بعض ، و تبسطه في السماء كيف يشاء الله ، و يمطره على من يشاء من عباده.

و الإثارة بمعنى السوق ، و أثار الغبار هيجه ، و البسط قد يقال للبساط من البسط(١) تفسير نور الثقلين /ج ٤ - ص ١٩١

و الفرش ، فيفرش الله السحاب في السماء ، كيف يشاء ، حتى إذا أمطر السحاب تناوله أكبر قدر من الارض.

]و يجعله كسفا[

متراكما على بعضه قطعة قطعة ، يراها ركاب الطائرات.

]فترى الودق[

و لعل المراد منه رذاذ المطر الذي تفرزه قطعات السحاب.

]يخرج من خلاله[

من خلال السحب المتراكمة . هكذا يولد الغيث بعد مخاض مرير.

فلولا حركة الرياح و ضغوطها على السحب ، ولولا تراكم السحب و مرورها بتيارات هوائية باردة ، لما أمطرت.

ثم ينتقل الرب من قلب السحب في الفضاء الى تقلبات فؤاد البشر على الارض حيث ينتظر بفارغ الصبر بركات الغيث ، فاذا هطلت السماء طار فرحا.

]إذا هم يستبشرون[

لانه يبشرهم برخاء واسع و ثراء عريض.

] [49]و إن كانوا من قبل ان ينزل عليهم من قبله لمبلسين]مشكلة الانسان انه عندما تتأخر عنه رحمة الله يكون من القانطين ، أفلا يرى بان الذي خلق السموات و الارض برحمته لا يتركه ؟ بلى . و لكن البشر حين يفقدالتوكل على الله يفقد الأمل في المستقبل.

[50]كيف نزداد بربنا معرفة ، و في رحمته أملا ؟ و كيف نسعى نحو اليقين بقدرته على أحياء الموتى ؟

و الجواب : بالنظر الى آثار رحمة الله ، الى الغيث حين ينزله على الارض الميتة فتستقبله بترحاب و تهتز له و تنبت الزرع ، و إذا بالبسيطة لبست حلة خضراء ، إن النظر الى هذه الآثار تجعل القلب ينفتح لأنوار معرفة الله.

]فانظر إلى ءاثار رحمت الله [

و الهدف من النظر ليس مجرد الإذعان بقدرة الله ، بل و ايضا بمعرفة تجليات قدرة الله على الخليقة و السنن التي أجراها الله فيها ، و كيفية اجراء تلك السنن.

]كيف يحي الأرض بعد موتها[

و هنالك اذا عرف كيف أحيا الله قد يهتدي الى حقائق اليوم الآخر حيث ان خالق الدنيا هو خالق الآخرة ، و ان قدرته فيهما سواء.

]إن ذلك لمحي الموتى و هو على كل شيء قدير[

إن انتقال السحاب من أقصى الارض ليمطر في اقصاها ، تعكس في وجداننا الايمان بالبعث ، و الحياة بعد الموت ، فكما يحيي الله الأرض بالمطر ، كذا يحي الأنفس بعد موتها.

] [51]و لئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون]هناك فرق بين كلمتين (ريح) و (رياح) في القرآن الكريم ، فالريح تستخدمفي موارد العذاب ، و الرياح تستخدم في موارد الرحمة و البشارة.

و في الرواية عن رسول الله)ص) انه اذا راى الريح قد هاجت يقول:

"اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا " (١)و اما لماذا سميت الريح بالصفراء ؟

جاء في تفسير البيضاوي : إن الصفراء التي تجعل الارض و الزرع صفراء ، و قد فسرها البعض بانها التي تنذر بالعذاب ، و لا خير فيها ، و جاء في الحديث عن أمير المؤمنين (ع) انه قال:

"الرياح خمسة ، منها العقيم ، فنعوذ بالله من شرها ، و كان النبي (ص) اذا هبت ريح صفراء أو حمراء و سوداء تغير وجهه و اصفر ، و كان كالخائف الوجل ، حتى ينزل من السماء قطرة من مطر ، فيرجع اليه لونه ، و يقول : " جاءتكم بالرحمة " (٢)و عندما يرى الانسان الريح مصفرة يكفر بالرب ، و بقدرته على دفع المكروه عنه ، و ينسى بان الله الذي بعث بهذه الريح قادر على أن يبدلها برياح مباركة.

[52]لقد تليت علينا انفا آيات الله ، و لكن ليس كل الناس قادرين على وعيها ، بالرغم من شدة وضوحها ، و نفاذ بلاغتها ، فمن الناس من هو ميت الأحياء قد سدت منافذ قلبه تماما كالجاحدين ، و منهم من فقد السمع و هو يتولى هاربا من الحقائق كمن أخذتهم العزة بالإثم ، و منهم العمي الذي حجب بصره غشاوة.

(1)المصدر / ج ٦٠ - ص 17

(2)المصدر / ص ٦

هؤلاء بحاجة الى إصلاح أنفسهم قبل تلقي آيات الله.

]فإنك لا تسمع الموتى و لا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين][٥٣] [و ما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم[

و يبـــدو ان السياق يقسم هؤلاء الناس الى ثلاثة أقسام : الميت و الأصم و الأعمى.

و لعل الاول هو الكافر الذي يكون بمثابة الميت ، الذي لا يسمع و لا يرى ، اما الثاني فهو الأصم الذي يمكن ان يفهم بالاشارة ، و لكن بسبب توليه مدبرا لا يسمع ، كما انه لا يرى ، و الثالث الأعمى الذي يمكن ان يسمع و يعي ، و لكنه لا يستطيع ان يطبق ما يسمع لانه أعمى.

و استخدم السمع للميت ، باعتباره آخر ما يفقده الحي ، و استخدم السمع للأصم لان ابرز عيب فيه عدم السماع ، و لم يستخدم السماع للاعمى لانه يسمع ، بل قال " :و ما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم. "

ان السمع الذي هو بداية فهم التجربة و الانتفاع لا يكون الا عند التسليم ، فمن فقد حالة التسليم النفسي للحق لم ينتفع حتى بسمعه.

و كلمة أخيرة:

في درس مضى قرأنا قوله تعالى : " و من آياته ان يرسل الرياح مبشرات و ليذيقكم من رحمته و لتجري الفلك بأمره و لتبتغوا من فضله و لعلكم تشكرون " و في الآية بعدها يذكر إرسالا آخرا ، و لكن ليس للرياح و إنما للرسل ، فيأتوهمبالبينات : " و لقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات "و في الآية بعدها يبسط القول في الرياح فيقول : " الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء و يجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا اصاب به من يشاء منعباده اذا هم يستبشرون ، و ان كانوا من قبله لمبلسين. "

و بعد ذلك يتكلم عن إحياء الارض بعد موتها بالمطر.

و نستوحي من هذا الترتيب:

أولا :ان الله كثيرا ما يربط بين ارسال الرياح و بين ارسال الرسل ، قال تعالى " :و هو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى اذا اقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فانزلنا به الماء فاخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون و البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه و الذي خبث لا يخرج الا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ، لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم (1) "و هكذا تكون رسالاته مظهرا لبركاته ، كما الرياح الخيرة.

ثانيا : لقد فسر آل البيت)ع) السحاب بالرسول (ص) و فسروا إحياء الارض بعد موتها بإحياء الارض بأئمة الهدى.

و جاء في بعض الروايات ان ذلك جاء في حق صاحب الأمر القائم (عج. (

فعن ابي جعفر (ع) في قوله تعالى " : اعلموا ان الله يحي الارض بعد موتها "قال:

(1)الاعراف / ٥٧ - ٥٩

"يحييها الله تعالى بالقائم بعد موتها - يعني بموتها كفر أهلها - و الكافر ميت " (١)[إن تسمع إلا من يؤمن باياتنا فهم مسلمون[

(1)كمال الدين و تمام النعمة / ص ٦٦٨

هذا يوم البعث

هدى من الآيات

تقلب البشر في كف التقدير دليل على قدرة المدبر ، كما أن تقلبات الارض تجليات قدرة ربنا سبحانه ، و في دروس مضت ذكرنا السياق بتغيرات الطبيعة ، و ها هو الدرس الأخير يذكرنا بان الله سبحانه و تعالى خلق الانسان من ضعف ، و يرده الى ضعف من بعد قوة ، فهو الذي يخلق ما يشاء (و ليس البشر نفسه) و هو العليم القدير.

و سفينة الزمن تحمل البشر عبر أمواج المتغيرات الى شاطى الساعة حيث يواجه الحساب ، أما المجرمون فانهم يقسمون ما لبثوا غير ساعة ، لأنهم كانوا يؤفكون ، بينما يعرف أهل العلم و الايمان ان هذه نهاية المطاف ، إنه يوم البعث الذي لم يعلموا عنه شيئا ، و هنالك لا تنفع الظالمين المعذرة ، ولا هم يسألون عن ذنوبهم ، بل يلقون جزاءهم بلا عتاب استخفافا بهم.

و هكذا لم يدع القرآن حقيقة الا و بينها عبر مثل ، و لكن الكافرين لن ينتفعوا به لانهم يجحدون به . بلى . إن قلوبهم مغلقة ولابد ان يصبر المؤمنون ، ولا تدعوهم إثارات الكفار الى العجلة.

بينات من الآيات

[54]نظرة المؤمن الى الزمن تختلف عن غيره ، اذ انه يستوحي من التغيرات الطارئة إيمانا و معرفة بالحقائق الثابتة ، و يستشهد بها على ما سيحدث مستقبلا ، أما الكافر فانه ليس لا يستوحي من التحولات و التغيرات الطارئة عبرة ، بل و تشوش رؤيته هذه التحولات ايضا.

ان هذا التطور في حياة الانسان يدل على ان الانسان هو الانسان نفسه ، و لكن التغيير إنما طرأ على شيء خارج ذاته ، فالقوى التي كانت ضعفا في الصغر ، و تعود ضعفا في الكبر ليست من ذات الانسان ، و إلا لاستمرت معه ، و العلم ليس من ذات الانسان ، و إلا لكان يلازمه ، و لكن الله أخرجنا من بطون امهاتنا لا نعلم شيئا ، فجعل لنا السمع و الأبصار و الأفئدة ، و كل شيء فيك سوف يزول.

]الله الذي خلقكم من ضعف[

و لم يكن خلق الانسان اساسا من مادة الضعف ، لأن الله جل و علا يخلق الأشياء بالإرادة الإلهية (كن فيكون) و انما جعله ضعيفا ، لأنه خلقه من التراب ، أو كان الضعف أساس خلقته ، و واقع ذاته ، جاء في دعاء مأثور عن الامام الحسين (ع: (

"أنا الفقير في غناي ، فكيف لا اكون فقيرا في فقرى ؟! أنا الجاهل في علمي ،فكيف لا أكون جهولا في جهلي ؟! " (١(

]ثم جعل من بعد ضعف قوة[

في شبابه حتى كهولته ، إذا القوة ليست من ذات البشر.

]ثم جعل من بعد قوة ضعفا و شيبة[

و هذا الضعف الثاني يعتريه نتيجة المرض أو نتيجة الشيخوخة . و من المعروف ان مرض الشيخوخة لا يعالج إذ أنه يتسبب من انعدام أو ضمور خلايا المخ التي لا تعوض بأية وسيلة.

قال بعض الشعراء:

عجوز تمنت ان تكون فتية وقد شاب منها الرأس و احدودب الظهرفمرت على العطار يصلح شأنها فهل يصلح العطار ما أفسد الدهر[يخلق ما يشاء و هو العليم القدير[

هذه التحولات التي تجري على الانسان تكشف عن قدرة الله و علمه سبحانه ، ان اعظم آية على قدرة

الرب يقلب الانسان من حال الى حال ، في إطار تقدير حكيم ، و تدبير رشيد ، حتى يعرف انه القادر المهيمن العليم الحكيم ، جاء في دعاء الامام الحسين (ع: (

"الهي علمت باختلاف الآثار ، و تنقلات الأطوار أن مرادك مني أن تتعرف(١) مفاتيح الجنان / ص 271

الي في كل شيء ، حتى لا اجهلك في شيء " (١(

[55]لا يتوقع المجرم امتثاله للمحاكمة ، و تراه يسوف في نفسه الجزاء ، و يتمنى لو أنه لا ياتيه أبدا ، و لكن المكتوب عند الله غير ذلك تماما ، فكل يوم يمر يقربه الى يوم الجزاء خطوة و مادامت الساعة آتية ، و مادمنا امتطينا صهوة الاجل ، فلابد ان نلتقي يوما و إياها.

و لهول المفاجئة يحلف المجرم إنما لبث ساعة واحدة ، و هي اللحظة العابرة من الوقت ، و هكذا تتلاشى المسافة آنئذ بين لحظة الذنب و لحظة الحساب ، و فعلا ما هي قيمة أيام الدنيا بالقياس الى الخلود ، بل ما وزن اللحظات العابرة التي يقضيها المجرم مع شهواته بالأحقاب التي يلبثها عند الجزاء.

و هكذا يحلف المجرم بانه ما لبث غير ساعة ، و لعله صادق بالقياس الى الموازين التي اختلقها بنفسه فيما يرتبط بالعقاب ، فهو كان يزعم انه لا يأتيه أبدا ، أو إذا كان يأتيه فهو بعيد ، و بعيد جدا في زعمه ، و هكذا كذب على نفسه ، و صرف ذاته عن الحقيقة بهذا التسويف و تلك التمنيات.

]و يوم تقوم الساعة[

بأهوالها ، و صعقة مفاجئتها ، و عظيم وقعها في السموات و الارض ، يومئذ..

]يقسم المجرمون[

و هم الذين ارتكبوا الموبقات ظانين ألا جزاء ينتظرهم.

(1)المصدر / ص ٢٧٢

]ما لبثوا غير ساعة[

حتى كأنهم يواجهون الجزاء فور الإنتهاء من الجريمة.

ولو أننا ننتبه الى مدى سرعة طي الزمن ، و مدى اقتراب الأجل ، و كيف أن العقاب أقرب بكثير مما نتصور ، و أن المسافة التي نتخيلها تفصل بيننا و بين الجزاء ليست إلا وهما ؛ إذا لا رعوينا.

هكذا يقول المؤمنون في دعائهم لربهم:

"ولو خفت تعجيل العقوبة لاجتنبته"

و يقولون:

"اللهم عظم بلائي ، و أفرط بي سوء حالي ، و قصرت بي أعمالي ، و قعدت بي أغلالي ، و حبسني عن نفعي بعد أملي ، و خدعتني الدنيا بغرورها ، و نفسي بجنايتها ، و مطالي يا سيدي " (١)و يقول الامام أمير المؤمنين (ع: (

"أيها الناس إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان : اتباع الهوى ، و طول الأمل ، فاما اتباع الهوى فيصد عن

الحق ، و أما طول الأمل فينسي الآخرة " (٢](كذلك كانوا يؤفكون[

(1)رائعة من دعاء الكميل للامام علي (ع) / مفاتيح الجنان / ص ٦٣(٢) نهج البلاغة / الخطبة ٤٢ - ص ٨٣

و يصرفون عن الحق ، و يزعمون أن الجزاء بعيد ، أو انه لا يأتي أبدا ، و السؤال : من الذي يصرفهم عن الحق ؟ الجواب : قد يكون الشيطان أو المجتمع الفاسد أو هوى النفس ، و بالتالي أنى كان عامل الضلالة فإنهم لا يمكنهم أن يغيروا الواقع بتمنياتهم الحلوة ، كلا.. الجزاء آت ، و سوف يقولون عنده أنهم لم يلبثوا غير ساعة.

و لعل كلمة " كذلك "هنا توحي بأن ضلالتهم في معرفة مدة لبثهم تشبه ضلالتهم في إبعاد فكرة الجزاء عن أذهانهم.

و من هنا ينبغي أن يتضرع الانسان الى ربه ألا ينسيه الآخرة ، و ان يقصر أمله بحسن العمل.

[56]أما المؤمنون فإنهم على يقين من الآخرة ، و يحذرون الحساب ، و يشفقون من الساعة ، و يسعون دائبين لاتقاء عذاب ربهم ، فلذلك لا تفاجأهم الساعة ، أوليسوا قد أعدوا عدتها ، و تزودوا لرحلتهم إليها الزاد الأوفى ؟

]و قال الذين أوتوا العلم و الايمان[

لعل العلم هنا هو علم الساعة ، بدليل قوله سبحانه في آخر هذه الآية : " و لكنكم كنتـم لا تعلمون " أما الايمان فهو التصديق لما يقتضيه العلم بالقول الصادق و العمل الصالح.

]لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث[

ليس المهم المدة التي لبثتم خلالها ، طالت أم قصرت ، المهم انكم بالتالي واجهتم ما هربتم منه بزعمكم.

و لعل التعبير بـ " في كتاب الله " يشبه ما نقوله : (في الواقع) أي انه بعكستمنياتكم بالا تأتي الساعة أو أن تطول المسافة بينكم و بينها لم يقع ما هوت أنفسكم ، بل وقع ما أراد الله ، و ما أثبته في كتابه الذي هو مقياس الحق ، و ليس اهواءكم و تمنياتكم وما تشتهيه أنفسكم.

إن أهم ما ينبغي ان يعرفه الانسان ان العالم المحيط به لا يتبع اهواءه ، و لا يمشي حسب أحلامه ، بل حسب ما كتب الله.

]فهذا يوم البعث[

الذي أنكرتموه و لم يجدكم انكاركم له نفعا ، بلى . إن إنكاركم أفرز نتيجة واحدة هي جهلكم و عدم استعدادكم.

]و لكنكم كنتم لا تعلمون[

و نستوحي من هاتين الآيتين : ان الكافر لا يعيش الزمن ، و لا يعترف بالنهاية ، و لا يحترم وقته الذي يسوفه الى تلك النهاية الفظيعة ، بينما المؤمن يعي حقيقة الزمن التي هي فرصته الوحيدة ، و يتحسس بمرورها ، فلا يدع ساعة من وقته دون ان يملأها عطاء ليتزودبه ليوم فاقته " يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم. "

بلى . إن منطق المؤمن من الزمن يجسده الامام زين العابدين علي بن الحسين (ع) حين يناجي ربه قائلا:

"و أعني بالبكاء على نفسي ، فقد افنيت بالتسويف و الآمال عمري ، وقد نزلت منزلة الآيسين من خيري "ثم يضيف ضارعا:

"و مالي لا ابكي و لا ادري الى ما يكون مصيري ، و أرى نفسي تخادعني و أيامي تخاتلني و قد خفقت عند رأسي أجنحة الموت "ثم يصور نفسه الساعات الرهيبة التي تنتظره لكي يتزود لها و يقول:

"فمالي لا أبكي ، أبكي لخروج نفسي ، أبكي لظلمة قبري ، أبكي لضيق لحدي ، أبكي لسؤال منكر و نكير اياي "و يبلغ ذروة ضراعته عند تذكر أهوال الساعة فيقول:

"أبكي لخروجي من قبري عريانا ذليلا ، حاملا ثقلي على ظهري ، أنظر مرة عن يميني ، و أخرى عن شمالي ، اذ الخلائق في شأن غير شأني ، لكل امرء منهم يومئذ شأن يغنيه ، وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، و وجوه يومئذ عليها غبره ، ترهقها قترة و ذلة " (١(

[57]لعل الشيطان يسول للعاصي فعل المحرمات بأن الآخرة مثل الدنيا ، اذا ارتكب جريمة تنصل عنها ، و اعتذر ، فتقبل معذرته ، يقول ربنا لعلاج هذا الوسواس:

]فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم[

و اساسا إن ذلك اليوم هو يوم الجزاء ، لذلك لا يطالب الظالمون بالتوبة ، لأن فرصتهم قد انتهت.

]و لا هم يستعتبون[

(1)روائع من دعاء أبي حمزة الثمالي / مفاتيح الجنان - ص ١٩٣[٥٨] [و لقد ضربنا للناس في هذا القرءان من كل مثل]يبين القرآن لنا من كل حقيقة في الخلق أو في النفس جزءا لنستدل به على الحقيقة كلها ، و لكن كل تلك الحقائق لا تنفع الكافرين رغم وجود آيات الصدق عليها.

]و لئن جئتهم باية ليقولن الذين كفروا إن انتم الا مبطلون]لماذا ينكر هؤلاء أبدا الحق ؟ و ما هي عوامل الإنكار عندهم ؟ الجواب : لأنهم بظلمهم فقدوا القدرة على الفهم.

] [59]كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون[

لأنهم تركوا العلم و الايمان بالرسالة الى الجهل و العناد ، و عندما يترك الانسان علمه الى جهله يتحول قلبه الى صندوق مقفل ، و مختوم عليه.

[60]كان ذلك موقف الذين كفروا ، أما موقف المؤمن فهو الصبر ، و انتظار الفرج ، و لان الله آل على نفسه أن ينصر عباده الصالحين.

]فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يؤمنون]و هذه اشارة الى النبي)ص) ان يستمر على عمله ، و لا يتأثر بما يقوله الذين لا يوقنون.

سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

روي عن الامام الباقر (ع (انه قال:

"من قرأ سورة لقمان في ليلة وكل الله به في ليلته ملائكة يحفظونه من إبليس و جنوده حتى يصبح ، فاذا قرأها بالنهار لم يزالوا يحفظونه من إبليس و جنوده حتى يمسى " (١) نور الثقلين / ج ٤ - ص ١٩٣

الاطار العام

الإسم

لم يكن لقمان نبيا و لكنه كان رجلا حكيما ، و كانت حكمته الهية ، و قد خلدها الذكر الحكيم في آياته لتكون نبراسا و هدى ، و سمى السورة باسمه ليضرب مثلا من واقع عبد شكر الله فشكره الله ، و آتاه الحكمة بفضله.

جملة معارف سورة لقمان التنويه بحكمة الله التي تجلت في الكتاب و تتجلى في قلوب المحسنين و لا ينتفع بها المستكبرون.

و لقد آتاها ربنا لقمان ، و لخصها في كلمة هي شكر الله ، و فصلها لقمان لابنه في عشر وصايا تنبعث من الشكر . أولها معرفة الخالق و آخرها عدم التكبر على المخلوقين.

و تبين السورة بتفصيل آيات الله التي تهدي الى توحيده ، و توحيد الله و حدود شكر عباده ، اي لا يجوز ان يطيع الفرد والديه إذا إمراه بالشرك بالله.

و ضمن هذا الاطار تنتظم موضوعات سورة لقاما و فيما يلي بعض التفصيل:

الف :ان حكمة الكتاب تنفع المحسنين فتكون لهم هدى و رحمة ، و هم الذين يقيمون الصلاة ، و يؤتون الزكاة ، و يوقنون بالآخرة ، فهم أصحاب الهداية و الفلاح ، بينما هنالك أناس يشترون بأعمارهم و اموالهم لهو الحديث ، من افكار باطلة ، و ممارسات ماجنة كالغناء ،و هدفهم الضلالة عن سبيل الله ، و يحذر القرآن بأن لهذه الطائفة عذابا مهينا.

بينما أعد ربنا للصالحين جنات النعيم . أوليس ربنا حكيما ، يعطي كل فريق جزاءه العادل وهو القوي العزيز ؟!

و لكي نعرف حمكة الله و بالتالي نشكره ليرزقنا من حكمته يذكرنا السياق بخلق السماوات بغير عمد يرى ، و وضع الجبال في مراسيها لتحافظ على استقرار الارض ، و خلق كل دابة (ممكنة التصور) و رزقها عبر النبات الذي ينبته في الارض بالغيث ، و يجعله زوجا كريما)
بحكمته البالغة) هذا ما خلقه الله ، و هكذا خلقه ، فماذا خلق الشركاء . كلا .. ان الظالمين في ضلال مبين (١ / ١١. (

و يعود السياق لبيان آيات الله (٢٠ / ٣٠) بعد ان يذكرنا بمفردات الحكمة التي آتاها لقمان و لخصها في كلمة واحدة (شكر الله) ذلك لأن شكر الله لا يتم الا بمعرفته و معرفة الائه و نعمائه علينا ، و أول ما يذكره ان الشكر لله يعود الى نفس الشاكر ، لان اللهغني حميد ، ثم يذكرنا بأن شرط الشكر اجتناب الشرك ، و ينبغي ان يشكر الانسان والديه و لكن في حدود شكر الله ، فاذا أمراه بالشرك فلا يجوز اطاعتهما.

و لابد ان يعرف الانسان انه مسؤول عن أعماله ، و أنه حتى لو كان العمل بوزنخردلة أتى الله به أنى كان)و هكذا تعود الى الانسان أعماله. (

و من مفردات الشكر و بالتالي الحكمة اقامة الصلاة ، و الأمر بالمعروف ، و النهي عن المنكر ، و الصبر ، و من مفرداته المشي هونا ، و عدم المشي مرحا ، و اجتناب الاختيال و الفخر ، و القصد في المشي ، و الغض من الصوت (١٢ / ١٩. (

ثم يذكرنا السياق بنعم الله علينا و التي تستدعي الشكر . أوليس كل شيء نقدر عليه فانما سخره الله لنا ، و اسبغ النعم ظاهرة و باطنة ، بيما نجد البعض يجادل في الله بغير اثارة من علم أو هدى أو كتاب منير.

و هم يتبعون آباءهم الذين اتبعوا الشيطان ، و أكد ربنا ان الخوف من الآباء لا اساس له ، لان التسليم لله وحده ، و الاحسان الى العباد يجعل العبد مصونا من الأشرار ، لانه العروة الوثقى ، و لأن لله عاقبة الأمور .

أما الكفار فانهم لا يحزنون المؤمنين لأن عاقبتهم الى الله الذي يجازيهم ، بلى .يمتعهم في الدنيا قليلا (دون ان يدل ذلك على قربهم الى الله) ثم يضطرهم الى عذاب غليظ.

و يذكر السياق بعشر اسماء حسنى لرب العالمين مع تقديم شواهد حق عليها ، لترسيخ قواعد الايمان في قلوبهم ، فالله هو الخالق الذي لا ينكر احد ذلك ، و هو الغني الحميد ، فله ما في السماوات و الارض و هو العزيز الحكيم الذي لا تحصى كلماته و هو السميع البصير.

و هو الخبير الذي يولج الليل في النهار ، و النهار في الليل ، و قد سخر الشمس و القمر و أجراهما في المسير المحدد لهما.

و هــو الحق الذي لا يزال ملكه ، بينما يبطل ما يدعون من دونه و هو العلي الكبير.

و اللـــه يهدي الناس عبر آياته ، و لكن الذين يعيشون الصبر و الشكر يهتدون بها ، و يعرض ربنا سبحانه الناس لبعض الساعات الحرجة ليتضرعوا اليه ، و لكنهم بعدها ينقسمون فريقين فمنهم مقتصد و منهم جاحد ، و الجاحد هو كل ختار كفور ، و هو الذي لا يفي بوعده ولا يشكر نعماء ربه.

و يحذر ربنا الناس من يوم القيامة حين لا تنفع العلاقات النسبية الحميمة ، و يؤكد لهم ان وعده حق ، فلا تغرنهم الدنيا و أهلها (و بذلك يلخص الرب التحذير من عوامل الانحراف. (

و في الخاتمة يذكرنا بعلمه المحيط و قدرته الواسعة.

الاحسان تكامل و هداية

هدى من الآيات

تدور الآيات في هذا الدرس حول موضوع الاحسان ، الذي يجب ان يكون صيغة العلاقة بين الانسان و الآخرين ، و لا ريب ان سعي البشر لبناء المستقبل الفاضل لنفسه طموح شريف ، اما اذا كان هذا السعي مبنيا على أساس الإستئثار و الأخذ من الآخرين فقط فهو أمر مرفوض ،اذ ينتهي بالمجتمع الى الصراع و الشقاء ، من هنا يحث القرآن الحكيم على علاقة متوازنة ، تعتمد ركيزتي الأخذ و العطاء ، التي لو انتهجهما المجتمع لتدرج نحو الكمال الحضاري لان العلاقة حينها ستكون البناء و التكامل بين افراد المجتمع ، و على عكس ذلك العلاقة المعتمدة على عبادة الذات و محورية المصلحة ، حيث تصل بالمجتمع الى حضيض التخلق و الإنهيار ، و يصبح الشغل الشاغل لكل فرد آنئذ هو افتراس الآخرين بأية وسيلة كانت ، و لا غرابة ان تؤكد هذه السورة المباركة على ضرورة العطاء ، و تبتدئ بعبارة " و رحمة للمحسنين " لان السبيل الى رحمة الله هو العمل برسالته ، و لا يتأتى ذلك الا بالاحسان و العطاء.

و لكي تحل علينا رحمة الرب لابد ان نحسن للأخرين فنأخذ منهم لنعطيهم ، و إلا فلن تكون الرحمة من

نصيبنا و لا الهدى . لماذا ؟ و ماهي علاقة الاحسان بالهداية في حياة الانسان ؟

و الجواب : ان الذي يعيش حالة مناقضة للاحسان كابتزاز حقوق الآخرين ، انما يقوم بذلك لما يعيشه من حب مفرط للذات ، فلا يرى من هذا الكون الرحيب سوى نفسه ، فيعبد هواه ، و بالتالي يبتعد عن الحق ، و هكذا يكون مقياسه المصلحة لا القيم ، و هدفه الذات لا الحقو هذا يسبب كل انحراف . ان العقل و الرسالات الإلهية توجه الانسان الى حقائق الخليقة ، بينما توجهه شهواته و اهواؤه الى داخل ذاته ، و من هنا فان استمرار اتباع الهوى يطفئ شعلة العقل ، و هذا هو الضلال البعيد ، و من هنا يؤكد ربنا بأن المحسن هو الذي يصيب طريق الهدى في عالم المعنويات ، و الرحمة في عالم المادة ، و التي هي الأخرى نتيجة للهدى.

و لو تدبرنا آيات القرآن لوجدنا ان من أهم ميزات الانبياء الاحسان الى الناس ، بل و قد تكون العامل الهام في اصطفائهم للنبوة.

قال تعالى عن نبيه يوسف (ع) : " و لما بلغ اشده آتيناه حكما و علما و كذلك نجزي المحسنين " (١)و قال عن النبي موسى (ع) : " و لما بلغ أشده و استوى آتيناه حكما و علما و كذلك نجزي المحسنين " (٢)و أكد ربنا هذا المعنى بصورة عامة اذ قال : " و لا تفسدوا في الارض بعد(١) يوسف / ٢٢

(2)القصص / ٢٨

اصلاحها و ادعوه خوفا و طمعا ان رحمة الله قريب من المحسنين " (١)و لعلنا نستوحي من آيات الذكر ان الذين يتخذون الدين وسيلة لابتزاز الآخرين و استغلالهم ، أو مطية للمصالح و الأهواء ، لا يفهمون الدين فهما حقيقيا و عميقا - لانه لا يفهمه الا من كان محسنا ، بعيدا عن شهواته و اهوائه - ، " و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين و لا يزيد الظالمين الا خسارا " (٢)و بالرغم من أن الجميع يطمحون الى الاحسان ، الا انهم يجدون أيديهم و أنفسهم مقبوضة عن العطاء حينما ينزلون الى ساحة العمل ، فكيف نخلق صفة الإحسان في أنفسنا ؟!

بالصلاة لانها تخلق في الانسان دوافع الاحسان ، و بالزكاة لإنها تطهر القلب من حب الذات كما تطهر المال ، و كذلك باليقين ، فكلما تأكدت الحقائق عند الانسان كاليقين بالموت و بما بعده من الجزاء كلما كان أكثر إحسانا للآخرين ، اذ يتأكد بان ما يعطيه لا يذهبسدى ، بل يعود اليه في صورة جنات أعدها الله للمتقين ، فهو آنئذ لا يعتبر المغنم ما يصرفه على نفسه ، بل المغنم كل المغنم هو ما ينفقه في سبيل الله.

و في السيرة ان رسول الله (ص) ذبح شاة و تصدق بها و لم يبق الا الكتف ، فقالت له عائشة : لم تبق الا الكتف يا رسول الله ! فقال (ص) لم يذهب الا الكتف ، لانه يعلم بان ما يأكلونه يتنعمون به و ينتهي ، بينما يبقى ما يعطونه صدقة في سبيل الله ، و ينفعهم في يوم لا ينفع فيه الا العمل الصالح .

(1)الاعراف / ٥٦

(2)الاسراء / ٨٢

و في نهاية الدرس يحدثنا القرآن الحكيم عن الطرف المقابل من الذين يتقصدون لهو الحديث ، لان الاشياء تعرف باضدادها ، و بينما يهتدي أولئك لآيات الله ، يصد هؤلاء عنها ، كأن في آذانهم وقرا ، و ليس جزاء هؤلاء سوى النار.

بينات من الآيات

] [1]الم[

كما احتملنا سابقا : ان الاحرف التي ترد في اوائل السور رموز لا يعلمها الا الله و الراسخون في العلم ، و يحتمل ان تدل على ألفاظها.

[2]و من تركيب هذه الاحرف البسيطة في ظاهرها ، انزل الله سبحانه القرآن و آياته ، في كتاب ثابت ينبعث بالحكمة .

]تلك ءايات الكتاب الحكيم[

[3]كما تعطي هذه الآيات الهدى و البصائر للمحسنين.

]هدى و رحمة للمحسنين[

و الاحسان ليس رحمة للمجتمع و حسب ، بل هو هدى له ايضا ، اذ يهديه الاحسان الى سبل استغلال الطبيعة و تسخيرها في خد مة الانسان ، ذلك ان من صفات المجتمع الايماني ، بحث افراده عن وسائل للعطاء و الاحسان ، و لا يمكنهم ذلك الا بتسخير الطبيعة ، مما يدفعهم لاستغلالها ، و اعمال عقولهم بحثا عن حل لكل المشاكل و العقبات التي تعترض هذا الهدف ، و بالتالي فان أبوابا كثيرة سوف تنفتح أمامهم ، و كلها طرق جديدة للسيطرة على الحياة و استغلالها ، و هذا جانب من الهداية . أوليست الحاجة أم الاختراع ؟!

[4]و لكن كيف يمكن ان نوجد صفة الاحسان في المجتمع ؟

- 1بالصلاة لانها معراج الروح نحو الفضيلة ، باعتبارها تقرب الانسان الى رب العالمين.

]الذين يقيمون الصلاة[

و اقامة الصلاة بالمعنى الحقيقي تتضمن بل تستدعي الإحسان ، كما ان الصلاة تأتي نتيجة الاحسان ، أليس المحسن يهديه الله ؟! أوليس الإحسان يروض النفس و يزكيها ؟!

- 2بالزكاة التي تربي الروح على الإحسان ، و تطهرها من حب الذات.

]و يؤتون الزكاة[

و الزكاة ليست مجرد واجب ديني يقوم به المؤمن ، بل هي برنامج يدربه على الإحسان ، و منطلق له نحو العطاء.

- 3باليقين بالآخرة ، فالذي يقتصر نظره على الدنيا يكون منتهى السعادة عنده ان يتنعم و يستلذ حتى يعتقد كما قيل : ان الحياة لذة و شهوة ، اما الآخر الذي يتيقن بالآخرة (الجزاء) و ان مستقبله فيها قائم على ما يقدمه في سبيل الله هنا في الدنيا ، فهو يكتفي بما يقيم أوده لنفسه ، و يدخر ما سواه لآخرته .

]و هم بالاخرة هم يوقنون[

[5]و يؤكد القرآن الكريم : ان هذه الصفات دليل على الهدى من جهة ، و سبب الفلاح من جهة أخرى.

]أولئك على هدى من ربهم و أولئك هم المفلحون[

في الدنيا بالهدى و النمو الذي يسببه الاحسان ، و محبة الناس لهم ، و في الآخرة بجزاء الله لهم ، و إذ يحدثنا الله بصيغة المجتمع عن تجمع بصفة عامة و ليس عن فرد واحد ، فلأن الإحسان بالنسبة لفرد

واحد يعيش في مجتمع فاسد قد لا ينفعه في الدنيا ، اما اذا كان ضمن تجمع من المحسنين فانه سيكون ذا جدوى في الآخرة و الدنيا ايضا ، بتعميقه روح المحبة و الوئام داخل المجموع.

[6]و لأن من مميزات السياق القرآني انه يعرفنا مختلف المسائل و الحقائق بذكر اضدادها ، فبذكر النار يعرفنا الجنة ، و بذكر الكفر يعرفنا الايمان ، نجده هنا ايضا يحدثنا عن الحالة المخالفة للاحسان.

فهناك من ينفق في سبيل الله من اجل الهداية ، وهو بالتالي يمهد أرضية الهدى لنفسه باحسانه و انفاقه ، و هناك من ينفق في سبيل الضلال و يشتري لهو الحديث . كلاهما يعطي من نفسه و ماله و لكن هذا للهدى و ذاك للضلال.

]و من الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم]و لكن لماذا يكون الضلال هدف هؤلاء ؟ حتى انك تجدهم يشترون (لهو الحديث) ؟

لانهم يرون الحق يناقض أانياتهم ، تماما بعكس المحسنين الذين يرون الحق محورهم ، و قلب الانسان لا يمكن ان يكون فارغا أبدا ، فاذا لم يملأه بالايمان و العلم ، فسيكون بيتا للهو و الإنحرافات.

و اللهو هوالقول و العمل الذي يخلو من أي هدف ، و هو في النهاية يعود الى الانسان بالخسران ، فهو لا يشتري اللهو بدراهم معدودة ، انما يدفع من أجله عمره الغالي و ما يملك من فرص ، و مثال ذلك الذي يشتري الافلام و الاشرطة و المجلات و الكتب المنحرفة ، و منالطبيعي ان يبتعد هذا الانسان عن آيات الله و يرفضها.

]و يتخذها هزوا[

على عكس المحسنين الذين يهتدون بالآيات " هدى و رحمة للمحسنين " و هذه من أخطر المراحل التي يصل اليها البشر في الضلال.

]أولئك لهم عذاب مهين[

لاستهزائهم بآيات الله ، و استكبارهم عليها.

و الملاحظ ان السياق ربط بين الاحسان و الهدى ، و لكنه لم يسمه (شراء الهداية) بينما سمي الانفاق في سبيل الضلال (بشراء لهو الحديث) و ذلك لان الهداية من الله ، و هي أعز من أن تشترى.

كما ان هناك مفارقة بين الكتاب الحكيم و بين لهو الحديث ، كما بين الهدى للمحسنين و الضلال لمن يشتري لهو الحديث.

و مفردات لهو الحديث كثيرة تشير الى بعضها الرواية المأثورة عن الامام الصادق (ع) حيث قال:

"هــو الطعن في الحق ، و الإستهزاء به ، و ما كان ابو جهل و اصحابه يحيون به ، اذ قال : يا معاشر قريش ألا أطعمكم من الزقوم الذي يخوفكم به صاحبكم ؟ ثم ارسل الى زبدة و تمر ، فقال : هذا هو الزقوم الذي يخوفكم به " قال " : و منهالغنا " (١(

و قد استفاضت الأحاديث المأثورة في تفسير هذه الآية بالنهي عن الغناء ، باعتباره من لهو الحديث.

نقرأ معا بعض تلك النصوص.

جاء في الأثر عن الامام الباقر (ع) انه قال:

"الغنا مما أوعد الله عز و جل عليه النار " و تلا هذه الآية (٢)و روي عن الامام الصادق (ع (انه قال:

"الغنا مجلس لا ينظر الله الى اهله و هو مما قال الله عز و جل و قرأ : " و من الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله " (٣)و روى أبو أمامه عن النبي (ص) انه قال:

"لا يحل تعليم المغنيات ، و لا بيعهم ، و اثمانهن حرام ، و قد نزل تصديق ذلك في كتاب الله " ومن الناس من يشتري لهو الحديث " (٤)و جاء في حديث مروي عن الامام الصادق (ع) وهو يعدد مفاسد الغناء:

"بيت الغناء لا تؤمن من فيه الفجيعة ، و لا تجاب فيه الدعوة ، و لا يدخله الملك " (٥)(١) نور الثقلين / ج ٤ -ص ١٩٥

(2)المصدر / ص ١٩٤

(3)المصدر

(4)المصدر

(5)وسائل الشيعة / ج - 12ص ٢٢٥

و جاء في نص آخر مأثور عنه ايضا قال:

الغناء يورث النفاق ، و يعقب الفقر " (١(

و يبدو ان حكمة تحريم الغناء في الشريعة الاسلامية تتشابه و حكمة تحريم الخمرة و المسكرات و المخدرات و القمار ، حيث أنها جميعا تلهي الناس عن ذكر ربهم ، و تنسيهم الآخرة ، و تخدرهم فيما يتصل بمشاكل حياتهم ، و هي بالتالي نوع من الهروب عن مواجهة تحديات الحياة التي يتناسونها عبر الملهيات ، كما انها تجر المجتمع الى المفاسد الاجتماعية ، التي تسبب الصراعات و تزرع النفاق.

و لهذا أكد رسولنا الأكرم)ص) على هذا الجانب ، فيما رواه عنه احمد امام المذهب ، عن ابن مسعود انه قال:

"الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل " (٢)و الغناء يشجع ايضا الفساد و الجنس ، و يتخذه اصحاب الهوى و سيلة لاثارة شهواتهم ، و اتخاذ السبل السيئة لاشباعها مما يهدد التماسك الأسري باخطار كبيرة.

من هنا جاء في الحديث المأثور عن الامام الباقر (ع) حول الغناء ... انه سئل عن كسب المغنيات فقال:

"التي يدخل عليها الرجال حرام ، و التي تدعى الى الاعراس ليس به بأس " (٣)(١) المصدر / ص ٢٣٠

(2)تفسير نمونه / ج - 17ص ٢٢ / نقلا عن تفسير روح المعاني للألوسي عند تفسير الآية.

(3)نور الثقلين / ج ٤ -ص ١٩٤

و في الغناء بالاضافة الى كل ذلك حالة ادمان كما المسكرات و المخدرات لانها تخلف آثارا خطيرة على شبكة الأعصاب ، ومن هنا دلت البحوث التي أجريت في حياة كبار رجال الغناء و الموسيقى ، انهم تعرضوا لمتاعب روحية ، حتى انهم فقدوا قدراتهم العصبية ، و ابتليبعضهم بأمراض نفسية ، و فقد البعض منهم مشاعرهم ، و انتهى ببعضهم المطاف الى المصحات العقلية ، أو أصيبوا بالشلل ، و بعضهم تعرض لموت الفجأة بسبب ارتفاع ضغط الدم عن ضرب الموسيقى [7](1) . و لا يمكن ان تنطفئ شعلة الهدى

من قلب البشر بصفة كلية ، بل لابد من يبقى فيه وميض من نور العقل مهما تراكمت عليه الشهوات ، هكذا أراد الله ان يقيم الحجة عليه أبدا من نفسه.

فبالرغم من وصول فرعون الى قمة العناد ، حيث ادعى الربوبية ، و لكنه ما استطاع اطفاء الفطرة داخله ، و اذا به يقول " آمنت برب هارون و موسى " بلى . يمكن للبشر أن يخالف فطرته في فكره و سلوكه ، لذلك تجده يسعى جادا للإنفلات من وخز ضميره ، و يهربمن أسباب هدايته.

]و إذا تتلى عليه ءاياتنا ولى مستكبرا[

عنادا منه.

]كأن لم يسمعها[

و لم يقل لم يسمعها ، و هذا دليل على الاختيار ، فالانسان هو الذي يختار بنفسه لنفسه ان لا يسمع نداء الفطرة و لا آيات ربه مع تمكنه من الاستماع لذلك.

(1)تفسير نمونه / ج - 17ص ٢٦ / نقلا عن كتاب تأثير موسيقي بر روان و اعصاب / ص ٢٦.

]كأن في أذنيه وقرا[

و هو الثقل في السمع أو الصمم ، و هذا الوقر أو الحجاب بينه و بين الآيات يكون تارة بسبب الأفكار المسبقة ، و تارة أخرى بسبب العوامل الآنية كالاستكبار ، و عموما فان المقاييس الخاطئة التي يعتمدها الانسان في تقييمه للأفكار و الأشخاص و الأشياء هي السبب في النتائج الخاطئة.

]فبشره بعذاب أليم[

هناك قال ربنا " مهين " لأن جزاء الاستكبار في الدنيا الإهانة في الآخرة ، حتى جـــاء في الحديث ان الله يحشر المستكبرين في صورة ذر يطأهم الناس حتى ينتهي الحساب.

و هنا يقول ربنا سبحانه : " أليم " لأن الانسان يستكبر ، و يعرض عن الآيات من أجل التلذذ بشهوات الدنيا ، و جزاء ذلك الإيلام في الآخرة ، و يدل انسجام التعابير في موارد العذاب على ان الجزاء من جنس العمل ، و بتعبير ابلغ الاعمال هي التي تتجسد جزاء وفاقا في الآخرة ، بل في الدنيا أحيانا كثيرة.

[8]و في مقابل هذا الجزاء يأتي الحديث عن جزاء المؤمنين.

]إن الذين ءامنوا و عملوا الصالحات لهم جنات النعيم]جزاء لهم على ما أنفقوا من نعيم الدنيا في سبيل الله.

[9]و يختلف هذا النعيم عن الدنيا بأن الجنة خالدة.

]خالدين فيها وعد الله حقا [

و يدل على صدق وعد الله عزته و حكمته ، ذلك أن الذي يخلف الوعد اما يكون قاصرا عن تحقيقه و الوفاء به ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

]و هو العزيز[

القوي القادر.

و اما ان يكون عن جهل كأن يعد الانسان اخاه بشيء ما ثم يكتشف خطأه انه غير قادر على الوفاء فلا يفي بوعده ، و حاشا لله و هو...

]الحكيم[

الذي يحيط علمه بكل شيء.

[10]و مـــن آيات عزة الله و حكمته الظاهرة الابداع و المتانة المتجليان في خلقه.

]خلق السموات بغير عمد ترونها[

و هذا مما يزيدنا ثقة بوعد الله سبحانه ، فهذه السماء الواسعة خلقها و رفعها كالسقف ، من دون عمد نراها ، و في الحديث:

"فثم عمد و لكن لا ترونها " (١(

و قال البعض : ان المقصود من العمد هو الجاذبية التي تثبت السماء و ما فيها بقدرة الله و حكمته.

و حينما ننظر الى الارض ، نلمس تجليات صفات الله و اسمائه الحسنى في بديع(١) نور الثقلين / ج ٤ - ص ١٩٥

خلقه فيها.

]و ألقى في الأرض رواسي[

و هي الجبال.

]ان تميد بكم[

لكي تحافظ على توازن الارض ، و تمنع عنها الحركات ، و سميت بالرواسي تشبيها لها بالمرساة ، التي تثبت السفينة في البحر . فالجبال التي تتصل ببعضها من تحت الارض يجعلها شبيهة بدرع صخري متين ، تمنع عن الارض الهزات الهائلة التي - كانت - لولا الجبال تحول الارض الى ارجوحة لا تتوقف ، و ذلك بفعل الغازات الكثيرة الموجودة في وسط الكرة الترابية ، و التي منها تأتي الزلازل و انفجار البراكين.

من جهة أخرى كانت جاذبية القمر تجعل الارض لولا الجبال كسطح البحار خاضعة لقانون المد و الجزر ، كما ان اعتدال الهواء منوط بوجود الجبال ، و لولاها لكان البرد القارص و الحر الشديد يجعل الحياة صعبة ، كما أن الرياح الشديدة كانت تلعب فوق الكرة كما في الفلوات الواسعة ، و تجعلها ميدان جولاتها الخطيرة .

على ان في الجبال منابع الماء ، و في داخلها مخازن حفظ المياه من مواسم المطر الى ايام الصيف ، و في بطونها معادن لمختلف الفلزات و الاحجار الكريمة و سائر ما يحتاج اليه البشر.

أوليس كل ذلك دليل قدرة الله ، و متين صنعه ، و حسن تقديره و تدبيره ؟!

]و بث فيها من كل دابة[

و نستوحي من الآية ان كل نوع ممكن و مناسب من الدواب قد خلقت ، فهناك الصغير و الكبير وما بينهما كثير من الاحجام ، و هناك الطائر و الماشي ، و الزاحف و الهائم فوق البحار و الغائص في اعماقها و هكذا ، مما جعل داروين يذهب الى نظريته في اصل الانواع و تسلسل نشوئها ، و الواقع ان انعدام الحلقات التي قيلت بانها مفقودة في المخلوقات و عظيم تشابهها و كثرة انواعها جعلت اصحاب نظرية التكامل يذهبون الى ما ذهبوا اليه ، و هذا دليل قدرة الله ، و عظيم تدبيره ، و قد سأل على بن الحسن بن علي بن فضال عن أبيه عن ابي الحسن الرضا (ع) قال : قلت له : لم خلق الله سبحانه و تعالى الخلق على أنواع شتى ، و لم يخلقهم نوعا واحدا ؟! فقال:

"لئلا يقع في الأوهام انه عاجز ولا يقع صورة في وهم ملحد إلا و قد خلق الله عز و جل عليها خلقا لئلا يقول قائل : هل يقدر الله عز و جل على ان يخلق صورة كذا و كذا ، لأنه لا يقول من ذلك شيئا إلا و هو موجود في خلقه تبارك و تعالى فيعلم بالنظر إلى أنواع خلقه انه على كل شيء قدير " (١(

فأجابه (ع) : انما فعل ذلك حتى لا يقول احد لو كان قادرا لكان يخلق كذا و كذا ، و من كانت هذه قدرته فلماذا يخلف وعده ؟ فليكن عندنا يقين بوعد الله ، حينما نستقيم في سبيله ، و هذا ما يدفعنا للاحسان و الانفاق من اجل الله.

و تستمر الآية في ذكر خلق الله فيقول:

]و أنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم]و هكذا نجد الحياة يكمل بعضها البعض الآخر ، و تحتاج أجزاؤها لبعض ، و هذا(١) علل الشرائع / ج ١ - ص ١٤

من حكمة الله البالغة لعلمه بصلاح ذلك.

[11]ثم يتحدى الله الانداد .

]هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه[

انهم لم يخلقوا حتى ذبابة وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب و المطلوب.

]بل الظالمون في ضلال مبين [

و هل يشك احد في ضلال هذا الانسان الضعيف حينما يدعي الالوهية ؟!

و من يشكر فانما يشكر لنفسه

هدى من الآيات

كيف تتكامل البشرية و تحظى بالهدى و السعاد ؟ وما هي الحكمة الإلهية التي تجعل الفرد فاضلا و المجتمع سويا ، في هذا الدرس من هذه السورة إجابة كافية لمن تدبر عبر وصايا يلقيها الحكيم الالهي لقمان (ع. (

فقد اعطاه ربنا الحكمة ، و اوجزها في كلمة " ان اشكر لله " و يبدو ان الشكر جماع فضائل عديدة أبرزها :

الف :الاعتراف بفقدان النعمة ذاتا ، فلولا فضل الله علينا لما كنا مخلوقين ، و لما كانت لنا الاسماع و الابصار و الأفئدة ، و من هذا الإعتراف تنبثق فضيلة التواضع ، و تجنب الخيلاء و الفخر ، و عدم تحدي الناس استكبارا و سائر ما ذكر في الآيات.

باء : التصديق بفضل من أنعم علينا وهو الله سبحانه ، و لا يتم التصديق إلابتوحيده ، والا نشرك به من لا فضل له علينا انى كان حتى ولو كان واسطة وصول الفضل الينا . و هذا ما أمرت به الآية (١٣) ثم الآية (١٥. (

جيم : احترام وسائط الفضل الذين قاموا بدور من وصول النعمة الينا و أبرزهم الوالدان ، و هذا ما أمرت به الآية (14)و الآية (١٥) اذ ان اتباع سبيل من اناب الى الله يشير الى احترام التجمع الايماني.

دال : السعي نحو تكريس النعمة ، و اتقاء ما يسبب زوالها . أولا : بمعرفة ان عمل الانسان يؤثر في بقاء أو زوال النعمة . ثانيا : باقامة الصلاة ، التي هي مظهر الشكر لله . ثالثا : بالدعوة الى الخير و النهي عن الشر و الصبر عند المكاره.

هكذا نعرف ان الشكر لله حقا هو أساس الحكمة الالهية.

بينان من الآيات
لقمان الحكيم الالهي
[12]لقد خلد الله لقمان في كتابه بالرغم من انه لم يكن نبيا ، فمن هو و كيف أضحى حكيما ؟

في الحديث الذي يرويه العلامة الطبرسي في تفسيره مجمع البيان عن نافع ، عن ابن عمر ، عن الرسول صلى الله عليه وآله نجد الجواب:

سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول:

"حقا اقول لم يكن لقمان نبيا ، و لكن كان عبدا كثير التفكر ، حسن اليقين ، أحب الله فأحبه ، و من عليه بالحكمة ، كان نائما نصف النهار اذ جاءه نداء :يا لقمان ! هل لك ان يجعلك الله خليفة في الارض تحكم بين الناس بالحق ؟

فأجاب الصوت : إن خيرني ربي قبلت العافية ، و لم اقبل البلاء ، و ان هو عزم علي فسمعا و طاعة ، فاني اعلم انه ان فعل بي ذلك اعانني و عصمني ، فقالت الملائكة بصوت لا يراهم : لم يا لقمان ؟ قال : لان الحكم أشد المنازل و اكدها ، يغشاه الظلم من كل مكان ، ان وفىبالحرى ان ينجو ، و ان أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن في الدنيا ذليلا وفي الآخرة شريقا خير من أن يكون في الدنيا شريفا في الآخرة ذليلا ، و من تخير الدنيا على الآخرة تفته الدنيا و لا يصيب الآخرة ، فعجبت الملائكة من حسن منطقه ، فنام نومة فأعطي الحكمة ،فانتبه يتكلم بها ، ثم كان يوازر داود بحكمته ، فقال له داود : طوبى لك يا لقمان اعطيت الحكمة ، و صرفت عنك البلوى " (١)و يبين لنا الامام الصادق عليه السلام تفاصيل أخرى عن حياة لقمان ، و السبب الذي جعل به حكيما نثبت منه بعض النقاط العامة.

قال الامام الصادق (عليه السلام: (

"اما و الله ما أوتي لقمان الحكمة بحسب ، ولا مال ، و لا أهل ، ولا بسط في جسم ، و لا جمال ، و لكنه كان رجلا قويا في أمر الله ، متورعا في الله ، ساكتا ، مستكينا ، عميق النظر ، طويل الفكر ، حديد النظر ، مستغن بالعبر ، لم ينم نهارا قط ، و لم يرهاحد من الناس على بول و لا غائط و لا اغتسال لشدة تستره ، و عموق نظره ، و تحفظه في أمره ، و لم يضحك من شيء قط مخافة الإثم ، و لم يغضب قط ، و لم يمازح انسانا قط ، ولم يفرح بشيء آتاه من أمر الدنيا ، و لا حزن منها على شيء قط ، و قد نكح من النساء و ولد لهمن الاولاد الكثير ، و قدم أكثرهم إفراطا (٢) فما بكى على موت أحد منهم ، ولم يمر برجلين يختصمان او يقتتلان الا اصلح(١) نور الثقلين / ج٤ - ص ١٩٦

(2)من افرط فلان ولدا ، اي مات له ولد صغير قبل ان يبلغ.

بينهما ، و لم يمض عنهما حتى تحابا ، ولم يسمع قولا قط من أحد استحسنه الا سال عن تفسيره و عمن أخذه ، و كان يكثر مجالسة الفقهاء و الحكماء ، و كان يغشى القضاة و الملوك و السلاطين فيرثى للقضاة مما ابتلوا به ، و يرحم الملوك و السلاطين لغرتهم بالله و طمأنينتهم في ذلك ، و يعتبر و يتعلم ما يغلب به نفسه ، و يجاهد هواه و يحترز به من الشيطان ، و كان يداوي قلبه بالفكر ، و يـداوي نفسه

بالعبر ، و كان لا يظعن الا فيما يعنيه ، فبذلك أوتي الحكمة و منح العصمة " (١)الاحسان الى الناس ظاهرة تنبع من الشكر لله سبحانه ، ذلك انه يعني الرضا النفسي و العملي ، الذي ينعكس على السلوك في صورة عطاء و تضحية و جهاد ، مقابلة لجميل نعم الله ، و احساسا بالمسؤولية تجاهها . و لكل نعمة شكر يختص بها ، تبعا لمعطياتها ، فشكر نعمة العلم نشره و هداية الناس به.

"زكاة العلم نشره (2) "

و شكر الجاه بذله للمحتاجين :

"زكاة المال بذله "

بينما شكر نعمة القوة السعي لتحقيق الأهداف السامية كاقامة حكم الله في الارض من خلال الجهاد الشامل.

]و لقد ءاتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله[

و بذل الانسان للنعمة في مجالها الذي حدده الله هو الشكر ، و سنن الله في الحياة(١) المصدر / ص ١٩٦ - 197

(2)بحار الانوار / ج - 78ص ٢٤٧

-التشريعية منها و التكوينية - تقتضي بذلك نماء النعمة ، فمن حكمة الله ان تسقي السماء الارض ذات الزرع أكثر من الجرداء ، و ان من يستخدم عضلاته أكثر هو الذي تنمو العضلات لديه بينما تضمر عند الخامل ، و ان من يقرأ اكثر ينمو عقله و فكره ، و الذي لا يستفيدمن النعم أو يستخدمها في غير مجالاتها المحددة لا تنمو لديه و تكون مضرة له ، كما لو بذل العلم للتباهي أو المال في اللهو و اللعب.

]و من يشكر فإنما يشكر لنفسه[

لان المحتاج للشكر هو الانسان لا الله المتعالي عن الحاجة ، و الشكر هنا يشمل ايضا الناس ، لكن ضمن هدف محدد هو ان يكون ذلك من اجل الله وحده و طلبا لمرضاته و ذلك كله يعود على الانسان نفسه ، بما يسببه الشكر من انماء النعمة " و لئن شكرتم لأزيدنكم " . (١(

]و من كفر فإن الله غني حميد [

و ليس غنى الله كغنى الناس ، لان الآخر غالبا ما يتأسس على النهب و الاستغلال ، أو يصرف في سحق الآخرين و ابتزازهم حقوقهم - و هو غيري - بينما غنى الله ذاتي يتفضل به على الآخرين خيرا و نعمة ، و هذا هو الغنى المحمود.

[13]ثم تتعرض الآيات لبعض وصايا لقمان (ع) لابنه ، و التي تشكل أبعاد الحكمة ، و مفردات الشكر لله.

و أول ما يفتتح وصاياه يبين له العلاقة الفاضلة التي يجب ان ينتهجها مع الآخرين و التي تقوم على مبدا التوحيد ، فيحذره من الشرك ، فالخضوع المطلق لا(١) ابراهيم / ٧

ينبغي إلا لله سبحانه ، أما البشر فيتقبل توجيهاتهم الصائبة ، و لكن بشرط المحافظة على استقلاليته تجاههم بالتوحيد.

اذن فالتوحيد هو الجوهر الذي يجب على الانسان اعتماده في كل سلوك فردي أو اجتماعـــي و هذا ما دعى اليه كل الانبياء ، و لعل هذا التأكيد على موضوع الشرك في القـــرآن يرجع الـى عامل مهم و هو

ان مشكلة الانسان في غالب الاحيان ليس الكفر المحض ، فهو يؤمنباله لهذا الكون ، انما مشكلته هي الشرك بالله.

]وإذ قال لقمان لابنه و هو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم]ما هو ذا الظلم العظيم الذي يفرزه الشرك بالله ؟

ان هناك جوانب خفية ، و أخرى ظاهرة لهذا الظلم.

حقا ان ضياع الانسان عن ربه الكريم الذي أسبغ عليه نعمه ظاهرة و باطنة ، و هبوطه الى حضيض عبادة الأشياء الضعيفة العاجزة التي لا تنفع ولا تضر إنه لظلم عظيم.

ما الذي نجده لو فقدنا رب العزة و هو الرحيم الودود الذي أحاطنا باحسانه ، و دعانا الى نفسه ، و وعدنا المزيد من عطائه ؟!

من هو أشد فقرا وفاقة و مسكنة منا حين نضل عن السبيل الوحيد للهدى و الفلاح و الغنى و العز و الكرامة ؟!

من أكثر عجزا و ذلا و هوانا منا لو خرجنا من حصن الرب الى مسبعة ذئاب القدرة ، و حقل الغام الثروة ، حيث المستكبرين في الارض بغير الحق..

الله اكبر.

ما أخسر من ترك متجر ربه و توجه تلقاء غرور الشيطان ، و رام عن ربه بدلا.

ان علينا ان نتأمل كثيرا لنعرف هول الإبتعاد عن الله ، و أخطار الشرك به في عمق ذواتنا ، و في آفاق حياتنا الشخصية.

لكن هذا الظلم العظيم قد يخفى على من لم يتأمل فيه . بيد ان هناك ظلما عظيما ظاهــرا يتجلى للناس جميعا ، و يتمثل في عاقبة النظام المشرك السائد على الانسانية جمعاء ، هذا النظام العالمي الذي انساقت اليه البشرية حين خرجت عن حصن التوحيد و عبدت رجال الثروة و القوة و الضلالة.

لا يسع تفسيرنا الموجز لسرد تفاصيل هذا الظلم و لكن لا يسعنا ايضا ان نمر عن هــذه الآية الكريمة دون ان نلقي نظرة خاطفة على الحياة من خلالها و عبر بصيرتها النافذة.

و لنتخذ مثلا واحدا من بين الحقائق الأشد ظهورا في حياة الخاضعين للشرك ، و نرى اي ظلم عظيم هم فيه.

يقول شاهد من أهل عصرنا ما يلي:

*لو حاولنا اتلاف الاموال التي دفعت للاغراض العسكرية في سنة (١٩٨٦ م) بمعدل دولار واحد في كل ثانية لاحتجنا الى (٣٦٠٠٠) سنة.

*بتعبير آخر فان معدل ما يصرفه العالم على السلاح في الدقيقة الواحدة هو (2)مليون دولار في الوقت الذي يعيش فيه ملياري انسان في العالم في حالة فقر ، و خمس مائة مليون منهم يعانون من سوء التغذية بشدة.

*لقد وصف السكرتير السابق للامم المتحدة " يوثانت " المدفوعات العسكرية للعالم انها تضييع مفرط للثروات.

*ان قيمة غواصة نووية واحدة تزيد كثيرا عن ميزانية التعليم السنوية لاكثر من اثنى عشر دولة نامية ، ان العالم يدفع للتسلح أكثر مما يدفع للتعليم سنويا.

*روسيا ، الولايات المتحدة الامريكية ، الصين ، برطانيا و السعودية هي الدول الاكثر دفعا في المجال العسكري.

*من الملفت للنظر ان كثيرا من الدول النامية قد زادت من مدفوعاتها على التسلح و ذلك بتخصيص مبالغ كبيرة من الناتج الوطني.

*ان الدول المديونة لازالت تخصص أموالا للسلاح اكثر مما تخصص لبناء المدارس ، و يكفيك ان (٨٠٠) مليون نسمة في العالم لا يقرأون و لا يكتبون (أميون *, (انه من الاحسن ان يدفع بذلك المال ، و بتلك الطاقة البشرية ، و بتلك الخامات الى بناء السدود و القضاء على البطالة ، و تحسين الأحوال المعيشية للبشر ، و بناء المساكن ، و اقامة السدود و المصانع ، و بناء المدارس ، و تخزين الحبوب بدلا من ان تدفع تلك الامور في صنع الدبابات و الطائرات القاذفة للقنابل و الصواريخ.

*ان العالم ينظر الى امتلاك السلاح على انه حافظ للسلام أو مثبط عن اشعال الحرب.

*لكل دولة قصتها التي يمكن ان تحكى ، فمثلا اثيوبيا من الدول التي تعاني من المجاعة ، و معدل دخل الفرد فيها (١١٠) دولار سنويا و بها طبيب لكل(٦٩٠٠٠ (شخص ، و عشرين في المائة من اطفالها يموتون قبل بلوغ الخامسة في حين ان ربع الميزانية الحكومية يصرف على الدفاع ، و بعض المتخصصين يقولون : ان مدفوعات اثيوبيا على الدفاع تبلغ نصف ميزانية الدولة ، و الروس باعوا لاثيوبيا بثلاثة مليارات دولار ليس الغذاء و انما السلاح.

اثيوبيا تستخدم ما يقـــارب (250000)جندي لا لخدمة الجائعين و نقل الغذاء لهم ، وانما لمحاربة بعض الحركات الفدائية.

و نفس القصة يمكن ان تروي عن الدول الأخرى في العالم الثالث:

*مستوى المدفوعات العسكرية السنوية يقدر بـ (تريليون) دولار ، و من العجيب ان كثيرا من الاسلحة قد استخدم ، حيث ان (١٠٠) مليون نسمة قد قتلوا في القرن العشرين.

و أكثر من (١٠٠) حرب قد وقعت بعد الحرب العالمية الثانية ، و ان (٧) ملايين نسمة قد قتلوا في حروب و حرب اهلية خلال الخمسة عشر سنة الماضية.

*و انت تقرأ هذه المقالة ، فان هناك (٣٠) الى (٤٠) شعب يستخدمون السلاح في حروب أهلية ، أو حروب حدودية ، أو نزاعات دينية ، أو اسباب أخرى ، ان واحدا من بين كل ثلاثة من سكان العالم (٥ مليار نسمة) داخل في نزاع مسلح.

*ان هذه الفترة هي أخطر فترة تمر على الانسان خلال (٦٠٠٠) سنة.

(1)رشاش (٦٠٠) دولار = ٨٢ مسحاة (٨) دولار.

(1)دبابة (٢٨٠٠٠٠٠) دولار 6222 =بقرة (٤٥٠) دولار.

(1)طائرة (٢٧٠٠٠٠٠٠ (دولار = ١٣٥٠ تراكتور (٧٨) حصان (٢٠٠٠٠) دولار.

(1)غواصة (٢٠٠٠٠٠٠٠٠) دولار = ٢٥٠٠٠ بيت (٨٠٠٠٠) دولار . (١)[١٤] ثم يوصي الله بالوالدين خيرا ، حفاظا على نعمة الحنان و العطف من قبلهما للإبن ، وشكرا لهما على جهد هما تجاهه ، فاذا

كان الأكل و الشرب غذاء الجسد ، فان الحنان و العطف أفضل غذاء للروح ، و لنمو النفس نموا فاضلا متكاملا ، و الذي يسبب استمرارهما هوالشكر للوالدين ، و بقاء العلاقة معهما ، و لا يعني هذا من قريب و لا بعيد ان لا يشكـــر الانسان ربه ، بل يجب ان يقدم شكره لله على شكرهما ، لأنه مصدر كل نعمة ، و انما الآخرون وسيلتها اليه.

]و وصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن [و يخصص الله الام اكثر من الاب ، لانها هي التي تتحمل اعباء الوليد منذ اللحظة التي تنعقد فيها نطفته ، اضف الى ذلك ان المرأة و هي المخلوق الضعيف حين تحمل في بطنها وليدا الـــى مدة تتراوح بين الستة الى التسعة أشهر أليس يزيدها ضعفا على ضعفها ؟! و لذلك ورد الأثر المروي عن النبي صلى الله عليه و آله أنه جاء اليه رجل فقال : يا رسول الله من أبر ؟ قال " : أمك " قال ثم من ؟ قال : أمك " ، قال : ثم من ؟ قال : امك ، قال ثم من ؟ قال " اباك " (٢)[و فصاله في عامين[

(1)ترجمة مجلة الحقيقة الواضحة العدد (٣) المجلد (٥٢) التاريخ مارس /١٩٨٧ وطبع منه (٧١٤٠٠٠٠. (

(2)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٢٠٠

و بعد الولادة تستمر رضاعتها له عامين - كحالة طبيعية - يمتص فيهما من طاقة أمه و قدراتها غذاؤه ، كما تسقيه من عطفها و تربيتها الكثير.

]أن اشكرلي و لوالديك إلي المصير[

و اذا كان شكر نعمة الوالدين هو الوفاء بحقيهما ، فان شكر الله هو ان يفي الانسان بحقوق الوالدين في اطار أوامر الله ، و تعاليم دينه ، فالشكر للوالدين واجب شرعي على الولد ، و لكن بشرط ان لا يفقد استقلاله تجاههما لان ذلك يخالف روح التوحيد.

ان توحيد الله يقتضي معرفة انه سبحانه صاحب كل نعمة عليه ، فيحمده عليه ، جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام قال:

"أوحـــى الله عز و جل الى موسى : يا موسى ! اشكرني حق شكري ، فقال : يا رب و كيف أشكرك حق شكرك و ليس من شكر أشكرك به إلا و أنت أنعمت به علي ، قال : يا موسى ! الآن شكرتني حين علمت ان ذلك مني " (١)اما اذا شكر الفرد ربه و لم يشكر والديه فقد خالف تعاليم دينه ، و بالتالي خرج عن اطار توحيد الله ايضا ، و هكذا ورد الحديث المروي عن الامام الرضا (ع: (

"و أمر الله بالشكر له و للوالدين فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله تعالى " (٢)و هكذا كل منعم من الناس من ترك حقه من الشرك فقد ترك شكر الله أيضا ،(١) المصدر / ص ٢٠١

(2)المصدر

كذلك جاء في الحديث المأثور عن الامام الرضا (عليه السلام: (

"من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الله عز وجل " (١)[١٥] صحيح ان الوالدين هما القناة التي تنتقل عبرها المكاسب المادية ، و الخبرات الحضارية للانسان ، و لكن لا يصح ان يستقبل الانسان كلما تحمله هذه القناة اليه من غث و سمين ، لأنها كما تحمل ايجابيات الحضارة التاريخية أو القائمة ، تنقل اليه أيضا السلبيات ، لذلك يؤكد الرب:

]و إن جاهداك على ان تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما]اذن على الانسان ان يكون ذكيا ، يستفيد من المكاسب و المغانم الحضارية القادمة اليه عبر والديه من التاريخ أو المجتمع ، و يترك

السلبيات لانهما - على فطرتهما - يغذيان الطفل بشتى الافكار الواقعية و الخرافية ، الايجابية و السلبية ، دونما تمييز على الاغلب ، و هما بذلك يحاولان فرضها على ولدهما ، و هنا تقع على الفرد نفسه مسؤولية مقاومة الضغط و لكن بمعروف.

]و صاحبهما في الدنيا معروفا[

يقول الرسول (ص: (

"كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يكون أبواه يهودانه و ينصرانه " (٢)فاذا ما قاوم الابن الافكار الخاطئة استطاع النمو على الفطرة ، لانه بذلك يبعدها(١) المصدر

(2)بحار الانوار / ج - 3ص ٢٨١

عما يدنسها من الأفكار الخاطئة ، و التوجيهات السقيمة ، و ذلك لا يعني بالضرورة التعدي على الأبوين ، فقد جاء في الحديث:

"ثلاثة لا يدخلون الجنة : قاطع رحم ، و عاق لوالديه ، و شيخ زان. "

و هنا تستوقفني مسألة و هي : اني لا أعلم من اين استخرج البعض انه تجب طاعة الوالدين طاعة مطلقة ، بينما تخالف النصوص الاسلامية صراحة ذلك ، فهي تأمر بالشكر و الاحسان لهما ، أما الطاعة فهي لله ، و لمن امر الله بطاعته ، و ولاية الوالدين التي تشيرلها بعضالنصوص لا تكون الا ضمن الحدود الشرعية.

من هنا نقرأ في كتاب مصباح الشريعة : ان الامام الصادق (ع) قال:

بر الوالدين من حسن معرفة العبد بالله ، اذ لا عبادة أسرع بلوغا بصاحبها إلى رضا الله تعالى من حرمة الوالدين المسلمين لوجه الله ، لان حق الوالدين مشتق من حق الله تعالى ، إذا كانا على منهاج الدين و السنة ، و لا يكونان يمنعان الولد من طاعة الله الى معصيته ، و من اليقين الى الشك ، و من الزهد الى الدنيا ، و لا يدعوانه الى خلاف ذلك ، فاذا كانا كذلك فمعصيتهما طاعة ، و طاعتهما معصية " (١)و لكن السؤال هو : اذا ما ترك الانسان والديه عند شركهما فالى من يتجه ؟ يجيب السياق عن ذلك:

]و اتبع سبيل من أناب إلي[

و هم الاولياء و من يسير في خطهم من أبناء المجتمع ، حيث يجب على الانسان البحث عنهم في المجتمع ، ليتبع سبيلهم ، و ينظم الى تجمعهم الرسالي ، لان(١) نور الثقلين / ج ٤ ص ٢٠٢ -٢٠٣

الوالدين حينما لا تكون طاعتهما طاعة لله ، و يترك الإبن الانصياع لهما ، فانه سيجد من هو أكثر عطفا و حنانا عليه منهما في الله ، أولم يترك مصعب ابن عمر أبويه ؟ فوجد من عـــوضه عنهما بأفضل صوره ، أولم يترك فلان و فلان اباءهم ؟ و لكن الى اين وفقهم الله ؟

لقد وفقهم الى احضان الاسلام ، حيث تربوا على يدي الرسول (ص) و بين ظهراني المؤمنين ، و أخيرا كان الرجوع الى ربهم الودود.

]ثم إلي مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون[

بلى . قد يخسر الانسان بعض المكاسب الدنيوية - مادية و معنوية - و لكن الله سوف يعوضه عن ذلك في الآخرة.

[16]و هناك حقيقة هي ان عمل الخير لابد وان يعود لمن عمله - مهما كان صغيرا أو كبيرا ، معلنا او خفيا ، سواء كان جزاؤه في الدنيا أو الآخرة - و الله لا يظهر العمل الصالح و حسب ، بل يجازي عليه مهما قل و صغر.

]يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل[

و هي حبة صغيرة ليس لوزنها اعتبار لدى الناس.

]فتكـن في صخرة أو في السموات أو في الارض يأت بها الله إن الله لطيف خبير [فبلطفه قرب من الاشياء ، و بخبرته أحاط بها علما و معرفة ، ومن الحري بنا ان نهتم بأعمالنا لانها تحت عين الله ، و لا نحقر ذنبا أو نستهين بواجب ، فقد جاء في الحديث عن الامام الصادق (ع: (

"اتقوا المحقرات من الذنوب ، فإن لها طالبا . لا يقولن أحدكم : اذنب و استغفر الله . ان الله تعالى يقول : ان تك مثقال حبة من خردل .. " (١)[١٧] [يا بني أقم الصلاة[

لأنها زكاة الأعمال ، اذا كانت بشروطها ، كما يقول الحديث ، فهي حينذاك تشبه النهر لو اغتسل منه الانسان في اليوم الواحد خمس مرات لا يبقى عليه من الدرن شيء ، و إذا أراد الانسان تنمية معرفته بالله و ايمانه به ، فما عليه الا ان يسبغ الوضوء ، و يصلي خاشعا لله ، لذلك قال الرسول (ص: (

و قرة عيني في الصلاة(2) "

و قال الامام علي (ع: (

"الصلاة قربان كل تقي (3) "

و كما ان للصلاة جانبا عباديا روحيا ، فإن لها جانبا آخر لا تكتمل الا به و هو الجانب الاجتماعي الذي يتمثل في الشهادة على الواقع القائم.

]وأمر بالمعروف و انه عن المنكر و اصبر على ما اصابك]و اقامة الصلاة كما الامر بالمعروف و النهي عن المنكر ، كل ذلك يحتاج الى الصبر على ما يصيبه في هذا الطريق ، فان الجنة حفت بالمكاره ، كما حفت النار بالشهوات.

(1)المصدر / ص ٢٠٤

(2)الخصال / ص ١٦٥

(3)نهج البلاغة / ص 494

و لكن ترك هذه الواجبات تؤدي الى عواقب وخيمة ، لا تقاس اخطارها العظيمة ببعض الصعوبة التي تكتنف العمل بها . قال الامام أمير المؤمنين (عليه السلام: (

"لا تتركوا الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فيولى عليكم اشراركم ، ثم تدعون فلا يستجاب لكم "](1)إن ذلك من عزم الأمور[

التي يضبط بها الانسان الحياة الشخصية و الاجتماعية معا . و يحتمل ان يكون معنى "عزم الأمور " الأمور التي تحتاج الى عزيمة راسخة ، و ارادة قوية ، و هي مما عزم الله و فرضه علينا ، و يبدو ان كلمة

" ذلك " تشير الى كل الأوامر التي سبقت.

[18]الشكر لله يعني الإعتراف بان ما لدى الانسان من حول و قوة فمن الله ، فبماذا يفتخر ؟ !و لماذا يتحدى الناس و يتعالى عليهم ؟!

]و لا تصعر خدك للناس[

تحديا بهدف إثارة العداوة و البغضاء ، لأن الميل بالخد مثال للتحدي و الاستعلاء على الآخرين ، و ذلك مما يزيد الأعداء ، بينما ينبغي للانسان السعي لكسب العدد الأكبر من الأصدقاء.

]و لا تمش في الأرض مرحا[

متفاخرا.

فقد روى عن رسول الله (صلى الله عليه و آله: (

(1)نور الثقلين / ص 422

من مشى على الارض اختيالا لعنه الارض ومن تحتها ومن فوقها " (١)و نهى ان يختال الرجل في مشيته و قال:

"من لبس ثوبا فاختال فيه خسف الله به في سعير جهنم ، و كان قرين قارون ، لأنــه أول من اختال فخسف الله به و بداره الأرض ، و من اختال فقد نازع الله في جبروته " (٢)[إن الله لا يحب كل مختال فخور[

يختال بنفسه و يفتخر بماله ، و ذلك نوع من الشرك ، و في الحديث القدسي عن الله عز و جل:

"العظمة ردائي ، و الكبرياء إزاري فمن نازعني فيهما قصمته "[١٩] [و اقصد في مشيك[

و كلمة القصد هنا تعني تحديد الهدف ، و لا يصح من العاقل ان يمشي بلا هدف ، كما تعني الاقتصاد أيضا ، و لا شك ان من يمشي على بصيرة و لهدف معين لن يحتاج الى صرف المزيد من الطاقات التي لا داعي لها ، فلو افترضنا ان سيارة تحركت باتجاه معلوم فان مقدار الوقود الذي ستصرفه سيكون اقتصاديا متناسبا مع الهدف ، اما لو تحركت سيارة أخرى تريد هدفا غير محدد أو من دون هدف فستبقى تحرق الوقود من غير نهاية ، و ليس ثمة شك في ان حركة الانسان دليل على نفسيته.

]و اغضض من صوتك[

(1)المصدر / ص ٢٠٧

(2)المصدر

لان الهدوء دليل العقل بينما الصراخ خلافه ، و الكثير انما يعلي صوته و يكثر من الدعايات ليصنع الظروف التي تجبر الناس بشكل من الأشكال على تقبل أفكاره ، و الصحيح ان يقبل الآخرون الافكار لمحتواها لا لوسائلها ، اذن فلا داعي للصراخ ، و انما يحتاج الى الصراخ صاحب الفكرة الخاطئة ، ليعوض الفراغ في المحتوى.

]إن أنكر الاصوات لصوت الحمير[

لأنه يزيد الآخرين نفورا من صاحبه.

و جاء في السنة عن الامام الصادق عليه السلام قال (في تفسير هذه الآية: (

"و هي المرتفعة القبيحة ، و الرجل يرفع صوته بالحديث رفعا قبيحا إلا أن يكون داعيا أو يقرأ القرآن "
(1)(1)المصدر / ص ٢٠٨

لماذا سخر الله الخليقة للانسان

هدى من الآيات

بعد ان يذكرنا الله سبحانه هنا بنعمه التي أسبغها علينا يستأدينا الشكر عليها ، و يذكرنا بأن من الناس من يأكل رزق الله ، و يعبد غيره ، لأنهم لا يتبعون حجة حقيقية ، و لا بصيرة سليمة ، فلا علما ، و لا هدى و لا كتابا منيرا ، بل يتبعون آباءهم دون ان يعرفوا بأنهم ايضا يتأثرون بعوامل الغواية و الانحراف ، فالشيطان الذي يضل الأولاد هو نفسه الذي يضل الآباء و لا تصبح الضلالة هدى إذا اتبعها الآباء.

ثم تبين الآيات بان الشكر الحقيقي هو التسليم المطلق لله تعالى ، لأن الهدف الأسمى من نعم الله هو أن يعبد الانسان ربه : " و ما خلقت الجن و الانس الا ليعبدون " و ان تكون علاقته بالناس من خلال هذه النعم هي الاحسان و العطاء ، و هذا ما تؤكده هذه السورة الكريمة ، و اذا ما توفرت هاتان الصفتان في البشر فقد استمسك بالعروة الوثقى التي لا تنفصم.

اما الكفار فان كفرهم يعود اليهم بالضرر العظيم حيث يخبرهم الله بعد عودتهم اليه بما عملوا من ظاهر العمل و نياتهم ، أوليس ربنا عليما بذات الصدور ؟!

و على المؤمن الا يحزن عليهم لأن متعة هؤلاء في الدنيا قليلة و عذابهم في الآخرة غليظ.

و يذكرنا السياق بأسماء ربنا لنزداد إيمانا و شكرا ، و يبين عشرة من اسماء الله سبحانه بشواهدها الظاهرة و أولها : أنه الخالق لما في السموات و الارض ، و ان الحمد كله له بالرغم من أن اكثرهم لا يعلمون.

الثاني : انه سبحانه الغني . اوليس يملك ما في السموات و الارض ، و الثالث : انه الحميد في غناه.

و الرابع و الخامس : أنه - تعالى اسمه - عزيز حكيم و شواهد عزته ، و كلمات حكمته لا تحصى ، حتى ولو كانت الاشجار أقلاما و البحار مدادا.

و في الدرس القادم يذكرنا السياق بان ربنا هو السميع العليم ، و انه هو الخبير و العلي الكبير.

بينات من الآيات

[20]تحيط بالبشر حقائق لو استوعبها وعيه أوتي الحكمة و اهتدى الى السبيل.

و لكن يعيش و يموت أكثر الناس في ضلال . لماذا ؟

لان بينهم و بينها حجب متراكمة ، و إنما القرآن هدى لأنه يثير العقل ، و يرفع الحجب ، فاذا بالقلب المحدود ينفتح على الآفاق الرحيبة.

حقا ما أبعد غور العلم عند المؤمن الذي ينظر الى الخليقة من دون حجاب ، و بفؤاد فارغ من العقد و الأوهام و التمنيات ، فاذا أبصر البدوي الموغل في الصحراء مع سفينته التي يحبها و يرتل لها الاشعار على نغم الحدي فاذا بينه و بين إبله اكثر من مجرد صلة مادية.

هنالك يقول المؤمن : ما شاء الله كيف سخر هذا الحيوان الصبور للبشر ، و جعل أفضل عابر للرمال المتحركة و الصحاري القفر.

و اذا رأى رجلا شجاعا يمتطي ظهر جواده في المعركة ، فاذا بالجواد يستجيب لاشاراته الخاطفة و كأنه جهاز الكتروني حساس ، هنالك يقول : الله اكبر كيف سخر الله لنا هذا الحيوان الذكي ، و ما كنا عليه بقادرين.

و حيـــن يجتاز البشر أعمدة القرون و يمتطي صهوة الطائرات الأسرع من الصوت ، و الصواريخ الفضائية ذات الوقود الذري ، يقول المؤمن بذات النبرة سبحان الله الذي سخر لنا هذا و ما كنا له مقرنين.

ان من سخر لنا الابل و الجواد هو الذي سخر لنا الحديد و الذرة ، و علمنا كيف نصنع من خردة حديد ، و بضع كيلوات من مادة متفجرة صواريخ مدارية.

ان مثل المؤمن مثل الفنان الذي يقف أمام لوحة بارعة الجمال فتغمر قلبه الحساس موجـــات من الاعجاب و الرضا و الانشراح ، بينما الكافر كالاعمى لا تزيده اللوحة إلا ظلاما.

أغلب الناس ينشرحون اذا زاروا لاول مرة مزرعة للورود ، أو حقولا خضراء منبسطة على امتداد البصر ، أو شاهدوا مصنعا عظيما أو انجازا علميا باهرا ، و لكنهم يعودون بعد لحظات محدودة الى واقعهم الاول فتشغل قلوبهم الهموم ، و يغرقون فيبحر المشاكل الحياتية . اليس كذلك ؟

بينما المؤمن يرى كل شيء و كأنه ينظر اليه لأول مرة ، فاحساسه المرهف يجعله أبدا كالقائد العسكري الذي يستعرض جيشه اللجب في يوم عيد ، كذلك المؤمن ينظر الى الطبيعة من حوله و قد سخرت له كما ينظر ذلك القائده الى جنده العظيم ، انه يعيش أبدا كما لو ولد الآن أو جاء من كوكب بعيد ، قلبه بريء ، و نظراته عميقة ، و فطرته نقية.

أرأيت الذي يزور - لاول مرة - حديقة الحيوان في لندن أو معرضا الكترونيا في باريس ، أو مصنعا عظيما في اليابان ، أو ناطحة سحاب في شيكاغو أو مترو موسكو ، أو اهرام مصر ؟

هكذا حال المؤمن أبدا في الحياة بينما غيره يشبه الذي يزور غرفة نومه لا يرى فيها جديدا.

و السؤال : ما الفرق بينهما ؟

الجواب : أولا : قلب المؤمن صاف بينما الناس يعيشون هموما كثيرة ، كما أن أكثرهم يعيش العقد و السلبيات.

ثانيا :المؤمن يعلم ان كل شيء قائم بالله ، و لو لا فضل الله المتوالي ، و عطاءه المستمر ، و تدبيره و سلطانه لما قام شيء ، و لا بقيت نعمة ، و لا دام نظام ، لذلك فهو يتعامل مع الأشياء و كأنها جديدة و مثله في هذا التعامل مثل من يعطيه الملك كل يوم مأةدرهم من دون استحقاق و هو يعيش عليها ، و انه متى ما شاء منعه منه في أي يوم ، فتراه يستلم كل يوم عطاءه بوجد و فرح ، و لعل هذا الاحساس هو مصدر الشكر عند المؤمن فاذا به يسبح ربه بكرة و عشيا ، و في المساء و عند الظهيرة ، لاناستمرار وجوده أساسا عند هذه الساعات نعمة . أوليس هناك البعض الذي عاش صباحا و كان عند المساء تحت التراب ، أو أمسى حيا و لكنه حرم رؤية الشمس في اليوم التالي و الى الأبد.

ان المؤمن يملك من الثقة برحمة الله ما يجعله قادرا على التخطيط المستقبلي ، و لكنه في الوقت ذاته ينظر الى الخليقة نظرة بعيدة عن الجمود و التحجر ، فيخشى زوال النعم في اية لحظة ، و يسعى أبدا لابقائها ، و قلبه بذلك يعيش طريا نظيرا و جديدا ، و هكذا يعيشالمؤمن بين الخوف و الرجاء و كذلك وصى لقمان ابنه قائلا له:

"يا بني ! خف الله عز و جل خوفا لو أتيت القيامة ببر الثقلين خفت ان يعذبك ، و ارج الله رجاء لو وافيت

القيامة باثم الثقلين رجوت ان يغفر الله لك "" فقال له ابنه : يا ابة ! كيف اطيق هذا ولي قلب واحد ؟ "" فقال له لقمان : يا بني لو استخرج قلب المؤمن يوجد فيه نوران ، نور للخوف و نور للرجاء ، لو وزنا لما رجح أحدهما على الآخر بمثقال ذرة. "

"ثم قال له : يا بني ! لا تركن الى الدنيا ولا تشغل قلبك بها ، فما خلق الله خلقا هو أهون عليه منها ، الا ترى انه لم يجعل نعيمها ثواب المطيعين ، و لم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين ؟! " (١)ثالثا : ترى أغلب الناس يلبسون نظارات مختلفة الألوان ، و ينظرون من خلالها الى الاشياء ، فلا يرونها على حقيقتها . ان الثقافات البشرية و التفسيرات المادية التي تبث الى القلوب هي بمثابة عدسات ملونة لا تدع نور الحقائق يغمر القلب.

(1)نور الثقلين / ج ٤ -ص ١٩٩

بينما نظرات المؤمن مباشرة لا تمر بقنوات التفسيرات المادية . انه ينظر ببراءة الطفل الى الحقائق ، و لذلك فان نظراته نافذة الى العمق ، فاذا نظر الى حركة الفلك و ما في السموات و الارض من نعم نفذت بصيرته الى الخالق الذي سخرها للانسان.

و انما يبلغ المؤمن هذه الدرجات بالقرآن . أنظر الى التعبير القرآني هنا و كيف يجعلنا نرى الخليقة بواقعية :

]ألم تروا ان الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض]انها رؤية مباشرة ، و بلا عقد ، و لا جمود ، و لا نظارات من الثقافات الجاهلية.

ثم يقول:

]و أسبغ عليكم[

كما يسبغ المقاتل على نفسه درعه المتناسب مع جسمه ، أو يسبغ الواحد منا ثيابه المقــدرة له على جسده ، و هكذا النعم تحيط بنا و لكن بقدر و دون زيادة مضرة أو نقصان.

]نعمه ظاهرة[

كنعمة الحياة ، و نعمة العافية ، و نعمة الأمن ، و نعمة الطعام.

]و باطنه[

كنعمة الاعضاء التي لا ترى (القلب و الكبد و الكلية و الاعصاب و .. و ..) و نعمة الوقاية من انواع المكاره و الاخطار ، و نعمة الهداية الى الحق ، و ولاية أئمة الهدى عليهم السلام.

و هناك حديث مفصل يتلو علينا نعم الرب ، و قد رأينا اثباته هنا لأن هذه السورة هــي سورة الشكر فيما يبدو لنا ، و علينا ان نربي قلوبنا عليه أوليس الشكر أساس الحكمة ؟!

الحديث مأثور عن الامام الباقر (ع) انه قال:

"حدثني عبد الله بن عباس ، و جابر بن عبد الله الانصاري قالوا : أتينا رسول الله (ص) في مسجده في رهط من أصحابه فيهم أبو بكر و أبو عبيدة و عمر و عثمان و عبد الرحمن و رجلان من قراء الصحابة - الى قوله حاكيا عن رسول الله (ص) - و قد أوحى الي ربي جلو تعالى ان أذكركم بالنعمة و أنذركم بما اقتص عليكم من كتابه و أملى " و اسبغ عليكم نعمه " الآية ثم قال لهم : قولوا الآن قولكم ، ما أول نعمة

رغبكم الله و بلاكم بها ؟ فخاض القوم جميعا ، فذكروا نعم االله التي أنعم عليهم ، و احسن اليهم بها من المعاش و الرياش و الذرية و الازواج الى سائر ما بلاهم الله عز و جل من أنعمه الظاهرة ، فلما أمسك القوم أقبل رسول الله (ص) على علي (ع) فقال : يا أبا الحسن قل فقد قال اصحابك ، فقال : و كيف بالقول فداك أبي و أمي و انما هدانا الله بك ! قال : و مع ذلك فهات قل ما أول نعمة ابلاك الله عز و جل و انعم عليك بها ؟ قال : ان خلقني جل ثناءه و لم اك شيئا مذكورا ، قال : صدقت ، فما الثانية ؟ قال : ان أحسن بي اذ خلقني فجعلني حيا لا مواتا ، قال : صدقت ، فما الثالثة ؟ قال : ان أنشأني - فله الحمد - في أحسن صورة ، و أعدل تركيب ، قال : صدقت ، فما الرابعة ؟ قال : ان جعلني متفكرا ، راعيا ، لا بلها ساهيا ، قال : صدقت ، فما الخامسة ؟ قال : ان جعل لي سرا عن ادراك (١) ما ابتغيت بها ، و جعل لي سراجا منيرا ، قال:

(1)كذا في النسخ و لا تخلو عن التصحيف و في البحار / ج٧٠ -ص ٢١ قال " : ان جعل لي شواعر ادرك ما ابتغيت .. " الحديث.

صدقت ، فما السادسة ؟ قال : ان هداني الله لدينه ، و لم يضلني عن سبيله ، قال : صدقت ، فما السابعة ؟ قال : ان جعل لي مردا في حياة لا انقطاع لها ، قال : صدقت ، فما الثامنة ؟ قال : ان جعلني ملكا مالكا لا مملوكا ، قال : صدقت ، فما التاسعة ؟ قال : ان سخر لي سماءه و ارضه و ما فيهما وما بينهما من خلقه ، قال : صدقت ، فما العاشرة ؟ قال : ان جعلنا سبحانه ذكرانا قواما على حلائلنا لا إناثا ، قال : صدقت فما بعدها ؟ قال : كثرت نعم الله يـــا نبي الله فطابت " و ان تعدوا نعمة الله لا تحصوها " فتبسم رسولالله (ص) و قال : ليهنئك الحكمة ليهنئك العلم يا أبا الحسن فأنت وارث علمي و المبين لامتي ما اختلفت فيه من بعدي ، من أحبك لدينك و أخذ بسبيلك فهو ممن هدي الى صراط مستقيم ، و من رغب عن هواك و ابغضك و تخلاك (١) لقى الله يوم القيامة لا خلاق له " (٢(

و يبقى سؤال : لماذا سخر الله كل ذلك للانسان ؟ هل بقوته المادية ؟ كلا .. لأن السموات و الارض و الجبال أقوى منه.

أم بقوة سمعه ؟ كلا .. لأن الكلب أفضل سمعا منه.

ام لحدة نظره ؟ فالصقر أحد نظرا منه.

كلا ..ان قوة الانسان التي جعلها الله يسخر بها ما في السموات و الارض ، تكمن في العقل و العلم الذي أنعم به الله عليه ، فلماذا اذن نترك العلم الذي يهدينا الى عبادة الله ، و نتبع الجهل الذي يقودنا الى غيره ؟!

ان الانسان مطالب بتلك الصفة التي جعله الله بها يسير المخلوقات بان يكون سيد العابدين ، إلا ان هناك حجبا تستر عنه نور العقل من بينها:

(1)تخلاه و منه و عنه :تركه

(2)نور الثقلين / ج ٤ ، ص ٢١٣ - ٢١٤

- 1الجدال : و هو من الناحية اللغوية يعني اللف و الدوران ، و في الاصطلاح :هو الكلام بهدف التهرب من الحقيقة ، و المجادل هو الذي يرى الحقيقة و لكنه لا يريد الخضوع لها.

]و من الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير]حتى يبلغ الانسان للحقيقة يجب ان يتبع احد الطرق الثلاث:

أ - ان يتبــع علما كما لو كان يرى مصباحا أمامه ، و هذا هو العلم بالشيء مفصلا.

ب - ان يتبع الهدى و مثال ذلك ان يهتدي لوجود المصباح عبر رؤية النور المنبعث منه ، و هذا ما يسمي بالعلم المجمل.

ج -ان يتبع الكتاب المنير ، و هو معرفة الحقائق بالواسطة ، كما لو أخبر انسان آخر بوجود المصباح في مكان ما ، و كان ذلك الانسان مورد ثقة ، أو أخبره كتاب صدق ، و لأن هؤلاء المجادلين لا يتبعون هذه السبل السليمة فانهم لا يهتدون للحقيقة.

- 2 [21]تقديس الآباء : حيث يترك الانسان الهدى لأنه يتعارض مع اعتقادات آبائه ، و يعالج القرآن هذه العقدة النفسية التي تمنع عن الهدى و ذلك ببيان واقع اتباع الآباء ، و انه ليس بدافع صالح كما يصوره الشيطان ، حيث يوحى الى اوليائه ان تقديس الآباء نوع من الوفاء لهم ، و اداء لحقهم . كلا .. ان اتباعه ليس سوى ضلالة.

]وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه ءاباءنا]و الملاحظ ان الاجيال اللاحقة تتبع الجوانب السلبية في تراث الاولين ، و القرآن يخالف المقاييس الجاهلية في تقييم الأشياء ، لان الانسان الذي يتميز بالعقل ينبغي له ان يتبع المقاييس الصحيحة ، وهي العلم أو الهدى او الكتاب و يستنكر عليهم ذلك قائلا:

]أولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير[

فهل تذهب مع الآباء حتى لو كانت طريقتهم تنتهي الى النار ؟

[22]قد يشعر الانسان بنعم الله عليه ، و من ثم يرى نفسه مسؤولا عن أداء الشكر له عليها ، و لكن يقف متسائلا : كيف يمكن لي ذلك ؟ و نجيبه عد الى القرآن و اقرأ:

]و من يسلم وجهه الى الله وهو محسن[

بان يخضع له خضوعا مطلقا ، و بكل ما يملكه من الطاقات المادية و المعنوية ، و لكن اي خضوع ذلك الذي تدعو الآية الانسان اليه هل هو الخضوع الذي يدعوه الى السكون و الخمول ؟

بالطبع كلا .. انما تدعو الى ذلك الخضوع المليء بالنشاط و الحركة فصاحبه من جانب يتوجه الى الله بكله ، و من جانب آخر يتفجر إحسانا و عطاء لعباد الله في سبيله.

و اذا وصل الانسان الى هذه الدرجة من الكمال ، بأن تصبح علاقته مع اللهعلاقة تسليم و خضوع ، و مع الناس علاقة إحسان و عطاء.

] -1فقد استمسك بالعروة الوثقى و الى الله عاقبة الأمور]فمن جانب يكون هذا الانسان قد تمسك بخط واضح و سليم في الدنيا فحظى بالسعادة ، و من جانب آخر فانه سيرجع الى الله ليجازيه على شكره بتسليمه له و احسانه للعباد.

و لعل تأكيد القرآن في آيات عديدة بان التسليم لله هو التمسك بحبله المتين ، و بالعروة الوثقى يهدف الى علاج عقدة مستعصية عند البشر هي عقدة الخوف من المخلوقات ، هذا الخوف الذ يدفعه نحو الخضوع للمخلوقين و الشرك بالله العظيم ، بينما الرب يؤكد بأن من يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ، و انه لا امان للانسان الا بالتوحيد الخالص.

التسليم لله - في الواقع - لا يتحقق من دون التسليم للقيادة الشرعية المتمثلة في أئمة الهدى ، و الرضا بولاية من أمر الله بولايتهم.

] [23]و من كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا]و مادام الأمر كذلك فلماذا يحزن الانسان نفسه ، هل لان الآخرين على خطأ ؟! و اذ ينهى الله عن هذا الحزن فلأن المؤمن لو ادام حزنه على كفر الكفار فلربما يجره هذا الحزن شيئا فشيئا الى طريقهم المنحرف ، فلكي لا يقع المؤمن في خطأ فظيع كهذا يوجهه الله الى ضرورة تجنب الانفعال النفسي كما يفعله الآخرون.

]إن الله عليم بذات الصدور [

فلا تخفى عليه خافية ، و انما خصص بالذكر " الصدور " بالذات لأن عمل الانسان يخضع الى مقياسين:

الاول : مقياس ظاهري مثل كثرة العمل و قلته ، و عظمته و حقارته.

الثاني : مقياس باطني ، و هو نية العمل.

و إذا زعم الانسان أنه قادر على خداع الناس بظاهر عمله ، فلا يظن بأنه يخفي عن ربه شيئا و هو العليم بذات الصدور.

[24]بلى . هناك بعض المكاسب الظاهرة لمثل هؤلاء ، و لكنهم هم الخاسرون أخيرا لأن عاقبتهم النار.

]نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ[

[25]يتلو علينا القرآن عشرة اسماء لربنا الكريم ، و ببلاغة نافذة يستثير الذكر وجدان البشر بذكر الآيات التي تشهد على تلك الأسماء الحسنى.

و لعل مناسبة الحديث عنها التذكرة بمفردات الشكر . أوليس بداية الشكر معرفة المنعم ؟ و كيف نعرف الله أوليس باسمائه ؟!

على ان القرآن ذاته تذكرة بالله ، و يهدف ترسيخ دعائم الايمان في القلب ، بيد انــه بالاضافــة الى هذا الهدف العام هنالك حكمة خاصة وراء كل ذكر لله و لاسمائه و آياته ، تتعلق بالموضوعية الخاصة ، مثلا : هنا يجري الحديث عن الشكر ، و لابد ان يجري حديث عنصاحب النعمة ، لأن الشكر لا معنى له من دون معرفة من نشكره ، و هكذا كل الحقائق تتصل مباشرة بمعرفة الله و أول اسمائه تكشف عن أعظم نعمة علينا و هو الخلق.

]و لئن سألتهم من خلق السموات و الارض ليقولن الله]انها الفطرة التي يشترك الناس فيها ، و حتى المشركون يعترفون بان الله خالق كل شيء الا انهم يخشون غيره ، و يشركون به لجهلهم بان الله الفعال لما يريد.

و مادام الجميع يعترفون بأن نعمة الخلق و هي أصل سائر النعم من الله فالحمد كله لله ، و علينا ان نحمده بكل معاني الحمد.

]قل الحمد لله[

و لعلنا نستوحي من هذا السياق ان الحمد بداية الشكر ، و أول كلمة في القرآن بعد البسملة هو الحمد ، لقد كان النبيون و الأئمة و الصديقون يفتتحون حديثهم بحمد الله و الثناء عليه.

]بل أكثرهم لا يعلمون[

فهـــم يحمدون المربوبين و لا يعلمون ان الحمد كله لله . أوليست النعم جميعا منه ؟! أوليس الناس انما

يعملون الحسنات بحوله و قوته ، فان استحقوا حمدا فبما خولهم من نعمه ؟!

و يبقــى السؤال : لماذا يكفرون بالله و هم يزعمون بانه خالق السموات و الارض ؟

ان هذا التناقض نابع من ذات البشر ، و سبحان الله ان يكون مصدرا لهذا التناقض ، فله الحمد في السموات و الارض ، و من له الحمد ليس ناقصا البتة . كلا .. فآياته مبثوثة في الأنفس و الآفاق ، فلا ينكره من ينكر لقلة الآيات ، و لا حجة لهم عليه فقد أركز في افئدتهم معرفته بالفطرة.

بلى . ان جهلهم الذاتي ، و ظلمهم ، و تراكم العقد النفسية على قلوبهم هو مصدر التناقض بين اعترافهم بالخالق و بين عدم شكرهم له.

[26]لان الله هو الخالق فهو المالك و من هو أعظم ملكا ممن خلق و لا يزال يتصرف في خلقه بما يشاء ، دون ان يساله أحد عما يفعل.

]لله ما في السموات و الارض [

فهو المالك الحق ، اما الناس فانهم إنما يملكون الشيء بقدر تمليكه وفي حدود منحهم صلاحية التصرف تكوينا و تشريعا.

]إن الله هو الغني الحميد[

و من الناس من يملك - بحول الله و قوته - ملكية محدودة فيسيء التصرف فيه فهو غني غير حميد ، بينما الله حميد في غناه لأنه يفعل الخير وما يستوجب الحمد و الشكر.

و المــلاحظ : ان خاتمة الآية تكريس لفكرتها ، كما ان فاتحتها شاهدة على خاتمتها . فان من يملك السموات و الارض هو الغني لأنه المالك لهما ، وهو الحميد لأن كل النعم مصدرها السموات و الارض ظاهرا ، فلنحمد خالقهما بدل ان نحمد من يملك جزء منهما.

[27]و ربنا العزيز المقتدر ، لأنه السلطان القاهر فوق عباده ، المهيمن على حركة السموات و الارض ، و القائم بنظامهما ، و تصدر كلماته النافذة (كن فيكون (بما لا تحصى عددا في كل ساعة و لحظة و يهبط قضاءه الحتم في كل حدث صغير أو كبير ، حتى الورقة الواحدة التي تسقط في غابة كثيفة ايام الخريف انما

تسقط بعلم الله و أمره و كلمته ، و ما تزداد الارحام وما تغيظ انما هو بعلم الله و قضائه و امضائه ، و حركة جزئيات الذرة داخل عالمها الصغير العظيم ، و مكونات الخلية المتواضعة و العظيمة ، و خلجات الفكر ، و نبضات الاعصاب و ..و..

و هذه هي العزة . أوليست العزة هي تجليات القدرة ، و تطبيقات المالكية ؟!

ان التصوير القرآني للعزة الالهية بالغ الروعة ، و رائع البلاغة ، و لعمري ان هذا التصوير ذاته تجل لعزته بما يحمل من شواهد تطبيق القدرة ، و تجليات تحقيق الهيمنة في عالم الكلمة المقروءة.

تدبر في هذه الكلمات و فكر . أليس الأمر كذلك ؟!

]و لو انما في الارض من شجرة أقلام[

لا تحضرني الآن احصائية تقريبية لعدد اشجار الأرض المنتشرة في الغابات الكثيفة و الحقول الواسعة في أنحاء الأرض ، و لكن لاريب انها هائلة العدد ، و اذا عرفنا ان الشجرة الواحدة تصبح مئات الألوف مــن

الأقلام ، و ان القلم لا يستهلك بسهولة عند الكتابة ، لعرفنا ماذا تعني هذه الاقلام من العدد.

]و البحر يمده[

اي تكون بحار الارض التي تتصل ببعضها حتى تصبح بحرا واحدا تغمس فيه تلك الاقلام ثم يكتب ببللة مدادا.

]من بعده سبعة أبحار[

و السبعة تعبير عن الكثرة ، و السؤال اذا كانت ثلاثة ارباع الكرة مغطاة بالبحار التي سماها الرب بحرا واحدا فكم هي سعة الابحر السبعة الاخرى ؟!

]ما نفدت كلمات الله[

و كيف تنفذ كلمات الله التي لا تحصى ، و التصوير القرآني أهمل ذكر الدفاتر لعله لان أفق تفكيرنا يعجز عن تصور القرطاس الذي يمكنه ان يستوعب ما يمده البحر ، و يكتبه هذا العدد الضخم من الاعداد ، اليس كذلك ؟!

]ان الله عزيز[

و كيف لا يكون عزيزا من لا يستوعب ذلك الحشد من الاقلام كلماته (أو قضاؤه و امضاؤه. (

و قد ذهب بعض المفسرين الى ان معنى الكلمات العلوم ، و الواقع ان علم الله ليس مما يخضع للاحصاء فانه قديم لا يعزب عنه مثقال ذرة ، و لكن المعلومات هي التي تعد و الكلمات هي المعلومات.

و خاتمة الآية تشهد بالتفسير الذي اخترناه للكلمات.

]حكيم[

فعزة الله المتجلية في سلطانه ، و سعة أبعاد قضائه و امضائه تتصف بالحكمة ، حيث انه سبحانه يحكم بالعدل و يقضي بالحق ، و لا يتخذ من لدنه لعبا و لا لهوا ، بل لكل كلمة يلقيها هدف معلوم ، و أجل مسمى.

ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور

هدى من الآيات

هل ان الأصل في الحياة الكمال أم النقص ؟ العدم أم الوجود ؟ فاذا كان الأصل هو الكمال ، فان كل نقص يطرأ على الكون يخالف انتظارنا و توقفنا ، و اذا كان العكس ، فان من واجبنا الشكر لله على كل اضافة جديدة.

حسبنا عودة الى الوراء توضح لنا الامر ، حيث اننا لم نكن شيئا مذكورا بالامس ، و ان الكمالات قد أضيفت لنا شيئا فشيئا ، فصرنا الى القوة بعد الضعف بقدرة الله ، و بعد الجهل الى المعرفة برحمته.

هكـــذا كان العدم مهيمنا علينا من كل جانب و صوب ، فمن علينا ربنا بنعمة الخلق ، و أسبغ علينا من نعمه الظاهرة و الباطنة ، حتى ان كل ذرات كياننا المادي و المعنوي هي نعم إلهية علينا ، فلماذا نكفر و نتكبر و نطغى و نحن نعلم بأن هذه النعم لن تكون الا الى فترة يسيرة ، و انها عرضية تزول عندما يقرر الانسان ان لا يشكر ربهعليها ، أو حينما يكتب الله لها الزوال.

و يتجلى الفرق بين الانسان الذي يتصور بان الكمال هو الأصل في ذاته ، و بين الآخر الذي يعرف انه لم يكن شيئا ، انما خلقه الله شيئا ثم اضاف اليه من نعمه ، يتجلى الفرق في الصفات بين الصبار الشكور و

الختار الكفور ، لأن كلا هذين الموقفين منطلق من إحدى النظرتين السابقتين ، فمن يتصور بأن الاصل هو الكمال لا يرى ضرورة للشكر أو الصبر ، لأنه سيعتبر ذهاب النعمة من بين يديه شذوذا لا يطاق ، بينما يشكر الآخر - الذي يعتقد بان الاصل هو النقص و العدم - عند النعم ، و يستفيد منها في تكامله ، و يصبر عند البلاء لأنهيعتبر النعمة حينذاك أمانة استرجعها الله ، و هذا الايمان يجعله يحير في مهرجان الرضا بقضاء الله و التسليم بقدره ، أما الكفور فاذا مسه الخير تراه منوعا ، أما اذا مسه الشر فهو جزوع ، يدفعه شعوره الدائم بالنقص) الحقارة) الى التفتيش عن إضافات توصله الى الكمال ، دون التفكير في الوسيلة السليمة و دون معرفة.

و من أجل ان نخلق في أنفسنا صفة الصبر و الشكر ، يدعونا القرآن الى التفكر في أنفسنا في الكون ، بحثا عن الحقيقة العظمى فيه ، و هي معرفة الله ، و الانسان غالبا ما يفكر في مخلوقات الله بذاتها ، دون ان يقوده تفكره فيها الى معرفة ربه و هذا منهج خاطئ ، والقرآن الكريم يوسع أفقنا و يأخذ بأذهاننا الى ما وراء الحياة الدنيا ، و يعطي لنا منهجا ينتهي في كل اتجاه الى معرفة الله ، ذلك ان هذه المعرفة تعطي الانسان نظرة سليمة الى هذه الحياة ، في سرائها و ضرائها ، و في ظاهرها و باطنها.

بينات من الآيات

[28]و يمضي السياق قدما في تذكرة المؤمنين بأسماء ربهم و إتمام الحجة على الناس جميعا ، و يبين لهم جانبا من قدرة الله ، بعد ان صور لهم جانبا من عزتهو حكمته ، و ذلك ببلاغة نافذة ، أرأيت كيف هدانا الى عظيم عزته بأن كلماته لا تحصى ؟ هكذا يهدينا الى قدرته و لطف تدبيره بأنه يخلق الناس جميعا كما لو يخلق نفسا واحدة ، ثم يبعثهم كما لو يبعث نفسا واحدة . أرأيت كيف يقرب الينا حقيقة قدرته و لطفه و احاطته بالاشياء خبرا!

]ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة[

ثم يذكرنا بضرورة خشيته و يقول:

]إن الله سميع بصير[

يسمع ما نقوله ، و يرى ما نصنعه ، و هذا يدعونا الى تحمل مسؤولية كلامنا و أعمالنا.

[29]ان الله جعل الشمس و الارض في حركة دائمة ، من خلالها يحدث الليل و النهار و تتغير الفصول.

]الم تر أن الله يولج الليل في النهار و يولج النهار في الليل]و التعبير القرآني " يولج " دقيق جدا من الناحية العلمية ، اذ يشير الى الحركة الفصلية على مدار السنة ، فاذا ولج الليل في النهار - دخل فيه و أخذ منه - حتى اذا تعادلا صار الربيع ، و هكذا يستمر دخوله في النهار حتى يصير اطول منه فيحيل الفصل شتاءا ، ثم يمتد النهار شيئا فشيئا - يلج في الليل و ينتقص منه - الى ان يصير اطول منه فيكون الفصل صيفا.

و كما أن للانسان و سائر المخلوقات اجلا مسمى ، فان للشمس و القمر اجلا مسمى ، مما يدل على ان الشمس و القمر لم يكونا شيئا في يوم من الايام - تماماكالانسان -و هذا يهدينا الى انهما يجريان الى نقطة الصفر في النهاية ، و الى وجود خطة و تدبير لهما من قبل الله عز و جل.

]و سخر الشمس و القمر كل يجري الى أجل مسمى[

عند الله ، و قد ثبت في العلم الحديث ان الشمس و القمر و سائر الكواكب و النجوم الاخرى في طريقها الى الإنتهاء.

]و أن الله بما تعملون خبير [

[30]ماذا ترى حولك في الخلق ، أولست ترى سماء مبنية بغير عمد ، محبوكة من دو ن اي فطور ، و ارضا مدحية ، و الليل و النهار يختلفان عليها ، و كل شيء فيها بمقدار ، فالى ما تهديك كل تلك الحقائق

؟ أوليس الى رب مقتدر دائم الملك ، دائم القدرة ، لا يحد علمهشيء ، و لا يبلي سلطانه الزمن ، و لا يزيل عزته تنافس ، ولا يمتنع عن قهره أحد - سبحانه - ذلك هو الله الحق ، الثابت بلا تغيير ، الدائم بلا زوال ، المعطي بلا نفاد ، القاهر بلا نصب.

]ذلك بأن الله هو الحق[

اما الآلهة التي تعبد من دون الله فهي الزائلة . أرايت كيف تغيب الشمس ، و يأفل القمر ، و ينفجر النجم ، أو ما تبصر اختلاف الليل و النهار و كيف يبليان كل جديد ، و يقضيان على كل سلطان ؟! فمن أراد ان يتمسك بالعروة الوثقى ، و يعتمد على السند القوي ، و يدخل في حصن منيع فعليه بتوحيد الله الحق.

]و أن ما يدعون من دونه الباطل[

الذي لا ثبات له و لا استمرار.

]و ان الله هو العلي[

الذي تعالى عن صفات المخلوقين ، فلا زوال ولا اضمحلال ، و لا نفاد ولا تحديد ، ولا نقص ولا عجز ، ولا سنة و لا نوم سبحانه.

]الكبير[

قدرته واسعة ، و علمه محيط ، و رحمته شاملة ، و منه قديم ، و فضله عميم ، و آياته في كل أفق ، و شهادته أكبر شهادة . فلا شيء في الحياة الا بتدبير منه سبحانه.

و هناك علاقة بين دعوة الله لنا في اول الآيات الى النظر في الكون ، و دعوته لنا في آخرها الى النظر في سلوكنا ، عندما يخبرنا بأنه محاط بعلم الله ، و تحت سمعه و بصره ، و تتلخص هذه العلاقة في ضرورة انعكاس نظرتنا الى الكون على سلوكنا في الحياة ، كما تسوقنا الآية الى حقيقة التوحيد في هذا الكون ، إذ تهدينا الى أن الرب الذي يولج الليل في النهار ، و الذي سخر الشمس و القمر هو الذي يدبر الانسان و يرعاه ، فيعلم ما يعمل ، و يحاسبه و يجازيه عليه.

] [31]ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله]الفلك هي السفن التي كانت تحركها الرياح ، و ذلك بنعمة الله و رحمته ، اذ بعث هذه الرياح و اجرى السفن التي عبرها جعلت الرياح في خدمة الانسان.

وبما أن الهدف الاسمى من نعم الله على الانسان تكامل روحه و معنوياته ، فقد قال الرب:

]ليريكم من ءاياته[

ان البحار تحتضن عجائب خلق الله من خلية اسفنجية متواضعة الحجم و التطور ، الى الحيتان الضخمة التي تبلغ عين الواحد منها وزن فيل و هو اعظم حيوان بري.

الايمان صبر و شكر:

جاء في الحديث:

"الايمان نصفان ، نصف صبر و نصف شكر " (١)و الــواقع ، ان الشكر و الصبر يشعان من مشكاة واحدة هي التسليم لله و لقضائه ، و الايمان بانه الواهب المتفضل المنان ، بيد ان الشكر هو تجل لهذه الحالة عند النعمــة ، و الصبر تجل لها عند النقمة ، لذلك جاء في الحديث عن الامام الباقر عليه السلام:

"العبـــد بيـن ثلاثة : بلاء و قضاء و نعمة ، فعليه في البلاء من الله الصبر فريضة ، و عليه في القضاء من الله التسليم فريضة ، و عليه في النعمة من الله عز و جل الشكر فريضة " (٢)و لعل أعظم ما في الشكر هو تنمية روح الرضا في النفس بعيدا عن الغرور و الفخر و الكبرياء ، و النفس الراضية تستدر ثواب الله ، و تسعد في الدنيا.

يروي الامام الصادق (عليه السلام) عن الرسول (صلى الله عليه و آله: (

"الطاعم الشاكر له من الأجر مثل أجر الصائم المحتسب ، و المعافى الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابر ، و الغني الشاكر له من الأجر كأجر المحروم(١) المصدر / ص ٢١٧ نقلا عن مجمع البيان ، و لم ينسب الحديث الى احد و الظاهر انه عن رسول الله (صلى الله عليه و آله. (

(2)موسوعة بحار الانوار / ج ٧١ - ص ٤٣

القانع " (١(

و لعل الحكمة في ذلك ان الشكر يزيد في الايمان بالله ، و بانه المتفضل المنان ، و يمنع عن صاحبه الغرور ، و يدفعه نحو الإلتزام بواجبات النعمة.

هذا عن ثواب الله أما عن سعادة القلب فان اعظم ما في النعم تحقيق طموحات النفس ، أما لذة الجسد فانها تتلاشى بسرعة و هي لا تمنح البشر سعادة . أرأيت لو حكم بالإعدام على شخص ثم أوتي أفضل انواع الطعام ، و هيئت له اللذة الجنسية مع اجمل بنات العالم ، فهل يهنئ بذلك ؟! كلا..

كذلك لو كان القلق النفسي يؤرق الفرد لا يهنئ بلذة جسدية مهما كانت عارمة و متنوعة ، ذلك ان المهم هو سعادة القلب و رضاه.

فمن كان ينتظر مليون دولار ربحا اذا حصل على نصف مليون تراه آسفا ، أما اذا لم ينتظر شخص ربحا فربح نصف دولار فانه يعيش الفرح ، كذلك لو تمنى شخص الرئاسة في بلد فقدر له منصب نائب الرئيس لم يتحسس بالسعادة بقدر من لم يطمع في منصب صغير فحصل عليه.

و هكذا الشاكر لأنعم الله يتحسس بالنعم ، و يعرف أنه لم يكن يستحقها إلا بفضل الله ، فهو كمن لا ينتظر اي مكسب بل ينتظر خسارة فيأتيه الربح ، كأنك تراه يسعد به أنى كان ضئيلا.

دعنا نقرأ حديثين يؤكدان هذه الفكرة الهامة التي أعتبرها مفتاحا هاما للإحساس بالسعادة دائما.

(1)المصدر / ص ٤١

يقول محمد بن خلاد : سمعت أبا الحسن صلوات الله عليه يقول:

"من حمد الله على النعمة فقد شكره ، و كان الحمد أفضل من تلك النعمة " (١)و يقول مالك بن اعين الجهني : اوصى علي بن الحسين (عليه السلام) بعض ولده فقال:

"يا بني ! اشكر الله لمن أنعم عليك ، و أنعم على من شكرك ، فانه لا زوال للنعمة إذا شكرت ، ولا بقاء لها اذا كفرت و الشاكر بشكره أسعد منه بالنعمة التي وجب عليه الشكر بها ، و قرأ علي بن الحسين : و اذ تأذن ربكم لأن شكرتم لأزيدنكم " (٢)و يكفي المؤمن دافعا الى الشكر انه ينظر الى البلاء ينزل على الناس وهو معافى عنه ، و يقول في نفسه : ماذا لو قدر الله علي هذا البلاء ، فيتلألأ قلبه نورا و شكرا.

هكذا اجاب الأمام أمير المؤمنين رجلا سأله : بماذا شكرت نعماء ربك ؟ فقال:

"نظرت الى بلاء قد صرفه عني ، و أبلى به غيري ، فعلمت أنه قد أنعم علي فشكرته " (٣)و كلما رأى المؤمن مبتلى ازداد لربه شكرا على انه لا يزال معافى.

هكذا علمنا ديننا أن نشكر الله حين نرى مبتلى ، و هكذا يقول إمامنا الباقر عليه(١) المصدر / ص ٣١

(2)المصدر / ص ٥٠

(3)المصدر / ص ٤٣

السلام:

تقول ثلاث مرات اذا نظرت الى المبتلى من غير ان تسمعه ، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به ، ولو شاء فعل ، قال : من قال ذلك لم يصبه ذلك البلاء أبدا (1) "و الشكر يقي النفس من الإنزلاق في مهوى الفخر و الغرور ، لأنه يوحي الى النفس ان النعمة ليست ذاتية له بل هي اضافة خارجية ذات عوامل خاصة لابد من المحافظة عليها حتى تستمر ، فالغرور يضحى تواضعا ، و الفخر سعيا ، و الكسل اجتهادا ، وكل ذلك مما يحفظ النعم ويزيدها.

جاء في الحديث : قال الامام الصادق عليه السلام:

"مـــا أنعم الله على عبد نعمة ، فعرفها بقلبه ، و حمد الله ظاهرا بلسانه فتم كلامه ، حتى يؤمر له بالمزيد " (٢)بينما عدم الشكر يورط أصحاب النعم في الجوانب السلبية لها ، بل تتحول النعمة عندهم الى وبال و نقمة.

أرأيت كيف بادت حضارات كانت سائدة . لماذا ؟ لأنها لم تشكر ربها ، بل غرقت في بحر الغرور و التجبر ، و بالتالي عاثت فسادا في الارض فكبت بها أخطاؤها ، و دمرت تدميرا.

من هنا جاء في الحديث الشريف عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال:

(1)المصدر / ص ٤٣

(2)المصدر / ص ٤٠

"ان الله أنعم على قوم بالمواهب فلم يشكروا فصارت عليهم وبالا ، و ابتلى قوما بالمصائب فصبروا فصارت عليهم نعمة " (١)و من أبرز أخطار ترك الشكر أنه ليس فقط يسبب في زوال النعم ، بل و يتحول الى وبال يمنع عودة النعم عادة . مثلا : إذا أنعم الله على عبد فأصبح قائدا ، و أبطره المنصب فأقيل منه لا يعود اليه هذا المنصب بسهولة ، لأن الناس يرفضونه بسبب تجربته الفاشلة في الحكم ، كذلك ينبغي التشبث بالنعم عبر الشكر حتى لا تزول ثم لا تعود أبدا.

قال الامام الصادق عليه السلام حسبما جاء في رواية زيد الشحام:

"أحسنوا جوار النعم ، و احذورا أن ينتقل عنكم إلى غيركم ، أما إنها لم ينتقل عن احد قط فكادت ان ترجع اليه و أضاف عليه السلام قائلا : و كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول : قل ما أدبر شيء فأقبل " (٢)و الذين يشكرون النعم يعرفون أنها قد تكون البداية لسلسة متكاملة من فضل الله ، و هكذا يستدرجونها لأنفسهم بشكرها ، بينما غيرهم يبطرون بها فلا تستكمل النعم عندهم ، فمن حصل على ألف ، و شكر النعمة بالسعي و النشاط ، و أداء حقوق الناس استدرج الألوف ، بينما يبطر بها فهو لا

يحصل على المزيد بل يفقد الموجود.

هكذا يقول الامام أمير المؤمنين (عليه السلام: (

(1)المصدر / ص ٤١

(2)المصدر / ص ٤٧

"اذا وصلت اليكم اطراف النعم ، فلا تنفروا اقصاها بقلة الشكر " (١(

كيف نشكر الله على النعم ؟

هناك عدة وسائل لشكر النعم:

أولا : ينطلق الشاكر من قاعدة الايمان بأن النعم من الله لذلك فان إذعان قلبه بان النعمة من الله عنوان شكره عليها.

قال الامام الصادق عليه السلام:

"من أنعم الله عليه بنعمة ، فعرفها بقلبه فقد أوتي شكرها " (٢)ثانيا : ذكر "الحمد للــه " على لسانه ، هكذا روي عمر بن يزيد عن الامام الصادق) عليه السلام) قال سمعته يقول:

"شكر كل نعمة - و ان عظمت - ان تحمد الله عز و جل " (٣)ثالثا : اجتناب المحرمات ، و بالذات تلك التي تقتضيها النعمة مثل الفخر و التجبر أو الاسراف و البخل أو الفساد الجنسي.

هكذا روى عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال:

"شكر كل نعمة الورع عما حرم الله " (٤(

(1)المصدر / ص ٥٣

(2)المصدر / ص ٣٢

(3)المصدر / ص ٤٣

(4)المصدر / ص ٤٢

رابعا : أداء حقوق النعمة ، و الإلتزام بالحدود التي شرعها الدين لها.

دخل سدير الصيرفي على الامام الصادق (ع) (و كان ذا غنى حسب الظاهر) قال له:

"يــا سدير ! ما كثر مال رجل قط إلا عظمت الحجة لله عليه ، فان قدرتم [على أن] تدفعونها [كذا] على أنفسكم فافعلوا.

فقال له : يابن رسول الله بماذا ؟

قال:

بقضاء حوائج إخوانكم من أموالكم ، ثم قال : تلقوا النعم - يا سدير - بحسن مجاورتها ، و اشكروا من أنعم عليكم ، و انعموا على من شكركم ، فانكم - اذا كنتم كذلك - استوجبتم من الله الزيادة ، و من اخوانكم المناصحة ، ثم تلا " : لئن شكرتم لأزيدنكم "(١(

خامسا : بالاجتهاد في سبيل الله ، و ابتغاء مرضاته ، ذلك ان النفس الشاكرة تنبعث عفويا نحو الطاعة ، و الاجتهاد في العبادة لا لأداء حق الله الذي عليها ، لأن حق الله اعظم من ان يؤديه شكر العبد ، أوليس العمل - بالتالي - يكون بحول الله و توفيقه مما يقتضيالمزيد من الشكر ، انما حبا لله و شوقا الى لقائه الكريم . تعال معي الى الرسول الأعظم محمد بن عبد الله - صلى الله عليه و آله - لنرى كيف كان يجهد نفسه في العبادة شكرا لله.

يدخل عليه عمر بن الخطاب و النبي محموم ، فقال له عمر : يا رسول الله ! ما أشد(١) المصدر / ٤٨

وعكك او حماك ؟! فقال :

"ما منعني ذلك أن قرأت الليلة ثلاثين سورة فيهن السبع الطوال "فقال عمر : يا رسول الله غفر الله لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر ، و انت تجتهد هذا الاجتهاد ؟! فقال:

"يا عمر ! افلا أكون عبدا شكورا " (١(

سادسا :القناعة بما يجده المرء ، و الابتعاد عن الحرص و الشره . ان الشكر ليس وليد الرضا بأمر الله فقط ، و انما يساهم - ايضا - في تنمية روح الرضا و القناعة ، و يجعل الانسان يركز أبدا على الجوانب الايجابية للحياة ، و يتمتع بها ، و يستفيد منها ، و ينطلق للحصول على المزيد منها بخطى ثابتة و واقعية و نفس راسخة العزم وهو مطمئن البال.

و القصة الطريفة التالية تعكس طبيعة النظرة الايجابية عند أولياء الله الشاكرين ، فهـذا الصحابي الجليل سلمان (الفارسي) يدعو أباذر رحمة الله عليهما ذات يوم الى ضيافة ، فيقدم اليه من جرابه كسرة يابسة و بلها بركوته.

فقال أبوذر : ما أطيب هذا الخبز لو كان معه ملح ، فقام سلمان و خرج و رهن ركوته بملح و حمله اليه ، فجعل أبوذر يأكل ذلك الخبز و يذر عليه ذلك الملح ، و يقول : الحمد لله الذي رزقنا هذه القناعة ، فقال سلمان : لو كانت قناعة لم تكن ركوتي مرهونة . (٢)(١) المصدر / ص ٤٨

(2)المصدر / ص ٤٦

الصبر هدى و ظفر

و الصبر - كما الشكر - تجل لروح الايمان عند النوائب ، و في لحظات عصف الشهوات ، و عند تحمل الصعاب.

و الآية تربط بين الصبر و الشكر ، و تجعلهما وجهان لروح واحدة ، كما يتبين ان آيات الله تتجلى عند اصحاب هذه الروح.

بلى .لأن النفس التي تنساب مع النعم أو النقم لا تملك استقلالية في الرأي ، و لا وضوحا في الرؤية ، لأنها تميل مع رياح الظروف أنى مالت ، فاذا عصفت بها الشهوات طغت و تجبرت ، و استأثرت بالنعم ، و تعالت على الآخرين ، و اذا توالت عليها المصائب انهارت و اظلمت الدنيا عندها و جزعت ، لذلك تتجلى الآيات الإلهية للصبار الشكور أكثر من غيره.

و الواقع ان الصبار الشكور هو الحر حقا ، الذي ينظر الى الحقائق نظرة موضوعية و مجردة عن المصالح.

جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام:

"ان الحر حر على جميع أحواله ان نابته نائبة صبر لها ، وان تداكت عليه المصائب لم تكسره ، و ان أسر و قهر و استبدل باليسر عسرا كما كان يوسف الصديق الامين لم يضرر حريته ان استعبد و قهر و أسر ، و لم يضرره ظلمة الجب و وحشته وما ناله ان من الله عليه فجعل الجبار العاتي له عبدا بعد اذ كان مالكا فأرسله و رحم به أمة ، و كذلك الصبر يعقب خيرا ، فاصبروا و وطنوا أنفسكم على الصبر تؤجروا " (١)(١) المصدر / ص ٦٩

هكذا الصبر عنوان الانسان الحر ، و مفتاح الفرج بعد الشدة ، و هو - كذلك - صلاح العمل . أوليس الزمان جزء من فطرة الخليقة ؟! فمن لا صبر له لا يمكنه ان يوظف عامل الزمن لمصلحته ، فيكون سببا لفساد اعماله . أرأيت الفلاح الذي لا ينتظر الموسم المناسب لزراعته ، و التاجر الذي لا يصبر حتى تزدهر السوق لبيع سلعته ، و الثائر الذي يستعجل تفجير ثورته . أوليس يفشل هؤلاء ، بينما ينجح الصابرون ؟! بلى . كذلك قال امير المؤمنين عليه السلام للرجل الذي رآه على باب المسجد كئيبا حزينا فقال له : مالك ؟! قال : يا أمير المؤمنين اصبت بابي و أخي ، و أخشى ان اكون قد وجلت ، فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام: (

"عليك بتقوى الله ، و الصبر تقدم عليه غدا و اضاف الامام (ع) قائلا : و الصبر في الأمور بمنزلة الرأس من الجسد ، فاذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد ، و إذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور(1) " و بالذات الايمان فان رأسه الصبر ، لأن اعظم خصائص الايمان الاستثمار لليوم الآخر ، ولا يبلغه من لا صبر له.

يقول الامام علي بن الحسين عليهما السلام:

"الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، و لا ايمان لمن لا صبر له(2) " و حقيقة الصبر الاستفادة من عامل الوقت ، و استشراف المستقبل ، و التخطيط له ، و توظيف الطاقات لأجله ، و بالنسبة الى المؤمن يعتبر اليوم الآخر الحياة الحقيقية ، و لذلك فهو يعمل له أبدا ، و لكنه يقتطع من كل مساعيه جزء مناسبا(١) المصدر / ص ٧٣

(2)المصدر / ص ٨١

للدنيا ، حسب وصية ربه له حيث يقول:

و ابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة و لا تنس نصيبك من الدنيا " (١)و لذلك فان المؤمن يستسيغ الصبر في كل الظروف ، و في مواجهة مختلف الاحتمالات ، وقد قسم الشرع الصبر على ثلاثة : الصبر عند النوائب ، و الصبر على الطاعات ، و الصبر على المعاصي ، و وضع لكل واحد منها درجة من الثواب . تعال نستمع الى الامام علي عليه السلاميحدثنا عن حبيبه رسول الله (صلى الله عليه وآله) و يقول:

"الصبر ثلاثة:

صبر على المصيبة ، و صبر على الطاعة ، و صبر على المعصية.

فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين السماء الى الارض.

و من صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم الأرض الى العرش.

و من صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم الأرض الى منتهى العرش " (٢)[٣٢] ان ميزة الصبار الشكور وعيه لآيات الله ، و اهتداؤه بها الى حقائق الخلق ،

فهو لا يعيش لحظته العابرة بل يعيش - بوعيه الواسع - المستقبل فيصبر على(١) القصص / ٧٧

(2)المصدر / ص ٧٧

نوائب الحاضر انتظارا للفرج ، و معرفة بأن هناك نوائب أخطر لما تحل به ، وان عليه ان يشكر ربه حتى لا تحل به أبدا ، و هكذا جاء في النص المأثور عن أمير المؤمنين (ع: (

"كـان رسول الله (ص) إذا أتاه أمر يسره قال :الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، و إذا أتاه أمر يكرهه قال : الحمد لله على كل حال " (١)و هو يعيش كذلك الماضي ، فيشكر الله على نعمه و على دفع النقم عنه.

بينما الختار الكفور الذي لا يمك وفاءا ولا شكرا ، فانه يتعامل مع اللحظة الراهنة و كأنها أبدية فيتغير حسبها ، فاذا افتتن بالنوائب تراه يجأر الى ربه ، فاذا نجاه الله منها عاد الى غيه و نسي ما ألم به.

]وإذا غشيهم موج كالظلل[

ان غشيان الموج امر رهيب . اذ معناه الظاهر إحاطته بهم من كل صوب و حدب ، ثم يعبر القرآن عنه انه " كالظلل " بصيغة الجمع لأن الموج يتعاقب و يتكاثف.

]دعوا الله مخلصين له الدين [

حيث اخلصوا التسليم و الانقياد لرب العالمين ، و انقشعت عن أبصارهم غشاوة الغفلة ، و تلاشت العقد النفسية التي منعت عنهم الايمان ، و انزاح عن قلوبهم خوف الشركاء أو الرجاء فيهم ، حيث لا يقدرون على شيء في تلك الساعة الرهيبة عند تكاثف الموج ، و تزايد خطرالموت.

(1)بحار الأنوار / ج - 71ص ٤٧

ان هذه الحالة تتكرر عند الانسان في أوقات عديدة ، عندما يحيط به حريق هائل ، عندما يدخل عزيز له الى غرفة الانعاش و يشير الاطباء انهم لا يملكون من أمره شيئا ، و حين ترتطم سيارته في طريق مهجور فيتدفق الدم من جوارحه ، و ..و..

إن تعلق القلب آنئذ بالرب الحـق وحده لا شريك له لشاهد صدق على زيف الشركاء ، و لكن الانسان يفقد هذا الايمان النقي بعد مرور الخطر.

و ينقسم الناس فريقين : فمنهم من تبقى عنده آثار تلك الساعة فيشكرون الرب ، و يصبرون على بلائه و هؤلاء هم المقتصدون.

]فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد[

وهو المعتدل و الموفي بعهده .

و هولاء تبقى في نفوسهم آثار تلك الشعلة الالهية ، التي أوقدتها حالة الانقطاع الى الرب ، و منهم الجاحدون الذين يفقدون الوفاء و الشكر للنعماء .

]وما يجحد باياتنا الا كل ختار كفور[

و الختار هو الذي ينكث عهده كثيرا ، و لعل الكلمة تقابل الصبار لأن حالة الصبر تعني الاستقامة ، و البقاء

على العهد ، و بالتالي عدم تبدل المواقف حسب الظروف أو حسب المصالح ، و الكفور صفة مقابلة للشكور.

[33]لكي يتسع وعي الانسان المستقبل لابد ان يتصوره باستمرار ، و يعرف مدى خطورته ، و لرب مستقبل أعظم ثقلا و حضورا و شهادة من اللحظة الراهنة لأهميته القصوى كذلك اليوم الآخر.

و حين يعيش الانسان ذلك اليوم الرهيب يحافظ على توازن قلبه عند الشدائد ، و عند تواتر النعم ، فلا يجزع عند المصائب ، ولا تبطرت الآلاء.

و لعل ذلك هو مناسبة التذكرة بالقيامة في خاتمة السورة.

]يا ايها الناس اتقوا ربكم و اخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده]و هكذا لا يجوز الخضوع للوالدين اذا خالف أمرهما أمر الله.

]ولا مولود هو جاز عن والده شيئا[

فلا ينبغي ان يسعى الانسان لاسعاد ابنائه على حساب دينه.

]إن وعد الله حق[

و الساعة آتية لا ريب فيها.

]فلا تغرنكم الحياة الدنيا [

التي تحجب البشر عن النظر في آيات الآخرة ، و عن العمل لها.

و الواقع : ان القريب يحجب البعيد ان لم يتسلح الانسان بالبصيرة النافذة ، لذلك جاء في الحديث:

"حب الدنيا رأس كل خطيئة"

و يفسر النص التالي هذا الحديث بصورة رائعة فقد روى محمد بن مسلم بن شهـــاب قال : سئل علي بن الحسين (عليهما السلام) أي الأعمال أفضل عند الله عز و جل ؟ فقال:

"ما من عمل بعد معرفة الله عز و جل و معرفة رسوله - صلى الله عليه و آله - أفضل من بغض الدنيا ، و ان لذلك لشعبا كثيرة ، و للمعاصي شعبا ، فأول ما عصى الله به الكبر ، و هي معصية ابليس حين أبى و استكبر و كان من الكافرين ، و الحرص و هي معصية آدم وحوا حين قال الله عز و جل لهما : " كلا من حيث شئتما و لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين " فأخذا مالا حاجة بهما اليه ، فدخل ذلك على ذريتهما الى يوم القيامة ، و ذلك ان أكثر ما يطلب ابن آدم مالا حاجة به اليه ، ثم الحسد ، و هي معصية ابن آدمحين حسد أخاه فقتله ، فتشعب من ذلك حب النساء ، و حب الدنيا ، و حب الرياسة ، و حب الراحة ، و حب الكلام ، و حب العلو و الثروة ، فصرن سبع خصال فاجتمعن كلهن في حب الدنيا ، فقال الانبياء و العلماء بعد معرفة ذلك : حب الدنيا رأس كل خطيئة ، و الدنيا دنيائان:
دنيا بلاغ و دنيا ملعونة " (١(

]و لا يغرنكم بالله الغرور [

ان بعض الناس يتحدى الغرور الذي ينتابه بسبب حب الدنيا لأنه غرور مباشر ، أو لانه لا يملك شيئا منها ، و لكنه يغوى عبر المغرورين بالدينا ، مثل الملايين الذين تضلهم اليوم أجهزة اعلام المترفين ، فهم يخسرون آخرتهم ليحصل غيرهم على الدنيا ، فهم خسروا الدنيا و الآخرة.

[34]و لكي تترسخ دعائم الايمان بالله و اليوم الآخر في النفس ، و يعلم البشر انه لا يملك مستقبله بل و لا حاضره ، فتطمئن نفسه الى قضاء الله ، و يصبر على بلائه ، و يشكر نعمائه و في ذات الوقت يزداد إحساسا بمسؤوليته عن مساعيه ، من أجل ذلك و غيره ذكرت الآية الأخيرة من هذه السورة بإحاطة قدرة الله و علمه(١) نور الثقلين / ج٤ - ص ٢١٨

بالانسان ، فهو الذي يملك علم الساعة - و هي أخطر - حين يمر بها ابناء آدم ، ثقلت في السموات و الارض.

]إن الله عنده علم الساعة[

متى ترسو سفينة الخليقة على الشاطئ الأخير . لا أحد يعلم ذلك ، بل لم يحدد ربنا لذلك وقتا - حسب بعض النصوص - انما يقررها الرب متى شاء ، و قد قال عز من قائل : " يسألونك عن الساعة ايان مرساها فيم انت من ذكراها إلى ربك منتهاها " (١)[و ينزل الغيث[

بقدرته ، فيحيي الأرض بعد موتها . ان قدرته أيضا محيطة بالبشر كما علمه.

]و يعلم ما في الأرحام[

حيث تنعقد نطفة البشر على أسس بيولوجية بالغة الدقة ، و خاضعة لعوامل متشابكة لا يعلمها الا الله ، و لا يقدر أحد على التحكم بتفاصيلها أبدا ، و هنالك ترى أسس شخصية ظاهرة و باطنة ، جميل أم قبيح ، طويل أم قصير ، قوي أم ضعيف ، حاد الطبع أم لين ، وما هي توجهاته العلمية و الادبية و الفنية ، و ما هي مواهبه ، و أهم من كل ذلك هل في طينته نزعة شريرة أم لا.

يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام عن الآية:

"فيعلم الله سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أنثى ، و قبيح أو جميل ، و سخي أو بخيل ، و شقي أو سعيد ، و من يكون للنار حطبا ، أو في الجنان للنبيين مرافقا ،(١) النازعات / ٤٢ - ٤٤

فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلا الله " (١)[و ما تدري نفس ماذا تكسب غدا[

لأن العوامل التي تؤثر في سلوك الانسان لا تحصى عددا ، فكيف يتحكم فيها بصورة جازمة ، بلى . هنالك تخطيط و تقدير و اطمئنان نسبي ، و لكن علم الغد خاص بالرب.

و حين لا يعلم البشر ما يفعله غدا فبالتأكيد لا يعلم ما يفعله الآخرون ، و ما قد يقع مستقبلا ، و أفضل الخبراء عاجز عن معرفة المستقبل تفصيلا . مما يدل على ان المدبر للحياة ليس الانسان نفسه.

كذلك قال الامام أمير المؤمنين عليه السلام:

"عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم ، و حل العقود ، و نقض الهمم " (٢)[وما تدري نفس بأي أرض تموت]

و هكذا تكون النهاية بيد الله وحده ، فلماذا الغرور ؟!

يقول الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام:

"ان النطفة إذا وقعت في الرحم ، بعث الله عز و جل ملكا فأخذ من التربة التي يدفن فيها فماثها (٣) في النطفة فلا يزال قلبه يحن اليها حتى يدفن(١ (المصدر / ص ٢١٩

(2)نهج البلاغة قصار الحكم / رقم ٢٥٠

(3)ماثها : أذابها

فيها " (١(

]إن الله عليم خبير[

(1)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٢٢٠

سورة السجدة

الإطار العام

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسم
فـي أربـع سور فـي القرآن يجب السجود عند الأمر به ، وهي التي تسمى بالعزائم .وهذه السورة أولها في الترتيب ، ولذلك حق أن تسمى بذلك ، وقد تسمى بـ) الم السجدة. (

لعل آية السجدة (١٥) هي محور السورة ، وهي تبين أعظم صفات المؤمنين المخلصين ، المتمثلة في تجلي الله لقلوبهم الزكية ، حتى أنهم يخرون سجدا لله إذا ذكروا بآياته ، و تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم.

و تترى آيات السورة للوصول الى هذا المحور ، انطلاقا من إسم الربوبية لإله العالمين ، فهو الله الذي خلق السموات و الأرض في ستة أيام ، مما يوحي بترتيبها خلقا بعد خلق ، وطورا بعد طور . ثم هو الذي يدبر الأمر من السماء الى الأرض ، وإليه يرجع العباد و اعمالهم ، وهو عالم الغيب و الشهادة ، يحيط علما بالخلق ، فلايعزب عن علمه شيء في السموات و الأرض.

و يذكرنا السياق بتجليات إسم الرب في خلق الإنسان الذي بدأ خلقه من طين ، و تعاهد أمره طورا بعد طور حتى جعله بشرا سويا ، و يتقلب في تقدير الرب و تدبيره مادام حيا ، ثم يتوفاه ملك الموت الذي وكل به من عند الرب ، وحين يتحول ترابا ، و تنشر اجزاؤه في الارض ، لا يكون بعيدا عن هيمنة الرب و تقديره ، وحين يبعث الى محكمة العدل الإلهية ، ترى المجرمين ناكسي رؤوسهم ، يتصرعون إليه ، و يدعونه ان يرجعهم ليعملوا صالحا.

كلا ..ان الله أقسم صادقا أن يملأ جهنم من الجنة و الناس أجمعين ، ولذلك تركهم يختارون طريقهم بحرية تامة ، فاذا شاؤوا اختاروا الجنة ، ولكن كيف النجاة من ذل ذلك الموقف ، حين يندم المجرمون على أعمالهم ؟

إنما بالتضرع اليه ، وهكذا يحصر القرآن المؤمنين بآيات الله . أولئك الذين إذا سمعوها خروا سجدا ، و سبحوا بحمد ربهم.

و جزاء هؤلاء عظيم الى درجة لا يمكن وصفه ، حيث يقر الله أعينهم بالجزاء الحسن.

وإن من هؤلاء من يختارهم الله للإمامة ، لأنهم يهدون بأمر الله ، و يصبرون على الأذى في جنبه ، و لأنهم كانوا بآيات الله يوقنون.

ولعل الهدف الأسمى للسورة بناء هذه الطائفة المختارة ، وهذا هو محور السورة الأساس - فيما يبدو لي - الا ان هناك بصيرة أخرى تعطيها آيات السورة هي : نسف التمنيات الى يحلم بها الانسان ، و يريد ان يكون المؤمن و الفاسق سواء . كلا .. لا يستوون . ان للمؤمنين جنات المأوى ، بينما مأوى الفاسقين النار

خالدين فيها ، و دليل الفرق في الآخرة عذاب الله الذي يصيب الفساق بأعمالهم في الدنيا ، الفقر ، و الذل ، و الأمراض ، و الحروب ، و الزلازل ، و الفيضانات و .. و .. كل ذلك دليل مسؤولية البشر عن أعمالهم السيئة ، وانها لن تمر بلا حساب.

و ميزان الله دقيق ، يفصل به يوم القيامة بين هؤلاء و هؤلاء ، و نظرة الى التاريخ تهدينا الى نكال الله الذي يصيب الكفار ، وهو - برغم عظمته - يعتبر عند الله عذابا أدنى ، فكيف يهرب الفاسقون و المجرمون الذين يعرضون عن آيات الله عن الإنتقام بالعذاب الأكبر ؟!

وفي خاتمة السورة يذكرنا الرب بآيات رحمته ، وانه يسوق الماء الى الأرض الجرز لينبت لهم و لأنعامهم زرعا.

و يحذر أولئك الذين ينتظرون الآيات الواضحة التي تجبرهم على الإيمان و ينذرهم بأنه في يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم في ذلك اليوم.

ثم يأمر المؤمنين بالإعراض عنهم ، و الإنتظار ، كما ان الكفار ينتظرون . ليرى الجميع جزاء أعمالهم ، إن خيرا فخير ، وان شرا فشر.

الذي احسن كل شيء خلقه

هدى من الآيات

تذكرنا الآيات هذه بأن الرب الذي يجب ان يسجد له من في السماوات و الارض ، هو الله رب العرش ، و أن ما يعبد من دونه ليس سوى أوهام و اساطير أبتدعتها أفكار الناس ، و ان القرآن كتاب حكيم لا ريب فيه لانه من عند الله ، و لكن لماذا يقول القرآن عن نفسه " لا ريب فيه " ؟

الجواب : ان الشك نوعان : الأول ينبعث من العقل لعدم توفر الحجج و الآيات الكافية ، و الثاني ينبعث عن هوى الانسان بسبب كبره أو حجب الغفلة التي تعمي قلبه ، لذلك نجد القرآن يقول في إحدى الآيات عن الكفار : " فهم في ريبهم يترددون (1) "ناسبا الشك الى الكفار أنفسهم ، أما القرآن ذاته فهو لا ريب فيه ، لانه صورة أخرى لعقل الانسان المحض و المجرد عن المؤثرات السلبية ، كما أن(١) التوبة / ٤٥

العقل هو الآخر صورة باطنية للقرآن ، و إذ يثير الوحي الالهي عقل البشرفان هذا العقل يؤيد حقيقة القرآن ، للتطابق التام بين الذي يذكره القرآن و بين العقل البشري ، و لذلك تتكرر في الآيات كلمة : " لا ريب فيه. "

ثم يستمر السياق في الحديث عن القرآن نفسه ، مؤكدا بأنه لا يمكن ان يكون إفتراء كما يتقول البعض ، لان هدف القرآن هو انذار الناس و هدايتهم للحق ، و لا يمكن ان يتحقق الهدى بالكذب ، كما أن القرآن ليس مجردا عن الادلة و البراهين حتى يكون موضعا للريب و الشك ، و من أنصع الادلة ان الكاذب انما يكذب لمصلحة نفسه ، و نحن لا نرى من جاء بالقرآن وهو الرسول (ص) يدعو الى نفسه أبدا بل الى ربهم ، وهذا دليل على صدق الرسل ، بل و الدعوات الاجتماعية التي تأخذ هذا المنحى و تتبع منهج الرسل ، و التي تتمحور حول العقل و عبادة الله فهي الصادقة ، و انصارها هم الصادقون ، اما الدعوات التي تنتهي الى الاشخاص لا الى القيم ، و تعتمد غير الله هدفا و غاية فهي خاطئة ، و أنصارها كاذبون.

و الانبياء من أول نظرة اليهم يعرفون بأنهم انما جاؤوا من عند الله ، فالرجل الذي يلبس الخشن ، و يأكل الجشب ، و لا يجمع من حطام الدنيا شيئا ، ولا يدعو الناس الى نفسه ، و يتحمل كل الأذى من أجل خير الناس ليس أنانيا ، انما يضحي لإيمانه فهو صادق لاريب فيه.

ثم يذكرنا القرآن بخلق السماوات الذي تم في ستة ايام ، مثنيا بخلقة الانسان التي تمت على مرحلتين : الاولى :خلقه من الطين ، و الثانية : خلقه من الأرحام ، و هذا قد يشير الى عالم الذر حيث خلق الانسان مرة واحدة على صورة ذر (موجودات صغير ة) ثم وضعت فيأصلاب الرجال ، و خلق مرة أخرى عبر النكاح ، و نمى في بطن أمه ، ثم يشير الى نفخ الروح فيه و هذا خلق آخر بعد ذلك الخلق ، و يوصلكل ذلك بقضية النشور بعد الموت.

بينات من الآيات

] [2-1]الم * تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين[

كلمة الرب توحي بالعطاء المتدرج (كالتربية) و الله رب السموات و الارض أي يعطيها كمالا بعد كمال ، و خلقا بعد خلق وكما أشار الله لذلك حين قال " : و السماء بنيناها بأيد و إنا لموسعون " (١) و كيف يعترى الريب كتابا أنزله رب العالمين ، المهيمنعلى خلقهم و تدبير شؤونهم ؟! إن فطرة البشر جبلت على الثقة بالله ، و تزداد هذه الثقة بتنامي معرفتهم بربهم ، لذلك فإن المنهج الصائب لبعث الثقة بالكتاب في النفوس تذكيرهم أولا بالله الذي أنزله ، كما نجده هنا و في سورة الفرقان و غيرهما.

] [3]أم يقولون افتراه[

و يرد الله على الكفار بأن القرآن ليس مفترى و ذلك لسببين:

الاول :ان المحور في هذه الدعوة هو الحق ، و ليس ذات الرسول مثلا ، كما يفترض في الدعوات الكاذبة التي هدفها تأكيد مصلحة أنصارها و اصحابها.

]بل هو الحق من ربك[

الثاني :ان ما تنتهي إليه هذه الرسالة و هو الهداية دليل على صحتها ، ذلك أن الدعوة الكاذبة لا يمكن ان تنتهي الا الى إضلال الناس.

(1)الذاريات / ٤٧

]لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون]و الكتاب يهيء الفرصة للهداية ، و لا يحققها بصورة اكراه ، فإن شاء الانسان اهتدى بالكتاب ، و إن شاء جحد.

[4]ثم يذكر السياق بخلق السماوات و الارض الذي تم في ستة أيام ، و لعل سائلا يقول : لماذا في ستة أيام وليس عشرة ؟ الا أن الجواب الفطري على ذلك أنه لو قال القرآن عشرة ايام لقالوا : لماذا لم تكن ستة ؟ و هذا لا ينفي وجود حكمة يعلمها الله تفسر هذا العدد. و مع ذلك فأننا نجد السياق يبين بأن الحساب عند الله يختلف عنه عند الناس إذ يقول " : و إن يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون " ، و عموما فان في الآية اشارة الى حقيقة التكامل في الخلق.

]الله الذي خلق السموات و الارض وما بينهما في ستة أيام]يتطور خلالها الخلق يوما بعد آخر.

بالاضافة الى دلالة هذه الآية على نظرية التكامل الاسلامية ، فانها تدل على دور الزمن في واقع الاشياء ، إذ هو جزء منها ، و هذا ما نستوحيه من عدة آيات قرآنية من بينها قوله تعالى : " ما خلقنا السموات و الارض وما بينهما الا بالحق و أجل مسمى "(١) أي و بأجل مسمى ، و لعل الباء المحذوفة هنا هي

نفسها التي في كلمة بالحق و تعني الاستعانة.

و إذ خلق الله الخلق لم يتركه سدى كما تدعي ذلك اليهود ، مستوحية من النظريات الفلسفية البائدة ، بل هيمن عليه بتدبيره.

(1)الاحقاف / ٣

]ثم استوى على العرش[

و هو تعبير عن القدرة و الهيمنة . و مادام الكون خلق بارادة الله ، و يدبر بمشيئتــه فلابد ان نتوجه إليه و نعبده ، لأنه لا أحد يقف دون تنفيذ ارادته ، و اجراء قضائه.

]مالكم من دونه من ولي و لا شفيع أفلا تذكرون[

هذه الحقيقة مغروزة في فطرة الانسان ، و آياتها مبثوثة في الخليقة ، و لكن ينساها البشر مما يجعله محتاجا الى التذكرة.

[5]ثم تؤكد الآيات هيمنة الله على الخلق ، و تدبيره له من مراكز أمره في السماء:

]يدبر الأمر من السماء الى الارض[

أي يجعله محددا ، و كلمة تدبير مأخوذة من الدبر أي النهاية ، و تدبير الأمور أي معرفة عواقبها ، و ما تؤول إليه.

]ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون]حينما يتدبر الأمر لا يعني انه انتهى ، بل ان أي عمل يقوم به الانسان يحدده الله ثم ينتهي اليه عندما يكتسبه العبد . و نستوحي من هذه الآية أن كل شيء في هذا الكون لا ينعدم ، فالكون يشبه الشريط السينمائي و هو يتحرك مع الزمن ، و ما نعتقد حدث و انتهى ليس كذلك ، فهو موجود في هذا الشريط ، و يعود يوم القيامة . قال تعالى : " يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده (1)(1) . " الانبياء / ١٠٤

و الآية هنا صريحة في ان مقدار يوم القيامة الف عام ، بينما نجد في آية اخرى ان مقداره خمسين الف سنة ، لماذا ؟ لعله لأن ساعات يوم النشور خمسون ، و يدبر الله في كل ساعة أمرا ، و ان عروج الأعمال اليه انما يتم في ساعة واحدة منه ، بمثل هذا جاءت رواية مأثورة عن الامام الصادق عليه السلام:

"إن في القيامة خمسين موقفا ، كل موقف مثل الف سنة مما تعدون "ثم تلا (ع) هذه الآية:

"في يوم كان مقداره خمسين الف سنة " (١)[٦] و بعد أن تعرفنا الآيات على ربنا ، لتنتهي بنا الى إن القرآن لا ريب فيه ، باعتباره من عنده تعالى ، تؤكد لنا بعض صفاته الحسنى:

]ذلك عالم الغيب و الشهادة العزيز الرحيم[

يعلم خفيات الامور و ظواهرها ، فان كان الانسان أحسن في عمله ، جزاه الله برحمته ، و ان أساء عاقبته بعزته ، أو تاب عليه برحمته.

] [7]الذي أحسن كل شيء خلقه [

و لعل هذه الآية تشير الى أن كل مخلوق يحس و انطلاقا من وظائفه الحياتية و ظروفه بالكمال في خلقه ، فلو أبدلت أسنان الاسد بأسنان الانسان أو منقار الغراب لما كان صالحا و لا مناسبا ، فكل شيء تجده متناسقا و متكاملا في حدوده ، و بالنسبة الى وسطه و طبيعته.

(1)تفسير نمونه / ج - 17ص ١١٧

ثم يبدأ الحديث عن خلق الانسان ، و المراحل التي يمر بها ، و دوره الذي يؤديه في الحياة منذ البداية حتى الموت و الى الرجعة.

]و بدا خلق الانسان من طين [

] [8]ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين[

للانسان بدايتان : الاولى عند خلق آدم (ع) و ذريته في صورة ذر ، و لقد تم خلقهم مباشرة من الطين ، و الثانية عند خلق سائر البشر من اصلاب الرجال ، و ذلك من ماء مهين ، يحتقره الانسان و لكنه أساس خلقه ، وفيه انطوى سر حياته.

بلى .من الطين ومن الماء المهين خلق الله هذا البشر السوي ، الذي اضحى خصيما مبينا ، و يتكبر في الأرض بغير الحق . أو لا ينظر الى أصل خلقه المهين فيرعوي عن غيه ؟! قال تعالى : " فلينظر الانسان مم خلق * خلق من ماء دافق *يخرج من بين الصلب و الترائب * إنه على رجعه لقادر " (١(

[9]ثم ان الله بعد أن كون هيكل الانسان الاول وهو آدم و حواء ، نفخ فيهما من روح انتسبت اليه لفرط عظمتها ، ليصبحا بشرا سويا ، حيث يكون الانسان من جسد و روح ، اكراما للانسان في مقابل الماء المهين.

]ثم سواه و نفخ فيه من روحه [

ثم أحسن هذا الخلق إذ من عليه بنعمة الحواس و العقل.

]و جعل لكم السمع و الأبصار و الأفئدة[

(1)الطارق / ٤ - ٧

وكان من واجب البشر أمام هذه النعمة أن يشكروا ربهم و يتبعوا رسالاته ، و لكن غالبيتهم كفروا بأنعم الله.

]قليلا ما تشكرون[

و هذا يدل على أن الطبيعة الطينية في الانسان هي التي تغلب عليه في أكثر الاحيان ، و لهذا نجد في القرآن امثال " و قليل من عبادي الشكور " أو " وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين. "

إن الشكر الحقيقي هو تحسس الانسان بأن النعم من عند الله ، ومن ثم التسليم المطلق له ، و في الحديث عن الامام الصادق (ع: (

"أوحى الله تعالى الى موسى (ع) يا موسى ! اشكرني حق شكري ، فقال : يا رب كيف اشكرك حق شكرك ، و ليس من شكر أشكر به ألا وأنت أنعمت به علي ؟!

فقال :يا موسى شكرتني حق شكري حين علمت ان ذلك مني " (١)[١٠] و لعل من عوامل كفران النعم الجحود بيوم البعث ، لماذا ؟ لأن النعم عند من يشكرها عبارة عن مسؤوليات ، و شكرها الوفاء بحقوقها ، ومن يجحد القيامة يتهرب عن مسؤولية النعم ، و بالتالي لا يشكرها . بل لعل السبب النفسي لجحود البعث التهرب عن مسؤولية النعم و حقوقها المفروضة علينا.

]و قالوا ءاذا ضللنا في الارض [

توزعت اشلاؤنا ، و تناثرت اعضاؤنا.

(1)بح / ج ١٣ - ص ٣٥١

]ءانا لفي خلق جديد[

هذا هو ظاهر الاعتراض على دعوة الرسالة ، و لكن الواقع هو التشكيك في قدرة الله سبحانه ، و الكفر بلقاء الله .

]بل هم بلقاء ربهم كافرون[

و لعل الآية تشير الى أن الكفار إنما ذكروا هذا الاعتراض جدلا فثم عقدوا العزم على الكفر بلقاء ربهم ، خشية تحمل المسؤولية في الدنيا ، فأخذوا يتشبثون بأدلة جدلية لتبرير كفرهم هذا.

[11]و لكن الله يؤكد أنه هو الذي يدبر شؤون الحياة ، و ليست الصدفة ، و ما دامت الحياة قائمة على تدبير الهي فلماذا التشكيك في يوم المعاد ، و هو مما تقتضيه الحكمة ؟!

و لماذا يستغرب الانسان من فكرة البعث ، و قد خلقه الله ولم يكن شيئا مذكورا ، ثم أنه هو الذي يميته بمشيئته و ليست الصدفة.

]قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون]و لقد وكل الله الملائكة باجراء قضائه بما آتاهم من قوته ، و حسب ما يهبط اليهم من أمره ، دون ان يسبقوه بالقول ، و وكل ببني آدم ملك الموت ليقبض أرواحهم و ليتوفاهم دون نقيصة.

و ملك الموت أعظم زاجر لأبناء آدم الذين لا يمكنهم الفرار منه ، جاء في حديث مأثور عن سيد المرسلين - صلى الله عليه و آله: -

"الأمراض و الأوجاع كلها بريد الموت ، و رسل الموت ، فاذا حان الأجل أتى ملك الموت بنفسه فقال : يا أيها العبد ! كم خبر بعد خبر ، و كم رسول بعد رسول ؟ و كم بريد بعد بريد ؟ انا الخبر الذي ليس بعدي خبر " (١)(١) تفسير نمونه / ج ١٧ - ص ١٤١

تتجافى جنوبهم عن المضاجع

هدى من الآيات

تثير فينا السور القرآنية التي تتحدث عن مشاهد القيامة ، مزيجا من الرغبة و الرهبة ، و تدعونا الى السعي الحثيث نحو عمل الصالحات ، حتى لا نكون من ضحايا الغفلة ، وفي هذا الدرس يصور لنا القرآن المجرمين - الذين يعتقدون بأن الجريمة و الخط المنحرف هو السبيللاشباع الغرور في الدنيا - و هم منكسي الرؤوس ، بما نسوا و تغافلوا عن يوم القيامة ، تاركين الاستعداد لهذا اليوم ، فنسيهم الله.

ثم يؤكد السياق على أن الإتكاء على الاحلام و الامنيات من دون العمل الصالح و المستمر لتحقيق ذلك

خطا كبير ، و أنه من عمل الشيطان ، فالجنة لا تنال الا بالايمان ، و العمل بما يقتضيه هذا الايمان ، أما ان يتصور الانسان بأن الله رحيم و رؤوف لا يعذب أحدا فذلك خطأ.

و القرآن يبرر هذه الأمنية بثلاثة أمور:

الأول : القسم الالهي بأنه تعالى سوف يملأ النار من الجنة و الناس ، و يكفينا هذا خوفا و حذرا.

الثاني :ان العذاب الدنيوي يعطينا فكرة تخالف الاماني و الاحلام الساذجة ، فكما ان نعم الله الظاهرة و الباطنة تدلنا على أنه رحيم و رؤوف بعباده ، فان جانب العذاب فيها يدلنا على أنه جبار متكبر ، يغضب ، و ينتقم ، و يعذب ، و يدمر تدميرا.

الثالث : يخبرنا القرآن بأن عدالة الله تأبى ان يستوي المحسن و المسيء ، و المؤمن و الكافر . و هذه من الأفكار الحساسة في تربية النفس ، أن يطرد الانسان عن ذهنه حلم التساوي مع الصادقين من دون عمل و سعي " أم للانسان ما تمنى " (١) فكيف مثلا يستوي عند الله الساكت عن جرائم الظلمة ، و الآخر الذي يقاسي أنواع العذاب بسبب معارضته لهم ؟!

ثم تذكرنا الآيات ببعض صفات المؤمنين ، و التي من أهمها و ابرزها خضوعهم للحق ، و تسليمهم له في مختلف الظروف و الاحوال ، خوفا و طمعا ، فاذا بك تجدهم يقاومون سلبيات النفس البشرية بذكر الله ، فهم كما وصفهم الامام علي (ع: (

"عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم " (٢)كما ان من صفات المؤمنين أنهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يهجرون الفراش ، و يتوجهون الى ربهم بالعبادة و التبتل ، و الانفاق في سبيله ، مما يجعلهم أهلا لثوابه ، و هذا مما يخالف التمنيات و الآمال ، و يؤكد أن العاقبة الحسنى لا(١ (النجم / ٢٤

(2)نهج البلاغة / خ - 193ص ٣٠٣

تكون إلا بالسعي و العمل.

بينات من الآيات

[12]المؤمن هو الذي يرى المستقبل البعيد رؤية واضحة ، فاذا به يجتنب المهالك لانه يستضيء بنور عقله الذي يتقد بالوحي ، فيعلم يقينا بالنتائج التي ينتهي اليها منهج الانحراف عن الرسالة.

أما الكافر الذي أطفأ البصيرة في نفسه - لكثرة مخالفته عقله و ضميره - فهو لا يستفيد من رسالة ربه في معرفة الحقائق ، و يكون عرضة للاخطاء و المخاطر ، لأنه بمنطقه المادي البحت لا يهتدي الى النتائج الا بالتجربة ، و ماذا ينفع الانسان لو اكتشف خطا في مرحلة لا ينفعه ذلك كالآخرة ؟!

]و لو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم[

تعبيرا عن الذلة و الحسرة الشديدتين.

]ربنا ابصرنا[

الآن في الآخرة إذ رأينا الحقيقة.

]و سمعنا[

لعل معناه : رأينا بأعيننا ، و سمعنا عن ما رآه غيرنا ، أو معناه : رأينا الحقائق ، و سلمنا لها تسليما.

]فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون[

لقد كان بالامكان ان يصل هؤلاء الى هذا اليقين في الدنيا ، لو استفادوا منعقولهم ، أو اتبعوا رسالة الله ، و لكنهم لم يفعلوا ، و الله يؤكد على هذه الحقيقة في سورة التكاثر إذ يقول : " كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم " و لأن المتقين استفادوا من عقولهم و وحي ربهم فانهم عرفوا بأن منهج الكفر ينتهي الى النار ، بينما ينتهي منهج الايمان الى الجنة:

"فهم و الجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، و هم و النار كمن قد رآها فهم فيها معذبون ، ولولا الاجل الذي كتب الله لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين أبدا ، شوقا الى الثواب ، و خوفا من العقاب " (١)[١٣] [و لو شئنا لاتينا كل نفس هداها[

ولكن الهداية التي تنفع الانسان ، و تتفق مع الحكمة من الحياة الدنيا ، هي التي يصل اليها الانسان بعقله و ارادته ، و بالاستفادة من رسالة ربه اليه . ولو شاء الله جبر الناس على الهدى ، و كانت تنتهي بهم الى الجنة.

]ولكن حق القول مني لاملأن جهنم من الجنة و الناس اجمعين]و هذا القسم يدعونا الى الجد في الحياة ، و السعي لكسب الجنة ، و اجتناب النار الذي لا يمكن من دون العمل الصالح.

[14]ثم يؤكد القرآن ان حقيقة الآخرة مسجلة في ذاكرة الانسان الفطرية ، كما يمكن له ان يستنتجها بإعمال عقله ، و تصديق رسالة ربه ، إلا انه ينساها(١) المصدر

بسبب حجب الشهوات ، و الافكار الباطلة ، و من ثم لا يستعد لذلك اليوم بل يتمادى في الانحراف و العصيان ، فيستحق بذلك العذاب.

]فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم[

فلا ينصرهم الله و لا يرحمهم ، و ليس النسيان هنا بمعنى عدم العلم ، بل عدم العمل بما يقتضيه العلم ، خلافا لمعنى النسيان عند البشر كسائر الكلمات ، مثلا الغضب بالنسبة للانسان يعني وجود حالة من الثوران في نفسه ، بينما يعني بالنسبة الى الله النتيجة المترتبة على الغضب كالعذاب ، ذلك أنه تعالى تصدق عليه الغايات دون المبادئ.

و لعل نسيان الله للعبد أشد من اي عذاب آخر ، قال تعالى : " إن الذين يشترون بعهد الله و أيمانهم ثمنا قليلا اولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم " (١)و في الدعاء:

"فهبنـــي يا الهي و سيدي و مولاي صبرت على عذابك ؟! فكيف أصبر على فراقك ؟! و هبني صبرت على حر نارك ، فكيف أصبر عن النظر الى كرامتك ؟! ام كيف أسكن في النار و رجائي عفوك ؟! " (٢)ومن تضاعيف الآية يتبين وجود نوعين من العذاب ، الاول : هو العذاب النفسي المتمثل في نسيان الله ، و يشير اليه الشطر الاول منها وهو جزاء لنسيان الانسان ربه ، و الثاني : هو العذاب المادي ، و نجده في ختام الآية:

(1)آل عمران / ٧٧

(2)دعاء كميل

]و ذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون[

[15]ثم يأتي الحديث عن بعض صفات المؤمنين المهمة:

الاولى : التسليم و الخضوع للحق

]إنما يؤمن باياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا و سبحوا بحمد ربهم[

و المقصود من السجود هنا ليس معناه الظاهري و حسب ، بل حالة التسليم للحق التي يرمز لها هذا السجود ، و المؤمنون الحقيقيون لأنهم يبحثون عن الحق و الهدى فانهم يسلمون له بمجرد أن يذكروا به ، مهما كان ذلك مخالفا لاهواء النفس و المصلحة.

و توحي كلمة " خروا " - ا لتي جاءت من أصل خرير الماء ، و هو صوته عند نزوله (مثل صوت الشلال) كما يقول الراغب - الى ان المؤمنين يتلقون الارض بمساجدهم ، كما يخر الشلال ، و هم يولولون بالتسبيح لعمق تأثير الذكر فيهم ، بلى . كلما زادت معرفة البشر بربه ازداد معرفة بصغر نفسه و مدى حاجته ، و انعكس ذلك في صورة وقوعه لربه ساجدا.

و هكذا وجبت السجدة لله في أربع سور هذه واحدة منها ، اقتداء بأولئك الرجال الكرام الذين يخرون لربهم ساجدين .

]و هم لا يستكبرون[

فلسجودهم مظاهر خارجية اجتماعية ، بالاضافة الى الصفة النفسية التي يخلفها ، و من أبرز هذه المظاهر التواضع الاجتماعي ، الذي يمثل امتدادا للتسليم للحق.

الثانية : التبتل الى ربهم في الأسحار

] [16]تتجافى جنوبهم عن المضاجع[

انهم يقاومون النوم ، لعلمهم بأن الدنيا دار العمل ، و ليس دار الاسترخاء و الراحة ، و انها الفرصة الوحيدة التي يحدد الانسان فيها مستقبله الأبدي ، ولان المضجع هو حالة التوقف عن السعي و العمل فانهم يرفضونه ، و كلمة تتجافى آتية من الجفاء ، و هو بمعنى إنقطـــاع العلاقة بينهم و بين النوم ، وهذه الصفة نابعة من نظرتهم الجدية للحياة ، فكيف يصير الانسان اسير الفراش و هو يعلم بأن مستقبله قائم على ما يقدمه في هذه الحياة ؟!

]يدعون ربهم خوفا[

من النار فلا يقتربون من المعاصي ، لأنها تنتهي بهم اليها.

]و طمعا[

في الجنة . فتجدهم يبحثون عن كل عمل يوصلهم اليها . قال أمير المؤمنين (ع) في وصف المؤمن:

"لا يدع للخير غاية الا أمها ، و لا مظنة الا قصدها " (١(

الثالثة : الانفاق في سبيل الله

]و مما رزقناهم ينفقون[

(1)نهج البلاغة / خ - 78ص ١١٩

الامكانات و النعم التي يمن الله بها عليهم ، يفكرون في تحويلها الى زاد للآخرة ، أكثر من تفكيرهم في

استهلاكها ، و صرفها على أنفسهم ، و هكذا ينبغي للانسان أن يفكر في آخرته قبل تفكيره في دنياه : " و ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة " . (١(

[17]و بعد ذلك يشجع القرآن على الاقتداء بهذا الفريق من الناس ، حينما يذكر جزاءهم الحسن عن الله بإبهام ، والذي هو في موارده أمضى أثرا من التوضيح.

]فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون]فكلما وصفت الجنة كانت دون واقعها .أوليس فيها ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، و لا خطر على قلب بشر ؟! بلى . و إن نعم الجنة تقر عين اصحابها ، لأنها صافية من الأكدار ، و نفوس أهلها زاكية ، لا غل فيها ، و لا حقد و لا طمع.

و جاء في الحديث في تفسير هذه الآية عن الامام الصادق عليه السلام:

"ما من حسنة الا ولها ثواب مبين في القرآن ، الا صلاة الليل ، فإن الله عز اسمه لم يبين ثوابها لعظم خطرها " (٢)[١٨] و يذكرنا الرب بحكمته البالغة لنسف تمنيات البشر التي توهمه بانه من اهل الجنة ، و انه آمن من ان يكون من الفاسقين ، فيفقد الضابط الحق لسلوكه.

]افمن كان مؤمنا[

(1)القصص / ٧٧

(2)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٢٣٠

يعمل الصالحات ، و يستجيب لله و لاوليائه ، و يتحلى بتلك الصفات التي ذكرت آنفا.

]كمن كان فاسقا[

يقترف السيئات و الجرائم.

و يجيب القرآن أن ذلك محال ، و يخالف حكمة الله التي تتجلى في الخليقة أنى بصرنا بها.

]لا يستوون[

و هذه هي الإجابة الفطرية على التمنيات الباطلة التي تغزو فؤاد الانسان بعيدا عن ضوء العقل و قيم الوحي.

[19]و يفصل القرآن الحكيم القول ببيان الفروق العظيمة بين الفريقين:

]اما الذين آمنوا[

برسالة الله ، فاتخذوها منطلقا في حياتهم..

]و عملوا الصالحات[

يقينا منهم بأن الايمان وحده لا يكفي لخلاص الانسان ، و ضمان مستقبله.

]فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون[

مما يؤكد على أن هذه النتيجة كانت ثمرة للايمان و العمل الصالح ، و ليس للتمنيات.

[20]ثم يحدثنا السياق عن الفريق الآخر:

]و أما الذين فسقوا فمأواهم النار[

و الفاسق هو الخارج عن الصراط المستقيم ، الصراط الذي ينتهي الى جنة الله و رضوانه ، فالفاسقون إذن يصيرون الى النار ، و في الآيتين فكرة هامة هي : ان مستقبل الانسان رهين عمله في الدنيا ، فهو يستطيع ان يجعل مأواه الجنة ، كما يستطيع أن يجعله النار.

]كلما أرادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها[

لان الذي يخرج الانسان من النار هو ايمانه بالله و عمله الصالح ، و هؤلاء لا يملكون شيئا من ذلك ، ولهذا فلن يستطيعوا الخروج منها ، و يبدو أن اهل النار لا ييأسون من الخروج منها ، فاذا بهم يحاولون المرة بعد الأخرى الخلاص ، و لكن دون جدوى . و في الحديث:

"يقول المؤمنون - لاهل النار - : انظروا الى هذه الابواب ، فينظرون الى أبواب الجنان مفتحة ، يخيل اليهم أنها الى جهنم التي فيها يعذبون ، و يقدرون أنهم ممكنون أن يتخلصوا اليها ، فيأخذون في السباحة في بحار حميمها ، و عدوا بين ايدي زبانيتها ، و هميلحقونهم و يضربونهم بأعمدتهم و مرزباتهم و سياطهم ، فلا يزالون هكذا يسيرون هناك ، و هذه الأصناف من العذاب تمسهم ، حتى إذا قدروا أنهم بلغوا تلك الأبواب ، وجدوها مردومة عنهم ، و تدهدههم الزبانية بأعمدتها فتنكسهم الى سواء الجحيم " (١)(١) بح / ج ٨ - ص ٢٩٩

]و قيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون][٢١] كان بامكان هؤلاء ان يستدلوا على عذاب الآخرة بالعذاب الذي يجدونه في الدنيا ، و من ثم يقاومون عوامل الغفلة و النسيان ، فيؤبون الى رشدهم ، و يرجعون الى الحقيقة كلما أبتعدوا عنها ، و لكنهم لم يفعلوا ذلك.

]و لنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر]في تفسير نور الثقلين عن المجمع عن الامام الصادق (ع: (

"و أما العذاب الأدنى ففي الدنيا " (١(

و الذي من أهم أهدافه هداية الانسان الى الحقيقة:

]لعلهم يرجعون[

(1)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٢٣٢

و كانوا باياتنا يوقنون

هدى من الآيات

في الدرس الاخير من سورة السجدة ، يؤكد ربنا على صفة اليقين التي تجمع ارادة الانسان ، و عقله ، و قوة تصوره و خياله على محور الحق ، حتى لا يبقى لديه أدنى أثر من الهوى و ضعف الارادة ، فالانسان يعرف الحقائق بعقله و فطرته ، و لكنه يشكك فيها بهواه و افكاره الباطلة ، و يحتاج الى اليقين حتى يزول هذا الشك ، ذلك أن مراحل العلم عند الانسان هي التالية:

الاولى : المعرفة ، فالانسان يعرف ان للكون خالقا مدبرا ولكنه يبقى مشككا.

الثانية :الايمان ، حيث يسيطر العقل في معركته مع الهوى فتتبعه الارادة ، و لكن دون ان ينتهي الشك و الهوى عنده ، بل يبقى لهما أثر معنوي لا فعلي ، فتجد انسانا ما يشكك نفسه فيها ، لكنه يستمر يؤديها ، و يلتزم بها ظاهريا بأفعالها و أذكارها ، فهذا الرجلمؤمن أي ان نفسه سلمت لعقله تسليما عمليا.

الثالثة :اليقين ، حين يزول الشك عن قلب الانسان ، و يبقى مسلما عمليا و نفسيا تسليما محضا للمعرفة ، و لليقين بدوره درجات ثلاث هي : اليقين ، و حق اليقين ، و عين اليقين ، التي إذا وصلها الانسان حق له ان يقول كما قال الامام (ع: (

"و الله لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا "أو كقوله (ع: (

"ما رأيت شيئا قط الا و رأيت الله قبله و معه و بعده "او كقوله (ع: (

"الهي ما عبدتك خوفا من نارك ، و لا طمعا في جنتك ، و انما وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك "اما كيف يحصل الانسان على اليقين ، فان ذلك يكون بالمزيد من النظر الى آيات الله و التفكر فيها ، لان هذه الآيات اشارات ظاهرية الى الحقائق الكبرى في الحياة ، و التفكر السليم هو الذي يعبر بالانسان من خلال هذه الآيات الى الحقائق ، ذلك ان النظرة التي تنقل الانسان الى اليقين هي النظرة العبرية لا الشيئية ، و التي يمتزج فيها بصر الانسان مع بصيرته و عقله.

في البداية يجعلك التفكر تؤمن بربـــك ، و شيئا فشيئا يتحول هذا الايمان الى يقين ، و منه الى أعلى درجاته .و في الحديث:

"طوبى لمن كان نظره عبرة ، و سكوته فكرة "و بالاضافة الى ما تعطيه هذه النظرة من اليقين ، فانها تعطي الصبر كثمرة لهذا اليقين ، ذلك أن الذي يطمئن للعاقبة الحسنى ، التي يوصل اليها طريق الحق ، يصبر على عقبات الطريق ، و المؤمن يصبر على الصعاب بسبب يقينه مما يجعله أهلا لامامة الحق التي تقابل أبدا إمامة الباطل.

بينات من الآيات

[22]الانسان مزود بفطرة الايمان بالله ، إلا أنه ينسى أو يغفل بسبب الشهوات أو الافكار المضلة ، وإذ يبعث الله الرسل ومن يتبع نهجهم الى البشر لتذكيرهم ، و إزالة الحجب المختلفة عن فطرتهم ، و اثارة عقولهم الدفينة ، و أمام هذه التذكرة ينقسم الناس الى فريقين:

الاول : المؤمنون الذين يستجيبون للتذكرة ، لما يجدونه من توافق بينها و بين فطرتهم ، و ما تهدي اليه عقولهم ، و الآيات من حولهم.

الثاني : المعرضون ، ولا ريب ان لتلك الاستجابة و هذا الاعراض أثرا على نفس الانسان و تفكيره و سلوكه ، فبينما يتجلى ذلك التصديق في صورة الشخصية الربانية ، التي تسعى نحو الخير و العمل الصالح ، يبرز هذا الاعراض في صورة الشخصية الشيطانية التي تسعى نحو الظلم و الجريمة.

]و من أظلم ممن ذكر بايات ربه ثم أعرض عنها[

و لكن لماذا يصف القرآن المعرضين عن آيات الله بالظلم ؟

الجواب :لان الذي يحفظ الانسان عن الجريمة هو الدين ، بما يتضمنه من قوة معنوية ، و تشريعات صائبة تبعده عن الظلم بصوره المختلفة ، فاذا أعرض عن الدين سقط فيه . ثم أن الاعراض عن الدين بذاته ظلم ذاتي و عظيم لا يقع على الذاتفقط ، و انما يتجاوز الى الآخرين أيضا ، أرأيت من يشرب سما كيف يظلم نفسه باهلاكها ، و يظلم اقرباءه الذين يفجعهم بموته ، كذلك الذي يسكر ثم يسوق سيارته اولا يحطم نفسه و سيارته ، و يلحق الأذى بالآخرين.

هكـذا المعرضون عن آيات الله ، سوف يعرضون أنفسهم لنقمات الله العزيز الجبار ، لانهم يقترفون - باعراضهم عن آيات الله ، و عدم تسليمهم لأحكام الدين و حدود الشرعية - يقترفون اعظم الجرائم ، التي لابد ان ينتقم الله منهم بسببها.

]إنا من المجرمين منتقمون[

] [23]و لقد اتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه]إن أسمى هدف لرسالات الله هو رفع الشك عن قلب الانسان ، و الأخذ بقلبه الى مدارج اليقين بكل الحقائق التي يذكر بها الله في كتبه ، اليقين بلقاء اللـه ، و اليقين بالموت ، و اليقين بالجزاء ، و .. و .. ، و ذلك يعني تصفية العقل و النفس من آثار الاهواء.

و لن يؤدي المصلح هذا الهدف الا إذا كان بنفسه بعيدا عن الشك ليكون قدوة للناس ، و لذلك نهى السياق من المرية في لقاء الله ، بعد ان أنبأنا عن الكتاب الذي آتاه موسى لان كتاب الله يهدف التذكرة بالله ، و تأكيد حقيقة اللقاء بالله ، و هذا القرآن تذكرة بآيات الله فلا يحق لأحد أن يعرض عنها .فيعرض نفسه لانتقام الله الشديد.

و احتمل المفسرون معاني أخرى في ضمير " من لقائه " أيعود الى موسى و يدل على التقاء رسالة محمد برسالة موسى - على نبينا و آله و عليه السلام - ام يعود الى الكتاب ، لأن الرسول يتلقى القرآن كما تلقى موسى التوراة ، أو الى التوراة . أوليس تلقى موسى كتاب ربه.

بيد أن سياق سورة السجدة - بمجملها - يؤكد ما قلناه ، بالرغم من انه لا ينفي ما قالوه . أوليس للقرآن تخوم و آفاق عديدة ؟

]و جعلناه[

أي كتاب التوراة.

]هدى لبني اسرائيل[

شروط الامام:

[24]بعد ذلك يبين الذكر صفات الامام (القائد) وهي ثلاث:

الاولى : الهدى الى الله و بأمره ، و ليس الى نفسه أو حزبه أو وطنه ، أو .. أو .. و ما اشبه من الدعوات الجاهلية.

الثانية :الصبر ، و تحمل الشدائد ، فالقائد هو الذي تتبلور شخصيته في ميادين العمل الجهادي ، و سوح القتال في سبيل الله ، و ليس الذي يركب الموجة ، أو يتسنم صهوة الانتصار من دون عمل و خلفية جهادية ، و ربما لذلك كان الله يختار الانبياء و الرسل و الأئمةمن رحم الشدائد ، و عند اجتياز أصعب العقبات.

الثالثة : اليقين ، و ذلك يعني وصوله الى مستوى رفيع من الايمان بالله ، لا يهن بعده ، ولا يرتاب في طريق الحق ، سواء انتصر أو انتكس مرحليا.

]و جعلنا منهم ائمة[

يعني من بني اسرائيل و لعل كلمة " فلا تكن في مرية منه " التي وردت فيالآية السابقة هي الرابط بين هاتين الآيتين ، فكما كان موسى على درجة من اليقين أهله للنبوة ، فان أصحابه الذين اتبعوا هداه كانوا

على مستوى من اليقين جعلهم الله أئمة.

]يهدون بأمرنا لما صبروا و كانوا باياتنا يوقنون]جاء في الحديث المأثور عن الأمام الصادق - عليه السلام : -

"إن الأئمة - في كتاب الله عز و جل - إمامان : قال الله تبارك و تعالى " : و جعلناهم أئمة يهدون بأمرنا " لا بأمر الناس ، يقدمون أمر الله قبل أمرهم ، و حكم الله قبل حكمهم.

قال : " و جعلناهم أئمة يهدون الى النار "يقدمون أمرهم قبل أمر الله ، و حكمهم قبل حكم الله ، و يأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عز و جل " (١)[٢٥] و لكن بالرغم من وجود أئمة صالحين في أصحاب موسى (ع) كان هناك فريق يكفرون بالحق ، و هذا الاختلاف بين أتباع الرسل من بعدهم من الحقائق التي سجلها التاريخ بعد كل رسول ، و بينها الذكر لنميز بين الخطوط المختلفة ، عبر بصيرة الايمان التي توحي بالمقاييس المبدئية ، و التي هي عند الله ثابتة لا تتغير و سوف تتجلى يوم القيامة.

]إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون]ان معرفة الانسان بوجود محكمة عادلة ستقضي بالحق تزيد من قوة عقله أمام(١) المصدر / ص ١٦٧ نقلا عن كتاب الكافي / ج ١ - ص ١٦٨وساوس الشهوة و همزات الشياطين.

[26]أما عن سبب الاختلاف بعد الرسل ، فهو كما صرح القرآن في موضع آخر : الاهواء و المصالح ، إذ قال : " كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين و منذرين و أنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوهمن بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم . " ... (1)وفي هذه الآية يحذر الله الامة الاسلامية من الاختلاف ، و يدعونا للنظر في التاريخ ، لنعرف مصير الذين اختلفوا عن رسالات الله ، و ابتعدوا عن نهجها السليم ، مؤكدا أنه كما يفصل بينهم في الآخرة ، فقد يفصل بينهم في الدنيا بهلاك المنحرفين أو بنصر المؤمنينعليهم كما في الآية (٢٨ . (30 -

]أولم يهد لهم كم اهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم]و ينبغي لهم أن يستفيدوا من هذه الآثار عبرة في حياتهم ، فيجتنبوا عن الخطأ حتى لا يصطدموا بذات النتيجة - و هذه هي الآية المادية الظاهرة - ثم أن القرآن هو الآيات المعنوية التي تكشف عن الواقع ، و التي يجب الاستماع اليها و العمل بها.

]إن في ذلك لايات افلا يسمعون[

فتلك يرونها بأعينهم ، و هذه يسمعونها بآذانهم ، و لكن المطلوب أن تعقلها البابهم ، و تنعكس على حياتهم و واقعهم في صورة هداية.

(1)البقرة / ٢١٣

[27]و كما أن آيات الله في عالم الانسان تهدي الى هيمنته على الحياة ، و تدبيره لشؤونها ، فان آياته في الطبيعة تهدي الى ذات الحقيقة.

]اولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه انعامهم و انفسهم افلا يبصرون]هناك يقول : " أفلا يسمعون " لان الوسيلة التي تنقل للانسان التاريخ هي حاسة السمع أكثر من أي وسيلة أخرى ، و هنا يقول " : أفلا يبصرون " حينما يتحدث عن الطبيعة التي يبصرها الانسان قبل ان يسمع عنها.

و هذا من اساليب المنهج الالهي للوصول الى اليقين ، أنه يدعو الى النظر و التفكر في الآيات من حوله ، فخلفيات الاحداث التاريخية و الاجتماعية ، كما تجليات الحكمة في آيات الكـــون ، و كدورة المطر منذ البداية حتى سقوطه ، كلها تشير الى إله يدبر الحياة ، ويقدر أحداثها و شؤونها بقدرة مطلقة ، و حكمة

بالغة.

[28]فهو تعالى لا يستجيب لتحديات الكفار و المعاندين متى شاؤوا ، انما حيث شاء و متى اراد ، حسبما تقتضيه حكمته سبحانه.

]و يقولون متى هذا الفتح ان كنتم صادقين[

تحديا للمؤمنين ، و تكذيبا برسالة الله ، أما المؤمنون فانهم يثبتون على خطهم ، ولا يرتابون في وعد الله حتى لو تأخر بعض الوقت ، خلافا للطرف الآخر الذي يزيدهم الامهال ريبا ، و يشكل لهم عقبة فكرية.

[29]و ينسى هؤلاء أن الامهال لا يعني الاهمال ، انما يعني أحد أمرين:

الاول : ان الله يتيح لهم فرصة العودة للحق.

الثاني :إذا لم يستفيدوا من هذه الفرصة ، فان الامهال سيكون وبالا عليهم ، لأنه حينئذ يستتبع مزيدا من العذاب - كما و نوعا - تبعا لتماديهم في العصيان - كما و نوعا أيضا - " و لا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرا لانفسهم إنما نملي لهم ليزدادواإثما و لهم عذاب مهين " (١(

و يؤكد الله هذين المعنيين ، حيث يقول مخاطبا نبيه (ص: (

]قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا[

من قبل ، و تحدوا الله و رسوله و المؤمنين ، حينما تقتضي حكمة الله نصر أوليائه.

]ايمانهم[

لان الايمان الذي ينفع صاحبه ، هو الايمان النابع من الوعي بضرورته ، لا من السيف أو العذاب أو المصلحة.

]ولا هم ينظرون[

ان الايمان الناتج لا عن وعي بضرورته ، بل بسبب عامل مؤقت يذهب أدراج الرياح بمجرد زوال ذلك العامل ، فالذي يكف عن السرقة و الجريمة لان أنظار الناس تراقبه و ليس لوازع نفسي أو ديني ، فانه يعود اليها بمجرد علمه أو ربما ظنه بأنه صار بعيدا عن أعين الناس ،و هكذا لا يتقبل الله ذلك الايمان الذي يبادر اليه الكفار عند نزول العذاب.

[30]وفي نهاية السورة يؤكد القرآن على المؤمن ، أن لا يربط مصيره بمصير الكفار ، فاذا رأى مجموعة لا يؤمنون ، يتركهم و يستمر على خطه الايماني ، و ذلك(١) آل عمران / ١٧٨

حينما يوجهه الرسول لهذا الأمر.

]فاعرض عنهم[

اتركهم ولا تتاثر بهم.

]و انتظر[

وعد الله و نصره.

]إنهم منتظرون[

و من هاتين الآيتين نستفيد ثلاث أفكار:

الفكـرة الأولـى : أن انتظار الفرج من الواجبات الشرعية ، و من الاعمال الصالحة ، و في الحديث عن رسول الله (ص: (

"أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج"

لان الانتظار الذي يعنيه الحديث ، هو البقاء على الخط السليم ، صمودا أمام المشاكل و المصاعب ، من دون التشكيك في الحق ، وهو احد معاني الصبر الذي لا يمكن الا بالانتظار ، لان الذي ينتظر المستقبل ، و يتألق قلبه بأمل الانتصار لا يضيق صدره . فيكون صابرا ،بل و يستهين بالمشاكل ، إذ يعتبرها خيرا له من حيث أنها تصقل إرادته و فكره و شخصيته.

الفكرة الثانية :من الخطأ ان يقتصر إيمان الانسان على الاشياء الظاهرة ، أو يعتقد بأنه مسؤول عن ذلك فقط ، فقد من الله عليه بنعمة العقل لكي يرى به المستقبل من خلال الظواهر و المقدمات المنطقية ، و إلا فما هي الحاجة الى العقل ؟!

والله يرفض الايمان الذي يكون وليدا للواقع المفروض كالعذاب ، و لا يعطي أصحابه فرصة أخرى إذ يفترض في الانسان أن يستفيد من عقله ، و يتعرف على النتائج من خلاله ، أو بتصديق رسالة ربه ، أما الذي لا يهتدي لا بالعقل ولا بالوحي و يرفض الاثنيـــن فان مصيـرهالعذاب ، لأنه لم ينتفع من موهبة عقله الذي هو بدوره جوهر انسانيته.

الفكـرة الثالثـة : ان الدنيا فرصة إذا خسرها الانسان فسوف لن تعود له مرة أخرى ، و الامام علي (ع) يقول :

"اغتنموا الفرص فانها تمر مر السحاب"

اذن فموقف الانسان من النتائج - بعد السعي - هو الانتظار ، أما موقفه من الفرص و الزمن فهو الاستعجال مع التخطيط.

سورة الاحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

روي عن الامام الصادق عليه السلام انه قال:

:من كان كثير القراءة لسورة الاحزاب كان يوم القيامة في جوار محمد (ص) و ازواجه " (تفسير نور الثقلين / ج ٤ - ص ٣٣٣(

الاطار العام

الإسم

و اتخذ اسم الاحزاب لهذه السورة من قصة حرب الخندق ، حيث تحزبت قريش و اليهود ضد المسلمين ، فرد الله كيدهم ، و لعلها كانت أعظم خطر درأه الله سبحانه عن رسالته.

حقائق شتى تذكرنا بها سورة الأحزاب الا ان محورها - فيما يبدو للمتدبر فيها - ترسيخ دعائم القيادة الرسالية في الامة ، التي هي ذروة الدين ، و سنام الشريعة ، و الامانة الكبرى التي عجزت عن حملها السموات و الارض و الجبال ، و حملها الانسان فظلم نفسه بها.

و تجري آيات السورة عبر هذا الإطار لتذكرنا بشخصية القائد الرسالي ، الذي يتعالى - بتوفيق الله و عصمته - على قوى الضغط الاجتماعية ، فهو يتقي الله ولا يطيع الكافرين و المنافقين ، و يتبع وحي الله ، و يتوكل عليه.

و ينقل لنا السياق قصتين ، إحديهما شخصية و الثانية عامة:

الف :فمن خلال قصة زيد الذي تبناه الرسول ينفي الذكر الحكيم عادة جاهلية كانت سارية حتى نقضها الاسلام بالقرآن و عبر تحدي شخص الرسول لها ، و هي إلحاق الولد بمن تبناه ، دون من كان من صلبه ، و نستوحي منها أمرين:

أولا : إن الرسول ليس أبا لزيد ، و لا يحق له ان يدعي القيادة بهذا العنوان.

ثانيا : ان النبي يتحدى شخصيا عادات الجاهلية ، و يتحمل الأذى في ذلك مما يبين صفة التحدي عند القائد الرسالي.

و يكمل السياق بيان شخصية القائد بأن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، و أن أزواجه أمهات المؤمنين ، وأن أولي الارحام - و هم هنا أبناء الرسول من صلبه - بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، و هكذا يرسم الخط القيادي للامة من بعد الرسول.

و يؤكد على الميثاق الذي أخذه الله من النبي كما أخذه من أولي العزم من الرسل قبل ان يحملهم الرسالة ، و لعل أعظم بنود الميثاق :عدم الخضوع للمنافقين و الكافرين ، و إخلاص الطاعة لله.

باء : ومن خلال قصة الأحزاب ، يبين السياق صفات القيادة الرسالية و كيف يجب ان تتبع في الساعات الحرجة ، والا تخور عزيمة المؤمنين في طاعتهم لها بمجرد تعرضهم لابتلاء شديد ، و كيف ينبغي أن يتخذ الرسول أسوة حسنة.

بلى .ان الطاعة حقا تتبين عند مواجهة الأخطار ، و على الناس ان يرفعوا بطاعتهم للرسول الى هذا المستوى ، و لا يكونوا كالمنافقين الذين يستأذنون الرسولقائلين : إن بيوتنا مكشوفة ، ففضحهم الله بأنهم لا يريدون إلا فرارا .

و من خلال كشف القرآن لصفات المنافقين يحذرنا من الوقوع في مهلكة النفاق عند مواجهة الخطر.

كما انه يبين لنا مدى رسوخ ايمان المؤمنين الصادقين ، عندما قالوا - و هم يرون امواج الاحزاب تترى على المدينة لاقتحامها - : هذا ما وعدنا الله و رسوله و صدق الله و رسوله ، و ما زادهم إلا إيمانا و تسليما.

و بعد بيان صفات المؤمنين الصادقين و جزاءهم الحسن ، يبين كيف رد الله الكافرين على أعقابهم ، و كيف أنزل اليهود من قلاعهم و أورث المسلمين أرضهم و ديارهم.

و يعود السياق لبيان احكام نساء النبي ، و يخيرهم بين التشرف بخدمة الرسول أو التعلق بزينة الدنيا ، و ان من يرتكب منهن فاحشة يضاعف لها العذاب ضعفين (لمكانتها من رسول الله) كما ان من تقنت منهن و تعمل صالحا تحصل على الأجر مرتين.

و نستلهم من كل ذلك كيف يجب ان يكون بيت القائد الرسالي نظيفا من الطمع ، و بعيدا عن اختراق القانون.

ثم يأمر القرآن نساء النبي بأوامر مشددة في عدم الخضوع بالقول ، و يأمرهن بأن يقولن قولا معروفا ، و الا يخرجن من بيوتهن ، و لا يتبرجن تبرج الجاهلية الاولى.

و يبين السياق فضيلة آل بيت الرسول ، الذين أذهب الله عنهم الرجس ، و طهرهم تطهيرا ، ليبين الخط الرسالي بعد رحيل النبي الذي لابد ان يلتف المسلمونحوله.

و يعود الى نساء النبي و كيف يجب عليهن أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من آيات الله و الحكمة.

و يذكر القرآن صفات المؤمنين و المؤمنات ، لتكون مثلا أمامنا و مقياسا لمعرفة الناس ، و يبين ان ابرز صفاتهم جميعا : التسليم لقضاء الله و رسوله ، و لعل التسليم للقضاء أسمى مراتب التسليم للقيادة ، و أعلى درجات الايمان بعد الثبات في الحرب.

و يبين الذكر قصة زواج الرسول من مطلقة زيد ، لينقض الله عادة جاهلية كانت تقضي بان الدعي ابن ، و انه لا يجوز النكاح من مطلقته.

و يبين ان النبي بشر ، و أنه لا حرج عليه فيما فرض الله له.

و يصف النبي و مــن مضى على نهجه ممن يبلغ رسالات ربه بانهم يخشونه وحده ، و لا يخشون أحدا غيره.

و يبين ان أعظم علاقة توصل الامة برسولهم هي رسالته اليهم ، و انه ليس محمــد (صلى الله عليه و آله و سلم) أبا أحد من رجالهم ، و لكنه الرسول و خاتم النبيين.

و لكي يتقرب الناس الى مقام الرسول فعليهم ان يتقربوا الى ربهم زلفى ، و عليهم ان يذكروا الله كثيرا و يسبحوه بكرة و أصيلا ، فهو الذي يصلي عليهم و ملائكته ليخرجهم من الظلمات الى النور.

و يعود الى ذكر صفات النبي السامية فهو الرسول الشاهد ، و المبشر النذير ، و الداعي الى الله بإذنه ، و السراج المنير ، و ان من آمن بالله و برسوله يحصل على فضلكبير.

و يكرر ما ذكر به في أول السورة من رفض طاعة الكفار و المنافقين ، و ترك أذاهم.

و بعد ذكر حكم شرعي عام في الطلاق يقضي بضرورة إعطاء المهر (لدى الاتفاق عليه) و إعطاء شيء تمتع به المطلقة لدى عدم الاتفاق على المهر ، فلابد إذا من ثمن للبضع ، بعدئذ يبين ميزة للرسول هي : إن المرأة لو وهبت نفسها للرسول كان له ان يتقبلها من دون مهر، بعكس سائر المؤمنين ، و انه - صلى الله عليه وآله وسلم - يرجي من نسائه من يشاء ، و يأوي اليه من يشائ ، و انه لا يحل له النساء من بعد.

و يؤدب السياق المسلمين و يأمرهم بأن لا يذهبوا الى بيت الرسول ينتظرون الطعام ، و لا يجلسوا بعد دعوتهم اليه و اطعامهم مستأنسين لحديث ، و يبين أن ذلك يؤذي الرسول ، و ان عليهم الا يطلبوا من نساء النبي حاجة إلا من وراء حجاب ، و يبدو أن ذلك ايضا مما يخصنساء النبي اذ يجوز لغيرهن التحدث مع الرجال مباشرة إذا حافظن على سترهن.

و تختص نساء النبي أيضا بحرمة نكاحهن بعد وفاة الرسول.

بلى . لا جناح عليهن في التعامل مع الاقرباء ، و مع نسائهن أو أمهاتهن.

و هكذا يسرد السياق خصائص الرسول ، مما يكشف عن جانب من عظمته ، ثم يأمر بضرورة التواصل

معه عبر الصلاة عليه ، أوليس الله و ملائكته يصلون عليه ، فيجب الصلاة و السلام عليه ، ولابد من التسليم له و طاعته.

و يلعن القرآن الذين يؤذون رسول الله ، سواء ببث الشائعات ضده أو ضد نسائه أو بأذى ذريته و يتوعدهم بعذاب أليم في الآخرة.

و يبين جانبا من أذية المنافقين للرسول ، و ذلك حين ينهى نساء النبي و سائر نساء المسلمين من عدم مراعاة الستر تماما ، مما يجعلهن يعرفن و يوذين.

و في ذات الوقت يوجه تهديدا شديدا الى المنافقين ، و مرضى القلوب ، و المرجفين من الإستمرار في اذى الرسول ، و ينذرهم بطردهم و قتلهم ، و لكي ينصحهم يحذرهم من القيامة و يبين ان الناس يسألون عن الساعة ، فيقول : لعل الساعة تكون قريبا ، و يبين لعن الله للكفار حيث يخلدون في السعير ، لا يجدون وليا ولا نصيرا ، هنالك حين تقلب وجوههم في النار ، و يتمنون لو كانوا يطيعون الله و الرسول ، و يحاولون إلقاء اللوم على السادات و الكبراء الذين أضلوهم السبيل.

و ينذرهم السياق - مرة أخرى -بعاقبة الذين آذوا موسى فلم يحصلوا على شيء ، لان الله كان قد جعل موسى وجيها ، فما قيمة أذاهم ؟!

و يأمر الله المؤمنين بالقول السديد (البعد عن التهمة و السب) ، و يعدهم بالمغفرة ، و يبين أن من اطاع الله و رسوله فقد فاز فوزا عظيما.

و يبين أن الطاعة للرسول ، ولأولي الأمر من بعده هي الأمانة الكبرى التي أشفقت السموات و الارض و الجبال مـــن حملها ، بينما حملها الانسان و كان ظلوما جهولا ، حيث ان المنافقين فشلوا من احتمال الامانة ، فعذبهم الله بينما تاب على المؤمنين و المؤمنات ، وكان الله غفور رحيما.

و اتبع ما يوحى اليك من ربك
هدى من الآيات
تبحث سورة الأحزاب في معظم آياتها الثلاث و السبعين ، موضوع المنافقين في المجتمع الاسلامي ، كما تتناول في جانب منها الإقدام و الشجاعة الإيمانية في الحروب ، و التحديات التي تواجه الامة.

تبدأ السورة بحث الرسول على تقوى الله ، ثم تذكره ببعض تعاليم الاسلام حول الأسرة ، و الخطاب بدوره يعن كل مسلم يتلو القرآن و يؤمن به ، و تؤكد السورة في مطلعها ضرورة التقوى للرسول (القيادة) ، و ان لا يطيع الكافرين و المنافقين ، لأن القيادات على نوعين : الاول : القيادة الرسالية ، و الثاني : القيادة السياسية.

القيادة السياسية هي تجسيد لمجمل الاوضاع السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و النفسية و الثقافية التي تعيشها المجموعة التي تظلها هذه القيادة و تشرف عليها ، و نجد اشارة لهذه الحقيقة في الحكمة المعروفة " كما تكونون يولى عليكم " ، فالقيادة

التي تتحكم في المجتمع صورة أخرى لما هو عليه تتجلى في شخص أو حزب أو جماعة.

أما القيادة الرسالية فهي التي تشرف على الناس ، تربية و تعليما ، من دون ان تتأثر بسلبياتهم ، و مثالها قيادة الانبياء و الأئمة ومن يتبع خطهم . و هذه القيادة تصطدم بعقبة كأداء هي سلبيات المجتمع ، فبينما تريد قيادته ان تفرض الرسالة الالهية باتجاه معين ، تضغط عليها المتغيرات اليومية في الاقتصاد و السياسة و المجتمع و .. و .. باتجاه آخر ، و هنا تواجه القيادة إشكالية كبيرة ، فهي اما تلتزم بخطها الرسالي فينفض الناس من حولها ، و اما تخضع لاهوائهم و ضغوطهم ، فتحافظ على تأييدهم ، و لكنها تنحرف عن مسيرتها الحقة.

و الامام علي (ع) حينما واجه هذه الإشكالية اثناء حكمه ، كان بإمكانه تفريق الاموال و الرشاوي على الناس ، و إخضاعهم رغبا و رهبا ، و لكنها كانت تفسد ضميره - حاشا لله - لذلك لم يفعل و قال:

"و انـي لعالم بما يصلحكم ، و يقيم أودكم ، و لكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي " (١)فالقيادة اذا احوج ما تكون الى التقوى حتى تستقيم أمام الضغوط ، و إنما تؤكد هذه الآيات على التقوى ، لأنها تبحث موضوع الحرب التي تجسد ذروة الصراع ، و أصعب ما يواجه البشر في حياتهم ، و من ثم أبرز و أهم قضية تتعرض فيها القيادة لضغوط المنافقين و الكفار، و حتى بعض أبناء المجتمع المسلم ، و لكي تتحصن القيادة ضد هذه الضغوط لابد من التقوى ، و التوكل على الله.

و بعد ذلك ينعطف السياق نحو قضية أسرية ، مما يثير السؤال : ما هو الرابط بين(١) نهج البلاغة / خ 69 -ص ٩٩

القضايا الأسرية ، و قضية إجتماعية كتحدي ضغوط الكفار و المنافقين في الحرب ؟!

و الجواب : إن الأسرة هي المدرسة الأولى التي تصوغ حياة الانسان في بعديها المادي و المعنوي ، و يجب ان يكون هدفها في المجتمع الاسلامي بناء الانسان الصلب الذي لا يتأثر بالضغوط الخارجية ، و لا يخضع للشهوات ، و القادر على خوض الحروب باستقامة و وعي ، دفاعا عن المبادئ و المجتمع ، في حال تعرضهما للخطر . لذلك حينما يحدثنا القرآن عن الاستقامة ، و عن الايمان الكامل و القيادة الرسالية ، يحدثنا كذلك عن الأسرة ، التي ينبغي ان تربي المؤمن المستقيم.

و في سورة " المؤمنون " رأينا كيف أن ربنا حينما حدثنا عن الطراز المتكامل للانسان المؤمن ، كان يحدثنا أيضا عن الأسرة الصالحة ، و هي منبت الايمان ، و مزرعة التقوى ، و مدرسة الأخلاق الفاضلة في سورة " النور. "

و في نهاية الدرس يؤكد القرآن على أن الأسرة نظام فطري يزكيه الاسلام و يؤكده ، و ليست نظاما اعتباريا أو قانونيا فقط ، و بتعبير آخر لا يمكن طريق القانون ، أو ما يسمى في لغة الحقوقيين الإتفاق أو العقد الإجتماعية أن تلغي الأسرة ، لانها من الحقائق الفطرية ، فزوجة الانسان لا تضحى أمه أو أخته.

و بذلك يخالف الاسلام العادة الجاهلية التي كانت تقضي ، بأن يتعامل الانسان مع زوجته ، كتعامله مع أمه أو أخته ، بمجرد ان يقول لها : انت علي كظهر أمي ، أو كظهر أختي ، أو العادة الاخرى التي تقتضي بأن يكون الواحد ولدا للآخر لأنه رباه ، حتى لو كان قـــدعثر عليه في الطريق ، و يبين القرآن انه لا يكون ولدا له ، بلى . انه أخ له في الدين ، و تربطه به علاقة الولاية ، ان لم يعرف والده.

و لعل تأكيد القرآن على هذا الأمر يهدف إيجاد حدود للأسرة ، و إعطائهااعتبارها الحقيقي ككيان فطري ، يتكون من أم و أب و أولاد ، يجب الالتزام به ، بعيدا عن التلاعب بالألفاظ بأن نضع أشياء جديدة ، و نسميها أسرة ، و بعيدا عن الاستهانة بالروابط الفطرية ، بأن نوجد روابط خارج هذا الإطار.

بينات من الآيات

]بسم الله الرحمن الرحيم[

كما سبق و ان ذكرنا ، بان للبسملة معاني عديدة و دقيقة في كل سورة ، تتصل بموضوعها ، و ما يؤكد ذلك انها تنزل مع كل سورة بصورة مستقلة ، وهي هنا تعني : باسم الله تبدأ طريقك متوكلا عليه ، و باسمه تدخل الصراع فلا تخضع للضغوط ، و لا تستجيب للإغراءات ، و باسم الله تبني الأسرة الصالحة.

] [1]يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين و المنافقين]و عادة حينما تأتي في القرآن أوامر صعبة ، و هكذا في النصوص الاسلامية يسبقها أو يلحق بها الوصية بالتقوى ، و السبب ان تطبيق الأوامر الصعبة و الإستقامة عليها يحتاج الى دافع قوي و إرادة صلبة ، يجدها المؤمن في تقوى الله.

واذ يستهل القرآن الحديث بهذه الآية الحادة ، و يسمي من يحاولون تثبيط الرسول عن المواجهة مع

الكفار - في ظرف أحوج ما تكون الأمة الى الدفاع عن كيانها -بالمنافقين و الكفار ، لان الاستجابة لهؤلاء خطيرة جدا ، و من شأنها القضاء على الامة و الرسالة الاسلامية.

]إن الله كان عليما حكيما[

و تفيد الخاتمة هذه أمرين:

- 1ان الله يعلم أهداف المنافقين و الكافرين ، من ضغوطهم على الرسول ، و ما ينتهي اليه الأمر من فساد لو يطيعهم ، فهو حكيم اذ ينهى نبيه (ص) عن الخضوع لهم.

- 2ان الله حين يذكر هاتين الصفتين بعد ان يأمر بالتقوى و ينهى عن طاعة المنافقين و الكافرين ، فلأن التقوى تنبع من إحساس الانسان بإحاطة الله له علما ، و لأن الطاعة تأتي من الاعتقاد بأن الذي يأمره حكيم في أمره.

[2]ان هدف هؤلاء من الضغط على الرسول هو صده عن رسالة ربه لهذا حث القرآن بعد ان نهى النبي عن الطاعة لهم ، على الالتزام بالوحي فقال:

]و اتبع ما يوحى إليك من ربك[

يتجلى واقع القيادة في الظروف الصعبة فيعرف مدى توكلها على الله ، و وعيها للامور ، و تصديها لمسؤولياتها .

فالقيادة الرسالية هي التي تتبع أمر الله و رسالته ، و تستقيم عليها ، في مختلف الظروف ، دون ان تستجيب لما يقوله الآخرون مما هو مخالف للرسالة ، و هنا نؤكد بان الضغط الذي تواجهه القيادة داخليا ، من قبل المجتمع بقطاعيه العام أو الخاص ، أشد و أصعب من الضغط الخارجي ، لان انهيار الجبهة الداخلية التي تعتمدها القيادة أخطر من أي شيء آخر ، و دور القيادة و أهميتها تبرز في تصديها لعوامل هذا الانهيار و علاجها له ، و ليس الانسياق معه . و حينما يعتبر القرآن الشورى ضرورية و يأمر بها القيادة الرسالية ، لا يغفلحقيقة هامة ، اذ يقول : " و شاورهم في الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله " فالقيادة هي التي تعزم و تقرر ، و لكن ليس وفق اهواء الآخرين ولا حتى اهوائها ، انما وفق هدى الله و وحيه.

]إن الله كان بما تعملون خبيرا[

و كفى بهذا باعثا للانسان نحو تقوى الله و خشيته.

و لعل اسم الخبير يوحي بمعرفة حقيقة العمل صالح او فاسد.

] [3]و توكل على الله[

لكي تتمكن من الاستقامة ، و تحدي ضغوط الآخرين.

]و كفى بالله وكيلا[

و قد تكررت هذه الفكرة عشرات المرات في القرآن ، أن يذكر الرسول بالتوكل و عدم اتباع اهواء الآخرين ، فليست مشكلة القائد ان يتبع هواه ، بمقدار ماهي اتباع اهواء المحيطين به ، لانه يجسد الروح الجمعية في من يقودهم ، فهو عادة ما يتجرد عن هواه ، و لكنه يخضع لاهواء تلك الروح التي يجسدها بقيادته ، و لذلك نجد التعابير القرآينة تؤكد على هذا الخطر : " و لا تطع الكافرين و المنافقين " (١) ، " ولا تتبع اهواءهم و احذرهم ان يفتنوك (2) " ، "و لا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق " (٣)... الخ.

[4]ثم يظهر السياق رفض الاسلام للإزدواجية في الشخصية اذ يقول:

]ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه[

(1)الاحزاب / ١

(2)المائدة / ٤٩

(3)المائدة / ٤٨

فاما ان يتلقى توجيه المنافقين و الكفار ، أو يتبع رسالة الله ، أما الالتقاط فهو مرفوض في منطق الاسلام ، فكما ان قلب الانسان واحد و عواطفه واحدة ، كذلك يجب ان تكون حياته منسجمة مع بعضها ، و بتعبير آخر يجب ان يرعى البشر الفطرة التي خلقها الله فيه ، وهو يضع القوانين لنفسه . و يربط القرآن بين هذه الفكرة و بين قوله تعالى حاكيا عن الأسرة:

]و ما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم[

فكما لم يجعل الله لرجل قلبين في جوفه ، فلا يستطيع أن يحب و يكره رجلا بصورة شاملة في آن واحد ، ولا ان يفكر في أمور متعددة في وقت واحد ، كذلك لا يمكن ان يجعل زوجته و أمه امرأة واحدة ، فيجب ان يكون الامر حسب الواقع الفطري الطبيعي لا حسب ما يقرر الشخصنفسه.

و الظهار الذي تشير اليه الآية هو قول الرجل لزوجته : انت علي كظهر أمي ، أو كظهر أختي . و هذه من العادات الجاهلية ، كما توجد عادة أخرى و هي جعل الآخرين ابناءا لمن يتبناهم ، لكن القرآن لا يقرها بل يرفضها.

]و ما جعل أدعياءكم أبناءكم [

فالابن لا يصير دعيا لوالده ، و الدعي لا يصير ولدا لمن يدعيه ، و تبين الآية ان هذه العادة ليست مما يتفق مع تعاليم الله ، و لا فطرة البشر ، انما هي من بنات افكار الناس أنفسهم:

]ذلكم قولكم بأفواهكم[

و لو عدتم الى قلوبكم و فطرتكم لرفضتم ذلك ، و قلب الانسان لا يمكن ان يحسفي داخله بان الدعي ولدا له ، و لو قال ذلك الف مرة بلسانه ، لان القلب شيء آخر يميز الابن الحقيقي عن غيره ، و لا يتمكن ان يخرق القوانين الفطرية ، ببعض القوانين الاعتبارية ، لأنها تفقد قدرة التنفيذ باعتبارها ظاهرية لا قلبية .

]و الله يقول الحق[

و الحق هو القانون الفطري ، و الحقيقة الخارجية ، و هذه صفة القرآن فهو كتاب الله الذي ينطبق على كتاب الطبيعة ، فكما تذكرنا الطبيعة بآيات القرآن و تهدينا لها ، فان الله يذكر عبر آياته بسننها و قوانينها.

]وهو يهدي السبيل[

السليم ، و الصراط المستقيم ، و (ال) التعريف تحدد هذا السبيل ، انه ليس اي سبيل كان ، بل هو السبيل القويم .

[5]ثم يبين القرآن حكم اللقيط ، و هو يخالف ما عليه الجاهلية من نسب اللقيط الى من يربيه و يتبناه حيث يقول:

]ادعوهم لأبائهم[

الحقيقيين الذين انحدروا من صلبهم.

]هو أقسط عند الله[

أصح لانسجامه مع شريعة الله ، و فطرة البشر ، بينما كان الجاهليون يخالفون هذا الأمر و ينسبون الرجل الى من تبناه ، حتى لو كان أبوه شخصا آخر ، و كان من عادتهم اذا افتقر احدهم أن يدفع أولاده الى من يعولهم فيصير الآخر والدهم في عرفالناس ، و لكن هل يغير هذا من الواقع الفطري شيئا ؟ كلا .. فأبو طالب حينما اعطى ولده عليا (ع) للنبي (ص) بسبب فقره ، لم يصبح عليا ولد الرسول ، و كذلك الأمر بالنسبة لزيد ابن حارثة ، الذي نسبه الناس للنبي ، فأنزل الله آية في أمره . (١)[فإن لم تعلموا ءاباءهم]

و تعرفوهم.

]فإخوانكم في الدين[

اخوة سببيون و ليس نسبيين ، فهم لا يرثون منكم.

]و مولاكم[

و المولي هو الشخص الذي ينتمي الى عشيرة أو أسرة ، لانه لا عشيرة له ، فيسمى مولى لهم ، و يختلف عن العبد بانه صاحب ولاية ، وله تسميات أخرى كالدخيل و اللحيق . اذن فعدم معرفة والده ، لا يغير من الواقع شيئا.

]و ليس عليكم جناح[

أي ذنب.

]فيما أخطأتم به[

أيام الجاهلية ، لأن الاسلام يجب ما قبله ، أو إذا أخطأتم الآن اذا لم يكن عن عمد.

(1)الاحزاب / ٣٧

]و لكن ما تعمدت قلوبكم[

في نسبة الابناء الى غير آبائهم الحقيقيين ، فذلك محاسبون عليه.

]و كان الله غفورا رحيما[

يغفر للعبد اخطاءه ، اما الانحرافات المتعمدة ، و التي يصر عليها فانها لا تغفر.

[6]وفي الآية الاخيرة من هذا الدرس يركز القرآن على فكرة حساسة و ذات أهمية بالنسبة للمجتمع المسلم ، في أبعاد حياته المتعددة ، حيث يبين بأن القانون الرسالي يقتضي ان تكون القيادة الرسالية

مقدمة على كل شيء ، اما الأسرة فهي تأتي في المرتبة الثانية ، فاذا ما تعارض قرار القيادة مع قرار الأسرة فالواجب اتباع القيادة ، لانها أقرب الى كل فرد فرد من أبناء المجتمع و التجمع ، بل هي أقرب للفرد من نفسه ، وفي مجمع البيان ان النبي (ص) " لما أراد غزوة تبوك أمر الناس بالخروج قال قوم : نستأذن اباءنا و امهاتنا ، فنزلت هذه الآية " (١(

]النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم و أزواجه أمهاتهم]وفي المرتبة الثانية تكون العلاقة الاسرية هي الاسمى.

]و اولـوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين و المهاجرين [أما الرحم الذي لا يتصل معك بعلاقة الدين فهو مقطوع في الاسلام ، كالارحام التي لم تكن تهاجر أو الرحم الكافرة ، ولا يعني هذا ان يؤذي المسلم والديه أو(١) نور الثقلين / ج ٤ - ص ٢٣٧ - رقم ١٣

عموم رحمه لكفرهم ، بل ان القرآن يحث على الاحسان اليهم ، فهم ان انقطعت معه علاقتهم الدينية فإنه تجمعه بهم العلاقة الانسانية التي يقرها الاسلام.

]إلا ان تفعلوا إلى أوليائكم معروفا[

فذلك يقبله الله ، و يشجع عليه القرآن.

]كان ذلك في الكتاب مسطورا [

إنه قانون مسطور في كتاب الله.

و كان عهد الله مسؤولا
هدى من الآيات

الميثـــاق الذي أخذه الله عز و جل من النبيين ، و عبرهم من الصديقين و الأولياء ، هو العهد الذي وافق عليه كل انسان في عالم الذر ، حيث استنطقه الله بعد ان الهمه العقل " و اشهدهم على أنفسهم لست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا " وكان الهدف من هذا الميثاق - كما توضحه نفس الآية - هو إقامة الحجة على الخلق " ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين او تقولوا انما اشرك اباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون " . (١)و كل من لبى قبل الآخرين كان اقرب الى الله ، فيزوده بنور العلم و الرسالة ، و كانوا هم الرسل و الانبياء و الاوصياء و الاولياء ، قال الامام الصادق (ع: (

"لما أراد الله ان يخلق الخلق نثرهم بين يديه فقال لهم : من ربكم ؟ فأول من(١) الاعراف / ١٧٢

نطق رسول الله (ص) و امير المؤمنين و الأئمة عليهم السلام فقالوا : أنت ربنا ، فحملهم العلم و الدين ، ثم قال للملائكة : هؤلاء حملة ديني و علمي ، و امنائي في خلقي ، و هم المسؤولون " (١)ثم اتخذ الله ميثاقا آخر من رسله قبل ان يبعثهم بالرسالة ، و كان هذا الميثاق بقوة الميثاق الاول.

و من يبعث رسولا يتخذ منه الميثاق ، لكي يتحمل الرسالة بكل أمانة ، و لان النبي يتعرض لانواع الضغوط ، يجب ان لا يخضع للظروف و الوسط الاجتماعي ، فان الله يذكره بين الحين و الآخر بذلك الميثاق عبر آيات ، بالرغم من ان النبي منصور من عند الله بالوحي و بروح القدس ، ذلك الملك العظيم الذي يؤيد الله به انبياءه و الأئمة ، ولعل الوحي كما روح القدس لم يكن أرفع شأنا من القرآن ذاته ، لانه كلام الله . و هل رفعت درجة الوحي الا بكونه الواسطة التي تحمل القرآن الى النبي ؟ و هل منزلة الرسول (ص) الا بتجسيده كتاب الله و حمله له ؟

و القرآن أعظم مؤيد للرسول و لمن يتبعه ، لانه يثبت قلوبهم ، و يزيد في ايمانهم و توكلهم على الله ، بما يذكر به من الآيات و السنن الالهية ، و الحوادث السابقة التي تكشف عنها ، و القرآن موجود بين أيدينا ، فيمكننا ان نستوحي منه بصائر الحياة و العمل ، ونستمد منه العزيمة و الايمان و التوكل ، و نحن

نسير في خط الانبياء . و لما كان الرسول يواجه ضغوط المنافقين و الكفار ، و يستعد لحرب الأحزاب التي تجمعت و اتحدت ضده ، جاء القرآن تأييدا له على الاستقامة أمام كل ذلك ، فكان لابد من تذكيره لميثاقه مع ربه ، على العبودية و الاخلاص له ، مما يستوجب عدم الانهيار أمام هذه الضغوط ، باعتباره يناقض الميثاق.

(1)نور الثقلين / ج ٢ -ص ٩٢ - رقم ٣٣٧

ثم يذكر السياق بقصة الأحزاب التي تشتمل على كثير من العبر و الحكم التي من بينها:

الحكمة الأولى : تأييد الله للمؤمنين ، فقد أيد الله رسوله و المسلمين في هذه الحرب بجنود لم يروها ، قيل انها الملائكة ، و قيل هي الريح التي سلطها على الاحزاب ، و قد تكون الرعب الذي قال عنه الرسول (ص: (

"نصرت بالرعب مسير أربعين يوما"

أو هذه جميعا.

المهم ان الانسان مهما يهيء من الوسائل المادية ، فقد تتأثر بعوامل لا يستطيع ضبطها ، و هي ما نسميها بالصدف ، أو هامش الاحتمالات.

و الكفار حينما ساروا لحرب المسلمين يومئذ كانوا قد أعدوا العدة للقضاء عليهم ، و لم يكن في بالهم ان شيئا يمنعهم عن المسلمين ، و لكنهم انهزموا و خسروا المعركة ، و كان السبب المادي الظاهر هو الخندق الذي حفر حول المدينة ، و عموما ما استخدمه و هيأه الرسول من الوسائل و الاساليب للمعركة ، و لكن العامل الأمضى و الأهم أثرا هو الجنود التي لم يلحظها المسلمون بأعينهم ، و إنما جاءت إشارة القرآن الى هذا العامل الحاسم في الانتصار بهدف اعطاء الثقة للرساليين عبر الاجيال ، بانهم يجب ان يعتمدوا بعد الاستعداد و بذل قصارى الجهود ، على نصر الله لا على ذواتهم و وسائلهم المادية.

الحكمة الثانية : كما تؤكد الآيات على الابتلاء الذي يعرض الله له المؤمنين ، و انه من أهم أهداف الحروب و الغزوات ، فمنهم من يستفيد من البلاء و الابتلاء ، في تثبيت ايمانه ، و منهم من يتزلزل و لكنه يعود ليصلح مسيرته ، و منهم من ينهارتماما ، و المؤمن الذي يسقط ثم يعود الى الصواب ثانية ، قد يكون أقدر على الاستمرار ، من الآخر ، الذي لم يسقط ولا مرة ، لانه جرب السقوط ، فعرف كيف يجب ان يقوم لو سقط مرة أخرى ، كالجسم الذي يبتلى بجرثوم معين ، ثم يطيب منه ، فانه يكتسب شيئا من المناعة ضده، لو عاوده من جديد ، لكن هذا الجرثوم نفسه قد يفتك بالآخرين الذين لم يبتلوا به ، و بالتالي لا يملكون مناعة ضده.

و الـذي يصنعه الابتلاء للانسان المؤمن ، انه يطهر قلبه من أسباب الشك و التردد ، و يمكننا ان نحدد أهم أهداف الابتلاءات و المصاعب التي يعانيها الانسان في حياته في أمرين:

ألف : تمحيص قلوب المؤمنين.

باء :تمحيص المجتمع . ففي الظروف الصعبة كالحروب يفرز المؤمن عن المنافق ، مما يكشف الواقع أمام القيادة ، و بالتالي يتسنى له ابعاد المنافقين من تجمعها " ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب " . (١)الحكمة الثالثة : تبين لنا الآيات أنواعا من التبرير و الاعذار التي يتشبث بها المنافقون من اجـل التستر على نواياهم ، و فرارهم من المسؤولية ، و من بينها قولهم : " ان بيوتنا عورة " فرارا من الحرب ، دون التفكير في صحتها . و على القيادة الرسالية ان تشخص الافكار التبريرية و تدحضها.

بينات من الآيات

[7]لا يبعث الله النبي رسولا حتى يتعهد بعدم الخضوع لسائر الضغوط ، سواء

(1)آل عمران / ١٧٩

النابعة من ذاته أو الآتية من المجتمع.

]و إذ أخذنا من النبيين ميثاقهم[

جميعا ، و لكن هذا العهد كان أشد و اخص بالنسبة لأولى العزم من الرسل ، و هم الذين ذكرت بهم الآية في قولها:

]ومنك ومن نوح و إبراهيم و موسى و عيسى ابن مريم]فالأنبياء افضل من سائر الناس ، و الرسل أفضل من الأنبياء ، و افضل الرسل هم أولوا العزم ، و اكرم أولي العزم محمد (ص. (

]و أخذنا منهم ميثاقا غليظا [

و لعل وجه التخصيص أن أولي العزم أكرم الناس عند الله ، فهم أكثرهم تعرضا للبلاء و المصاعب.

[8]ثم بعد هذا الميثاق الذي أخذه الله على الناس ومن ضمنهم الأنبياء فأقروا بالربوبية له (١) و عاهدوه بالتسليم ، خلق الحياة الدنيا ليتبين الصادق من الكاذب فيهم.

]ليسئل الصادقين عن صدقهم[

فالانسان لا يعرف حقيقة ما يدعيه الا عند الإمتحان ، فان كان صادقا أدخله الله في جنته و رحمته ، و ان كان كاذبا عذبه.

]و اعد للكافرين عذابا أليما[

(1)راجع الآية ١٧٢ / الاعراف

فالله يستأدي الميثاق مرتين ، مرة في الدنيا عبر الرسل ، و مرة في الآخرة بالحساب الدقيق ، و المؤمن الذي يهتدي الى حكمة الحياة هذه هو الذي يصمد عند الشدائد ، لانه يعتبرها سبيله الى رضوان الله ، و الذي يتحقق في الوفاء بميثاقه معه - عز و جل - يوم الذر و عبر الانبياء و القيادات الرسالية التي تمثل امتدادهم (ع) و هذا ما تهدي اليه الآيات من (٢٢) الى (24)حيث ترتبط بهما هاتين الآيتين ارتباطا عضويا ، و تمثل ظلالا لهما.

[9]اما بقية الآيات ، فهي تذكرنا بالحقائق الثلاث التي أشرنا لها في اول الدرس ، و التي يستوحيها السياق من حرب الأحزاب.

]يا أيها الذين ءامنوا اذكروا نعمة الله عليكم[

يوم الاحزاب.

]إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا[

اقتلعت خيام الكفار ، و كانوا يزعمون اللبث فيها و هم يحاصرون المدينة ، التي منعهم الخندق من دخولها ، مما أشاع الفوضى و عدم الاستقرار في نفوس العدو.

]و جنودا لم تروها[

من الملائكة.

و قد مر في تفسير سورة الأنفال القول : بأن أهم عمل قامت به الملائكة ، كان تثبيت قلوب المؤمنين من جهة ، و تشتيت قلوب الكافرين من جهة أخرى ، و على ضوء هذا التفسير نستطيع القول بأن اهم قوة عسكرية تستطيع هزيمة العدو هي التي تتوفر فيها صفتي الوحدة و الاستقامة ، اللتان تؤديان الى الثبات في المعركة.

و نصر الله للمؤمنين لا يأتي الا اذا بذلوا قصارى جهدهم ، و كل ما بوسعهم من اجله ، فلو كان المسلمون يوم الأحزاب ينتظرون عون الله ، من دون تهيئة الظروف المناسبة له ، من استعداد لمواجهة العـدو ، و اعمال للعقل في سبيل ذلك لما نصروا عليهم ، و لعله لهذايشير الى سعي المؤمنين.

]و كان الله بما تعملون بصيرا[

فلأنكم بذلتم ما في وسعكم ، و حفرتم الخندف في اربعين يوما متواصلة ، و ارهقتم أنفسكم في شهر رمضان ، وفي حرارة الصيف ، و قد رأى الله منكم كل ذلك و علم بنواياكم الصادقة نصركم على الأحزاب.

] [10]إذ جاءوكم من فوقكم[

اي من فوق الوادي - من ناحية الشام - وهم يهود بني قريظة و بني النضير و غطفان.

]و من أسفل منكم[

من ناحية مكة - قبل المغرب - و هم قريش ومن تبعها من العرب ، و كان من شدة الأمر ان الابصار في تلك الحالة لم تكد ترى أو تستقر ، و هذه الحالة تصيب الانسان لا إراديا إذا واجه أمرا يهوله و يعظم في نفسه.

]و إذ زاغت الأبصار[

كما ان القلب يظل ينبض بقوة و سرعة في مواطن الفزع ، بحيث يشعر الانسان و كأنه صعد الى حنجرته .

]و بلغت القلوب الحناجر و تظنون بالله الظنونا[

في ساعة العسرة تأتي البشر مختلف التصورات حول ربه ، و ربما يكون الكثير منها سلبيا ، فاذا به و هو يقف في صف المؤمنين لمحاربة أعداء الرسالة يفقد الثقة بنصر ربه ، و يظن انه لن ينصره.

[11]لكن الله يجعل الاحداث تتصعد و تتأزم ، و قد يؤخر النصر ، و يعرض المجتمع لأنواع الإبتلاء ، و ذلك تمحيصا للقلوب ، و فرزا للمجتمع ، فاذا به فريقان ، فريق المؤمنين و فريق المنافقين.

]هنالك ابتلي المؤمنون[

اما المؤمنون فقد كان الأمر بالنسبة اليهم امتحانا - اظهر ما يضمرونه في قلوبهم على ألسنتهم - كما تسببت شدته ، في ذهاب الصفات التي لحقت بهم ، و التي ليست من طبيعة الشخصية المؤمنة ، فاذا

به يزيدهم ايمانا و صفاء.

]و زلزلوا زلزالا شديدا[

و يحتمل هذا الشطر أحد تفسيرين : فاما يكون وصفا لطبيعة الإمتحان بأنه من الصعوبة يشبه الزلزال الشديد ، و إما يكون حديثا عن نتيجة الامتحان ، فيصير المعنى ان المؤمنين اهتزت مواقفهم و تاثروا ، فيحمل تفسير الآيتين (23 - 22)مضافا لهذه الآيــة : ان المؤمنين صاروا فرقتين ، فرقة تأثرت بالإمتحان سلبا في بادئ الأمر ، فاكتشفت ضعفها و جبرته ، و فرقة ما زادهم إلا ايمانا و تسليما.

[12]اما المنافقون فقد افتضح امرهم ، و برزوا على حقيقتهم أمام القيادة الرسالية يومذاك و أمام المجتمع ، و لعل هذا الفرز من أهم أهداف و فوائد الأزمات التي يتعرض لها البشر في حياتهم.

و المنافق هو الذي يعيش شخصيتين : شخصية الانسان المؤمن الصادق - و هذه يظهرها ليستر بها شخصيته الحقيقية الثانية بما فيها من الأنانية و الدجل - فاذا استوجبت الظروف تعرض مصالحه للخطر ، و وجد الإلتزام و لو ظاهريا بالشخصية الإيجابية يعرضها للزوال ظهر على حقيقته.

]و إذ يقول المنافقون و الذين في قلوبهم مرض[

و هم المؤمنون الذين يحملون الحقد و الحسد و الاستكبار و .. و .. في قلوبهم ، فان شأنهم شأن المنافقين ، لأن هذا المرض سوف يسبب لهم الإنهيار و الفرار في ساعة المواجهة ، فهم يلتقون مع المنافقين في خور عزيمتهم ، و طبيعة موقفهم من الشدائد ، و الذي يتجسدفي فرارهم و سلبيتهم في المجتمع بخلاف المؤمنين الصادقين - تماما - فبينما يقول اولئك : صدق الله و رسوله ، و يزدادون ايمانا و استقامة على الطريق ، يقول هؤلاء:

]ما وعدنا الله و رسوله إلا غرورا[

و يستدلون على ذلك بان النصر لم ينزل عليهم.

[13]و ثمة مجموعة من المشككين لا يكتفون بهزيمتهم إنما يشيعون جوا من الهزيمة بهدف زلزلة عقائد الآخرين ، و هذه من طبيعة المنافقين.

]وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا]حينما تتعرض الامة للخطر فهي احوج ما تكون الى الثقة بنفسها و بقيادتها و بربها ، و بالتالي فان الألسن و الأقلام التي توهن المجتمع ، و تبث فيه روح الهزيمة لهي منافقة ، و على المجتمع ان لا يستجيب لها ، إنما يلتف حول قيادته الرسالية ،كما ان من واجب القيادة فضح هذه الشريحة و اقصائها عن موقع المسؤولية و التوجيه.

]و يستأذن فريق منهم النبي [

و يغطون هذه الهزيمة بمجموعة من الأعذار و التبريرات الواهية.

]يقولون إن بيوتنا عورة[

قالوا : ان بيوتنا مكشوفة للعدو ، ولا نأمن على أهلنا منه ، فلابد أن نبقى معهم نحميهم ، لكن الله فضحهم اذ قال:

أولا : ان بيوتهم ليست كما يدعون ، و لكنهم يريدون الفرار من الحرب.

]و ما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا[

[14]ثانيا : لو أنهم دعوا الى حرب فيها مصالحهم ، غير هذه الحرب المقدسة التي فيها مصلحة الاسلام ، لخاضا أكثرهم ، و لما تخلف عنها احد منهم ، أوليسوا في الجاهلية يحاربون بعضهم لمآت السنين و لأتفه الأسباب ؟!

]و لو دخلت عليهم[

الحرب.

]من أقطارها[

جهاتها و أهدافها التي يريدون ، لأنها تتفق مع اهوائهم مثلا.

]ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا][١٥] و ما كانوا يلتزمون و لا حتى يلتفتون لعهدهم مع رسول الله (ص. (

]و لقد كانوا عاهدوا الله من قبل[

على الدفاع عن الاسلام و عن رسوله.

]لا يولون الأدبار[

دون تراجع أو هزيمة ، و كان هذا العهد عبر الرسول امتدادا لميثاقهم مع الله في عالم الذر ، و تأكيدا للمسؤولية .

]و كان عهد الله مسئولا[

و لا يأتون البأس الا قليلا

هدى من الآيات

مرض النفاق الذي تظهره الأزمات الشديدة التي تعصف بالأمة قضية ذات أبعاد متعددة ، و معرفة أبعاد النفاق الاجتماعي ضرورة للسيطرة على هذا التيار الخطر ، حتى لا يجرف خيرات الأمة ، أو يستلب بركاتها و ايجابياتها.

و المجتمع الذي يترك المنافقين أحرارا ، يستغلون طاقات الأمة و انتصاراتها ، فينزون على السلطة على غفلة من أبنائها ، و لعدم وعيهم ، فانه لن يدوم طويلا في مسيرته الصاعدة ، و أبناؤه يعلمون أن أعمالهم تنتهي الى جيوب المستغلين و المنافقين.

و القرآن الكريم يفضح - في أكثر من سورة - المنافقين الذين يبحثون عن المكاسب و المغانم ، دون ان يقدموا من أنفسهم شيئا للحصول عليها ، فهم في الأزمات و الحروب يتهربون من المسؤولية ، و لكنهم يبرزون و يظهرون أنفسهم أبطالا حين المغانم و الإنتصارات.

بينات من الآيات

[16]كانت حرب الأحزاب من الأزمات الصعبة التي مرت بها الأمة الاسلامية ، و كان من ايجابياتها - كما سائر الأزمات - انها كشفت واقع فريق المنافقين ، و القرآن لا يذكر تفاصيل هذه الحادثة في هذه السورة ، انما يذكر ببعض النقاط الحساسة منها.

فيؤكد لنا بأن الانسان لا يستطيع ان يدعي القدرة على الخلاص من الموت أو القتل بالفرار ، أو ان ذلك ينفعه . كلا .. فهو قد يبعده عن ذلك لحظات و أياما ، و لكنه لن يكون سببا للبقاء و الاستمرار ، فما يدفعه المجتمع و حتى الانسان الفرد عن الهزيمة يفوق ما يدفعه حين الاستقامة و الاستمرار أضعافا مضاعفة ، فهو بالفرار من المعركة يعطي العدو زخما من القوة و الثقة بالنفس.

]قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل و إذا لا تمتعون إلا قليلا]بينما تهب الشجاعة للانسان عمرا طويلا ، لأن الشجاع يقاوم الأعداء ومن ثم يضمن استمراره.

[17]و بالاضافة الى ان الفرار من الموت لا يجدي نفعا ، اذ انه يدركهم انى كانوا ، بالاضافة الى ذلك فانه يغضب الرب ، و هم لا يملكون من دونه وليا ولا نصيرا ، فاذا أراد بهم سوء فلا عاصم لهم منه يمنعهم من عذابه ، و إذا أراد بهم رحمة فلا أحد قادر على منعرحمته عنهم.

]قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوء أو أراد بكم رحمة]ان الهزيمة امام الاعداء مظهر من مظاهر ضعف الايمان بالله و تعلق القلب بالشركاء من دونه ، و هكذا ينسف القرآن هذه الفكرة بقوله:

]و لا يجدون لهم من دون الله وليا و لا نصيرا[

[19 - 18]ثم يذكرنا القرآن بجانب من صفات المنافقين و هي:

أولا :انهم يبحثون عن امثالهم ، أولا اقل مثلهم عمليا ، فاذا بهم يثبطون أناس عن المواجهة مع العدو عند الحرب ، حتى يكون المجتمع مثلهم فيتخلصون من اللوم و ممن يسمهم بالجبن.

]قد يعلم الله المعوقين منكم و القائلين لإخوانهم هلم إلينا]اي المثبطين الذين يبثون روح الهزيمة و الضعف في المجتمع ، و " قد " تفيد التأكيد و ليس الامكان و التحقيق.

ثانيا :الجبن و عدم الإقدام ، و قليلا ما يتواجدون حين المعارك الحاسمة ، و هكذا فان الصعوبات و المشاكل هي التي تكشف المنافقين على حقيقتهم فاذا بهم -وقد ادعوا الشجاعة سابقا - تخور عزيمتهم في لحظة المواجهة ، و تدور أعينهم من الخوف ، كما المغشي عليهمن الموت ، و اذا انجلى الخطر بصمود المؤمنين و استقامتهم في ساحة الصراع تجدهم مرة أخرى بألسنتهم السليطة يشتمون و يحملون الآخرين المسؤولية ، و حدة كلامهم تكون بمقدار هزيمتهم و جبنهم في الأزمات.

]و لا يأتون البأس إلا قليلا * أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد]ثالثا : السعي من اجل المغانم ، و الأخذ من المجتمع الاسلامي بحرص شديد يوازي شحهم و بخلهم عن الانفاق لصالح الاسلام و المسلمين ، و أساسا لا ينتمي هؤلاء للمسلمين إلا سعيا وراء المصلحة.

]أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم و كان ذلك على الله يسيرا]و انما احبط الله أعمالهم لانها لا تقوم على اساس صحيح و اهداف مبدئية شريفة ، كما نزع عنهم اسم المؤمنين لان انتماءهم للمؤمنين ظاهري ، و انتماؤهم الحقيقي هو للكفار أو لذواتهم و شهواتهم.

[20]رابعا : ومن خوف المنافقين انهم حتى بعد انتهاء المعركة لصالح المسلمين ، و انسحاب الأحزاب لما تطمئن نفوسهم ، فهم يزعمون أن المعركة لا زالت قائمة ، و يعيشون حالة الخوف و الرعب ، و كيف تطمئن نفوسهم و هي خالية من الايمان و ذكر الله ؟!

]يحسبون الأحزاب لم يذهبوا [

فهم وجلون على مصيرهم و مصالحهم من قوى الشرك.

]و إن يأت الأحزاب[

يتمنون لو كانوا بعيدين عن المسلمين ، كما سكان البادية الذين همهم سماع الاخبار بعيدا عن المسؤولية ، و هذه من صفات المنافقين انهم في ساعة العسرة و الخطر ينهزمون في داخلهم.

]يودوا لو أنهم بادون[

خارجون الى (البدو) في الصحراء.

]في الأعراب يسئلون عن أنبائكم[

ليعرفوا مصير المعركة حتى يتكيفوا معه ، فهم لا يصنعون الأحداث بل يتقلبون معها.

]و لو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا[

مما يدل على ان المنافقين ينهزمون نفسيا بتلك التمنيات ، و عمليا بالفرار من بين المسلمين حفاظا على حياتهم ، ولو لم يحالفهم الحظ بالفرار و الهزيمة ما كانوا يؤثرون في المعادلة أبدا ، لأنهم غير مستعدين للتضحية ولا للقتال المستميت.

و تدل هذه الآية : " ما قاتلوا الا قليلا " على احد معنيين:

الاول :أنهم لو كانوا في المسلمين لم يقاتلوا الأحزاب - على افتراض عودتهم - لأنهم يبحثون عن المعارك التي يكون فيها العدو ضعيفا و قليلا ، بحثا عن المغانم حيث يكون النصر فيها للمسلمين ، و حتى في هذه الحالة فإنهم لا يؤدون دورا أساسيا ، و لا يدخلون قلبالمعركة.

الثاني : انهم لو صادف ميجيء الاحزاب للقتال مرة ثانية ، ولم يتمكنوا من الفرار فانهم لن يؤدوا مهامات خطرة في القتال ، بل سيكتفون بالأدوار الهامشية التي لا تكلفهم شيئا من التضحية ، كما أنها تحافظ على شخصياتهم و مكانتهم في المجتمع المسلم.

قصة غزوة الخندق

و هذه النفوس المريضة اظهرتها ساعة الازمة في غزوة الخندق ، التي نصر الله فيها

الامة الاسلامية نصرا عزيزا ، و كانت في أيام نشأتها ، و الله يذكرنا بهذه الغزوة حتى نستفيد عبرا منها ، و يذكرنا بالنصر تذكيرا للأمة بأن ميلادها كان رهين تلك الحروب و بأولئك الابطال الذين خاضوها ، و على سواعدهم جاء النصر ، و مع ان الامة واقع قائم الآن إلا انها لا تستطيع ان تنكر فضل اولئك الرواد الاوائل الذين ساهموا في صناعة الامة و حافظوا على كيانها ، لذلك يجب ان تبقى قصة غزوة الخندق و سائر الحروب التي شهدتها الامة في بداية انطلاقتها و في أيام مخاضها راسخة في ذاكرة كل فرد من ابنائها ، و الانسان يتأثر بالتاريخ فهو ابن له ، و هو ينعكس عليه بصورة ما ، فاذا عرف تاريخه معرفة حسنة و سليمة ، و عرف محيطه بجميع أبعاده فان اخطاءه سوف تقل ، اما لو كانت رؤيته للتاريخ غامضة أو ناقصة فان حياته ستكون مليئة بالاخطاء ، و لذلك يذكر القرآن بهذه القصص و العبر التيخلفتها لنا أحداث التاريخ ، و نحن - بدورنا - نثبت هنا بعض ما جاء في السيرة من تاريخ الواقعة.

ذكر محمد بن كعب القرظي و غيره من اصحاب السير قالوا : كان من حديث الخندق ان نفرا من اليهود منهم سلام بن ابو الحقيق ، و حيي بن أخطب في جماعة من بني النضير الذين اجلاهم رسول الله (ص) خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة ، فدعوهم الى حرب رسول الله (ص) و قالوا : إنا سنكون معكم عليهم حتى نستأصلهم ، فقالت لهم قريش : يا معشر اليهود إنكم اهل الكتاب الأول فديننا خير أم دين محمد ، قالوا : بل دينكم خير من دينه فأنتم أولى بالحق منه ، فهم الذين انزل الله فيهم : " ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت و الطاغوت و يقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا " إلى قوله : " و كفى بجهنم سعيرا " فسر قريشا ما قالوا ، و نشطوا لما دعوهم اليه ، فأجمعوا لذلك و اتعدوا له ، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان فدعوهم الحرب رسول الله (ص) و اخبروهم انهم سيكونون معهم عليه (ص) و ان قريشا قد بايعوهمعلى ذلك فأجابوهم فخرجت قريش و قائدهم ابو سفيان بن حرب ، و خرجت غطفان و قائدها عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر في فزارة ، و الحرث بن عوف في بني مرة ، و مسعر بن جبلة الأشجعي فيمن تابعه من اشجع ، و كتبوا إلى حلفائهم من بني اسد فأقبل طليحة في من اتبعه من بني اسد - و هما حليفا اسد و غطفان - و كتب قريش الى رجال من بني سليم فأقبل ابو الأعور السلمي فيمن اتبعه من بني سليم مددا لقريش ،

فلما علم بذلك رسول الله (ص) ضرب الخندق على المدينة و كان الذي اشار عليه سلمان الفارسي (ره) و كان أول مشهد شهده سلمان مع رسولالله (ص) و هو يومئذ حر ، قال : يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا ، فعمل فيه رسول الله (ص) و المسلمـــون حتى احكموه ، و في رواية اخرى : خط رسول الله (ص) الخندق عام الاحزاب ، اربعين ذراعا بين عشرة ، فاختلف المهاجرون و الانصار في سلمان الفارسي ، و كان رجلا قويا ، فقال الانصار : سلمان منا ، وقال المهاجرون : سلمان منا ، فقال رسول الله (ص) : " سلمان منا اهل البيت " ، قال عمرو بن عـوف : فكنت انـا ، و سلمان ، و حذيفة بن اليمان ، و النعمان بن مقرن ، و ستة من الانصار ، نقطع اربعين ذراعا . فحفر ناحتي إذا بلغنا الثرى ، اخرج الله من بطن الخندف صخرة بيضاء مدورة فكسرت حديدنا ، و شقت علينا ، فقلنا : يا سلمان إرق الى رسول الله (ص) فأخبره عن الصخرة ، فإما ان نعدل عنها فإن المعدل قريب ، و إما أن يأمرنا فيه بأمره فإنا لا نحب ان نجاوز خطه - و هذا مما يدل على الانضباط - فرقى سلمان حتى أتى رســول الله (ص) و هو مضروب عليه قبة ، فقال : يا رسول الله ! خرجت صخرة بيضاء من الخندق مدورة ، فكسرت حديدنا ، و شقت علينا ، حتى ما يحك فيها قليل و لا كثير ، فمرنا فيها بأمرك ، فهبط رسول الله (ص)مع سلمان في الخندق ، و أخذ المعول (١) و ضرب به

(1)المعول : الفأس العظيمة التي ينقر بها الصخر.

ضربة فلمعت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها (١) - يعني لابتي المدينة - حتى لكأن مصباحا في جوف ليل مظلم ، فكبر رسول الله (ص) تكبيرة فتح ، فكبر المسلمون ، ثم ضرب ضربة اخرى فلمعت برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى ، فقال سلمان : بأبي أنت و أمي يا رسول الله ما هذا الذي أرى ؟ !فقال : " أما الاولى فإن الله عز و جل فتح علي بها اليمن ، و أما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام و المغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق " فاستبشر المسلمون بذلك و قالوا : الحمد لله موعد صادق . قال: و طلعت الأحزاب ، فقال المؤمنون : " هذا ما وعدنا الله و رسوله و صدق الله و رسوله " و قال المنافقون : ألا تعجبون يحدثكم و يعدكم الباطل ، و يخبركم أنه يبصر في يثرب قصور الحيرة (٢) و مدائن كسرى ، و انها تفتح لكم و انتم تحفرون الخندق ، و لا تستطيعون ان تبرزوا ؟!

و قال جابر بن عبد الله : كنا يوم الخندق نحفر الخندق فعرضت فيه كدية (٣) وهي الجبل ، فقلنا :يا رسول الله إن كدية عرضت فيه . فقال رسول الله (ص) : " رشوا عليها ماء "ثم قام فأتاها و بطنه معصوب بحجر من الجوع ، فأخذ المعول أو المسحاة فسمى ثلاثا ، ثم ضرب فعادت كثيبا اهيل فقلت له : إئذن لي يا رسول الله الى المنزل ، ففعل ، فقلت للمرأة : هل عندك من شيء ؟ فقالت : عندي صاع من شعير و عناق (٤) فطحنت الشعير ، و عجنته و ذبحت العناق و سلختها ، و خليت بين المرأة و بين ذلك ، ثم أتيت الى رسول الله (ص)فجلست عنده ساعة ثم قلت إئذن لي يا رسول الله ، ففعل ، فأتيت المرأة فإذا العجين و اللحم قد أمكنا ، فرجعت الى(١) اللابة : الحرة وهي الارض ذات الحجارة السود التي قد ألبستها لكثرتها ، والمدينة المنورة ما بين حرتين عظيمتين.

(2)قال الحموي : الحيرة مدينة كانت على ثلاثة اميال من الكوفة على موضع يقال له النجف.

(3)الكدية : قطعة غليظة صلبة لا يعمل فيها الفأس.

(4)العناق الانثى من أولاد المعز قبل استكمال الحول.

رسول الله (ص) فقلت : أن عندنا طعيما لنا ، فقم يا رسول الله انت و رجلان من اصحابك فقال : " و كم هو " ؟ قلت : صاع من شعير ، و عناق ، فقال للمسلمين جميعا : قوموا إلى جابر ، فقاموا فلقيت من الحياء مالا يعلمه الا الله ، فقلت : جاء بالخلق على صاعشعير و عناق ، فدخلت على المرأة ، و قلت : قد افتضحت ، جاءك رسول الله (ص) بالخلق اجمعين ، فقالت : هل كان سألك كم طعامك ؟ قلت : نعم ، فقالت : الله و رسوله اعلم ، قد اخبرناه ما عندنا ، فكشفت عني غما شديدا ، فدخل رسول الله (ص) فقال : " خذي و دعيني منناللحم " فجعل رسول الله (ص) يثرد و يفرق اللحم ، ثم يحم هذا و يحم هذا ، فما زال يقرب الى الناس حتى شبعوا أجمعين ، و يعود التنور و القدر املأ ما كانا ، ثم قال رسول الله

(ص) : " كلي و اهدي " فلم نزل نأكل و نهدي قومنا أجمع . أورده البخاري في الصحيح ، و عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله (ص (ينقل معنا التراب يوم الأحزاب وقد وارى التراب بياض بطنه و هو يقول:

"اللهم لولا أنت ما اهتدينا ، و لا تصدقنا ولا صلينا ، فأنزلت سكينة علينا ، و ثبت الأقدام إن لاقينا ، إن الأولى قد بغوا علينا ، إذا أرادوا فتنة أبينا "يرفع بها صوته ، و لما فرغ رسول الله (ص) من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بين الجـرف و الغابة في عشرة آلاف من احابيشهم ومن تابعهم من بني كنانة و اهل تهامة ، و أقبلت غطفان و من تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا الى جانب أحد ، و خرج رسول الله (ص) و المسلمونحتى جعلوا ظهورهم الى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين ، فضرب هناك عسكرة و الخندق بينه و بين القوم ، و أمر بالذراري و النساء فرفعوا في الاطام ، و خـرج عـــدو الله حيـي بن اخطب النضيـــري ، حتى أتى كعب بن اسد القرظي - صاحب بني قريظة - وكان قد وادع رسول الله (ص) على قومه ،

و عاهده على ذلك ، فلما سمع كعب صوت ابن اخطب اغلق دونه حصنه ، فاستأذن عليه فأبى ان يفتح له ، فناداه : يا كعب افتح لي ، فقال : ويحك يا حيي انك رجل مشؤوم ، اني قد عاهدت محمدا)ص) ولست بناقض ما بيني و بينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا . قال : ويحك افتح لياكلمك ! قال : ما انا بفاعل . قال : ان اغلقت دوني إلا على حشيشة تكره ان آكل منها معك ، فاحفظ الرجل ففتح له . فقال : ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام . جئتك بقريش على قادتها و سادتها ، و بغطفان على سادتها و قادتها . قد عاهدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه ، فقال كعب : جئتني و الله بذل الدهر . بجهام قد هراق ماؤه يرعد و يبرق ، وليس فيه شيء ، فدعني و محمدا و ما انا عليه ، فلم أر من محمد إلا صدقا و وفاء ، فلم يزل حيي بكعب يفشل منه في الذروة و الغارب ، حتى سمح له على ان اعطاه عهدا و ميثاقا ، لئن رجعت قريش و غطفان ولم يصيبوا محمدا أن ادخل معك في حصنك ، حتى يصيبني ما اصابك ، فنقض كعب عهده ، و برئ مما كان عليه فيما بينه و بين رسول الله (ص) فلما انتهى الخبر الى رسول الله (ص) بعث سعد بن معاذ بن النعمان بن امرء القيس - احد بني عبد الاشهل -و هو يومئذ سيد الأوس ، و سعد بن عبادة أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج - و هو يومئذ سيد الخزرج - و معهما عبد الله بن رواحة ، و خوات بن جبير . فقال " : انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقا فالحنوا لنا لحنا نعرفه ، و لا تفتوا اعضاد الناس ، و إن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس " و خرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على اخبث مما بلغهم عنهم ، قالوا : لا عقد بيننا و بين محمد ولا عهد ، فشاتمهم سعد بن عبادة و شاتموه ، وقال سعد بن معاذ : دع عنك مشاتمتهم ، فإن ما بيننا و بينهمأعظم من المشاتمة ، ثم اقبلوا إلى رسول الله (ص) و قالوا : عضل و القارة لغدرة عضل ، و القارة باصحاب رسول الله خبيب بن عدي و اصحابه اصحاب الرجيع ، فقال رسول الله (ص) : " الله اكبر ابشروا يا معشر المسلمين " و عظم عند ذلك البلاء و اشتدالخوف ، و أتاهم عدوهم من فوقهم ، ومن اسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، و ظهر النفاق من بعض المنافقين ، فأقام رسول الله (ص) و أقام المشركون عليه بضعا و عشرين ليلة لم يكن بينهم قتال إلا الرمي بالنبل ، إلا ان فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدود - اخو بنيعامر بن لوي - و عكرمة بن ابي جهل ، و ضرار بن الخطاب ، و هبيرة بن ابي وهب ، و نوفل بن عبد الله ، قد تلبسوا للقتال ، و خرجوا على خيولهم . حتى مروا بمنازل بني كنانة ، فقالوا : تهيأوا للرحب يا بني كنانة ، فستعلمون اليوم من الفرسان ، ثم اقبلوا تعنق بهم خيولهم ، حتى وقفوا على الخندق ، فقالوا : و الله ان هذه لمكيدة ، ما كانت العرب تكيدها ، ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق ، فضربوا خيولهم فاقتحموا ، فجالت بهم في السبخة بين الخندق و سلع ، و خرج علي بن ابي طالب (ع) في نفر من المسلمين ، حتى أخذ عليهم الثغرةالتي منها اقتحموا ، و اقبلت الفرسان نحوهم ، و كان عمرو بن عبـــد ود فارس قريش ، و كان قد قاتل يوم بدر حتى ارتث و اثبته الجراح ، و لم يشهد أحدا ، فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليرى مشهده ، و كان يعد بألف فارس و كان يسمى فارس يليل ، لأنه اقبل في ركب منقريش ، حتى إذا كانوا بيليل - وهو واد قريب من بدر - عرضت لهم بنو بكر في عدد ، فقال لأصحابه : امضوا ، فمضوا ، فقام في وجوه بني بكر حتى منعهم من ان يصلوا اليه فعرف بذلك ، وكان اسم الموضع الذي حفر فيه الخندق المذاذ و كان اول من ظفره عمرو و أصحابه فقيل فيذلك :

عمرو بن عبد كان أول فارس جزع المذاذ و كان فارس يليلو كان ينادي عمرو : من يبـــارز ؟ فقام علي (ع) و هو مقنع في الحديد ، فقال : " أنا له يا نبي الله " فقال : " انه عمرو اجلس " و نادى عمرو : ألا رجل ؟! وهو يؤنبهم و يقول : اين جنتكم التي تزعمون ان من قتل منكم دخلها ! فقام علي (ع) فقال " : انا له يا

رسول الله " . ثم نادى الثالثة فقال:

و لقـد بححت من النداء بجمعكم هل مـن مبـارزو وقفت إذ جبن المشجع موقف البطـل المناجـزإن السماحـة و الشجـاعة في الفتى خير الغرائزفقام علي فقال " :يا رسول الله انا " فقال : " انه عمرو " فقال : " و ان كان عمرو " فاستأذن رسول الله ، فأذن له رسول الله ، فألبسه رسول الله (ص) درعه ذات الفضول ، و اعطاه سيفه ذا الفقار ، و عممه عمامة السحاب على راسه تسعة اكوار ، ثم قال له : " تقدم " فقال لما ولى : " اللهم احفظه من بين يديه ، و من خلفه ، و عن يمينه ، و عن شماله ، و من فوق رأسه ، و من تحت قدميه " فمشي علي (ع) إليه و هو يقول:

لا تعجلـن فقد أتـاك مجيب صوتك غير عاجزذو نيـة و بصيـرة و الصـدق منجـي كل فائزإني لأرجـو ان أقيـم عليكـم نائحة الجنائـزمن ضربة نجلاء يبقى ذكرهـا عنـد الهـزاهـزقال له عمرو : من انت ؟! قال : " انا علي " قال : ابن عبد مناف ؟ فقال : " انا علي بن ابي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف " فقال : غيرك يا ابن أخي من اعمامك من هو اسن منك ، فإني اكره ان اهريق دمك ؟! فقال علي (ع) : " لكني و الله ما اكره ان اهريق دمك "فغضب و نزل و سل سيفه ، كأنه شعلة نار ، ثم اقبل نحو علي مغضبا ، فاستقبله علي بدرقته ، فضربه عمروا بالدرقة فقدها ، و اثبت فيها السيف ، و أصاب رأسه فشجه ، و ضربه علي على حبل العاتق ، فسقط و تسيف على رجليه من أسفل ،فـوقع عـلى قفاه ، و ثارت بينهما عجاجة فسمع علي يكبر . فقال رسول الله (ص) : " قتله و الذي نفسي بيده "فكان أول من ابتدر العجاج عمر بن الخطاب ، فإذا علي يمسح سيفه بدرع عمرو فكبر عمر بن الخطاب ، و قال : يا رسول الله قتله ، فحز علي رأسه ، و اقبل نحو رسول الله و وجهـه يتهلل ، فقال عمر بن الخطاب : هلا استلبته درعه ، فإنه ليس للعرب درع خير منهـا ؟! فقـال: " ضربته فاتقاني بسوأته فاستحييت ابن عمي ان استلبه " فقال النبي (ص) : " ابشر يا علي ، فلو وزن اليوم عملك بعمل امة محمد لرجح عملك بعملهم ، و ذلك انه لم يبق بيت من بيوت المشركين إلا وقد دخله وهن بقتل عمرو ، ولم يبق بيت من بيوت المسلمينإلا و قد دخله عز بقتل عمرو " (١(

(1)مجمع البيان / ج 8-7ص ٣٤٠

و ما بدلوا تبديلا

هدى من الآيات

بعد ان تعرض الدرس الماضي لصفات المنافقين يبين القرآن الحكيم في هذه الآيات صفات المؤمنين الصادقين عند الصعوبات و الحروب ، و الصور المتقابلة في القرآن توضح بما فيه الكفاية الحقائق و بالخصوص في الحقل الاجتماعي.

فالمؤمنون -على خلاف ما كان عليه المنافقون من العصيان - يتبعون رسول الله (ص) و يستجيبون لقيادته ، فهو أسوة حسنة لهم في حياتهم بما جسده في حياته من صفات الخير ، و لا ريب أن الإقتداء برسول الله (ص) ليس عملا بسيطا ، لأن الانسان لا يستطيع أن يصبح تابعا للرسول ، و مهتديا بهداه إلا إذا تجرد عن شهواته و حبه للدنيا ، و إنما يتجرد عن حب الدنيا ذلك الذي يذكر الله كثيرا بذكر نعمه و عظمته و اسمائه ، و الشكر له دائما.

بينات من الآيات

[21]يدعي بعض المنافقين أنهم قادة ، و ان من صفات القائد في تصورهم أن لا يدخل المعركة ولا يضحي بنفسه ، بل يجلس بعيدا عن الصراع ليصدر الأوامر فقط ، لكن القرآن يؤكد بأن القيادة الحقيقية تتمثل في رسول الله (ص) و أن حياته يجب ان تكون نموذجا لنا نقتدي به ، و السبب انه كان الأمثل في كل حقل فهو الأشجع و المقدام في الحروب ، و صورة مناقضة للمنافق فهو يعمل أولا ثم يأمر الناس ، و كان الإمام علي (ع) المعروف بشجاعته و اقدامه يقول عنه:

"كنا اذا احمر الباس اتقينا برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فلم يكن أحد منا أقرب الى العدو منه " (١)و اذا قرر الحرب كان اول من يلبس لامتها ، فبعد ان وضعت حرب الخندق أوزارها ، و عادت قريش أدراجها منهزمة ، عاد الرسول الى بيته - و كان الوقت بعد الظهر - فوضع الحرب و استحم لصلاة

العصر ، و قبل الدخول فيها نزل عليه جبرئيل (ع) وقال له : يا محمد ! وضعت لامة الحرب ونحن (اي الملائكة) لم نضعها ؟! فعرف النبي انه يجب ان يبادر لحرب بني قريظة الذين ساعدوا كفار قريش في حرب الخندق ، و نقضوا بذلك عهدهم مع الرسول (ص) فسرعان ما لبس لامة حربه و قال للمسلمين : لا نصلى العصر الا في بني قريظة ، فمشى المسلمون الهناك ، و حاصروا قلاعهم خمسة و عشرين يوما ، الى ان استسلموا و عاد المسلمون الى المدينة ، و هكذا كان الرسول هو السباق الى الخيرات ، كما كان القمة السامقة في كل فضيلة و مكرمة ، فهو الذي يحب التأسي و الاقتداء به لا المنافقين.

]و لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة[

(1)نهج البلاغة / خ ٩ -ص ٥٢٠

و لكن هل يتمكن من الاقتداء بالرسول كل أحد . كلا .. بل الذي ارتفع بإرادته و روحه و سلوكه عن حطام الدنيا ، و تطلع الى الآخرة.

]لمن كان يرجوا الله و اليوم الآخر[

اما الذي يكون هدفه شهواته أو زينة الدنيا ، فانه لا يستطيع الإقتداء بالرسول)ص) الذي اخلص نفسه و وجهه لله ، و زهد في درجات هذه الدنيا الدنية ، و زخرفها و زبرجها.

اما الصفة الاخرى لمن يتبع الرسول فهي : تذكر غايته الاساسية و هي رضوان اللـــه ، و الاستقامة عليها ، و حين يعرف الانسان وجهته يعرف - بوضوح - سائر أهدافه ، و تتـوضح له استراتيجياته و معالم سلوكه ، إذ يجد المعيار السليم لمعرفة كل ذلك . و هكذا يعطي ذكر الله ضمانة للإنسان حتى لا ينحرف عن أهدافه التي تجمعها كلمة واحدة هي رضوان الله.

]و ذكر الله كثيرا[

[22]و بعد ذلك يثنى السياق على أهم صفات المؤمنين ، و التي تناقض صفات المنافقين و أهمها:

أولا :انهم لا تكسرهم الأزمات ، و لا ينهزمون أمام الصعوبات مهما كانت ، فهم يعرفون بأن ذلك كله من طبيعة طريقهم (ذي الشوكة) فكلما رأوا المصاعب تتزاحم في طريقهم كلما ازدادوا يقينا بصحة طريقهم ، و تسليما لربهم و قيادتهم.

و لعل المؤمن يبحث عن ساعة حرجة يجرب فيها نفسه (ايمانه و إرادته) و بالتالي يظهر فيها كفاءاته الرسالية الحقيقية لوجه الله.

]و لما رءا المؤمنون الأحزاب[

لم ينهزموا كما فعل المنافقون ، بل ازدادوا يقينا بخطهم.

]قالوا هذا ما وعدنا الله و رسوله و صدق الله و رسوله]و من هذا نستفيد ان التربية الرسالية السليمة هي التي تصارح الانسان بطبيعة المسيرة ، و انها محفوفة بالمخاطر على صعيد الدنيا ، مما يساعد الفرد على الاستقامة حين الازمات و المصاعب ، لانها حينذاك لن تكون مفاجئة له ، بل سيعتبرها أمرا طبيعيا و قد استعد لها فهي مما تزيده تثبيتا على طريقه ، لهذا كان المؤمنون يزدادون إصرارا على مواصلــة الدرب برغم الواقع الصعب حيث كان العدو قد جمع لهم ، و جاء لحربهم بكل قوته ، و برغم الحرب النفسية التي كان يشنها المنافقون ضدهم.

و حين يرى المؤمنون الصعوبات و الأزمات وقد وعدهم الله ورسوله بها يتيقنون بالفرج لأنهم وعدوا به ايضا

، و تحقق الوعد الأول يدل على تحقق الآخر.

]قالوا هذا ما وعدنا الله و رسوله[

ردا على المنافقين ، و اخمادا لأهواء النفس.

ألم يعدهم الرب سبحانه بالمواجهة التي تنتهي بالنصر المؤزر ، ان اعظم عامل للصمود في الظروف الصعبة التنبأ بها ، والاستعداد النفسي مسبقا لمواجهتها ، و ها هم المؤمنون في هذا المستوى ، و كما النار تفتتن الذهب ، و كما المبرد يلمع زبر الحديد ، كذلك مواجهةالمشاكل تستخرج معدن المؤمن الصافي ، و تجلي نفسه من ادرانها ، هكذا زادت الحرب مع الاحزاب ايمانهم و تسليمهم.

]و ما زادهم[

تجمع الاحزاب ، و تخذيل المنافقين و توهينهم.

]إلا إيمانا[

بالله ، و رسالاته ، و الصراط المستقيم الذي هم عليه.

]و تسليما[

لربهم و قيادتهم ، و حينما ندرس حياة الشعوب نجدها نوعين : فبعضها حينما يتعرض للضغوط و التحديات ينهار ، و البعض الآخر - على العكس تماما - يزداد قوة و ثباتا ، و تحديا ، و يعود هذا الاختلاف لنوعية الثقافة التي يؤمن بها و يمارسها كلا النوعين . فبينما يمارس النوع الاول ثقافة الانهزام ، يمارس النوع الثاني ثقافة التحدي ، و المؤمنون الحقيقيون هم الذين يتمسكون بثقافة التحدي ، فاذا بهم كلما تراكمت العقبات و المشاكل أمامهم كلما فجروا طاقاتهم ، و سدوا ثغراتهم ، و استعدوا لمواجهتها ، كما انهم عند المصاعب يكتشفون أنفسهم ، و الطاقات التي أودعها الله فيهم ، و يستثمرون كل ذلك في سبيل الانتصار على الأزمات و التحديات.

[23]ثانيا : انهم لا يفكرون في أنفسهم كافراد ، انما كقيم و تجمع و أمة ، فلا يفكر احدهم في ذاته ، و انه ربما يقتل في المعركة ، انما يقول : اذا قتلت فسوف يأتي الأخرون و يتابعون مسيرتي (فالمهم عنده ان تنتصر القيم ، لا ان ينتصر هو نفسه) واذا بقيت فسوف أرث الشهداء الذين أريقت دماهم في هذا الطريق ، و أتابع دربهم ، و أفي بحقوقهم ، فأنا مسؤول أمام الله عما أرثه من دماء الشهداء . فشعور المؤمن اذن شعور اجتماعي لا فردي.

]من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم منقضى نحبه[

و صار شهيدا في سبيل الله.

]و منهم من ينتظر[

لقاء الله و يستعد له ، فالمؤمنون متماسكون كالبنيان المرصوص ، بعضهم يمضي و يبقى البعض الآخر ليكمل مسيرته ، دون ان يفكر احدهم في نفسه و شهواته ، و يقول لماذا انا الذي اقتل وليس فلان ؟ و لماذا انا الذي اقتل و يبقى فلان يتنعم بالنصر و المكاسب ؟ كلا..
فالقضية قضية صراع مستمر كل واحد يؤدي دورا معينا فيه ، و المجموع الكلي هو المهم عندهم جميعا ، و هذا نابع من اعتقاد المؤمنين بانهم باعوا أنفسهم لله ، فهم لا يملكونها ، و لا يحق لهم ان يفكروا في مصالحها ، انما يتصرف فيها ربهم و قائدهم حسبما تقتضيه القيم الالهية ، فهم مسلمون الامر لله و لقيادتهم ، و هذا الايمان هو الذي يبعث فيهم الاستقامة و الصمود في الطريق.

]و ما بدلوا تبديلا[

[24]و بعد هذا العرض الصريح و المختصر لجانب من صفات المنافقين و بعدهم المؤمنين ، يشير السياق القرآني اشارة الى جزاء كل من المؤمنين و المنافقين اذ يقول:

]ليجزي الله الصادقين[

و لكن ليس بانتمائهم الاجتماعي الظاهر لحزب المؤمنين ، بل بعملهم الذي يتجانس مع تسميتهم و انتمائهم الحقيقي.

]بصدقهم[

و تعالى الله ان تختلط عليه الاوراق ، بلى . نحن البشر قد تغرنا المظاهر ، فنسمي أنفسنا او الآخرين بالصادقين ، لمجرد حضورهم في تجمع مؤمن ، و لكن الله و هو عالم الغيب و رب العالمين لا يعزب عنه مثل ذلك.

]و يعذب المنافقين إن شاء[

بنفاقهم في كلامهم و عملهم.

]أو يتوب عليهم[

اذا صححوا مسيرتهم ، و عادوا عن النفاق الى الايمان.

]إن الله كان غفورا رحيما[

فهو يقبل التوبة الصادقة ، لانه لم يخلق الناس ليعذبهم ، بل ليرحمهم كما في الآيات و الاحاديث.

موقف القيادة الرسالية من الأحداث و الأشخاص

هدى من الآيات

نجد في هذا الدرس فكرتين هامتين هما:

الأولى :تتمة لما مر في الدروس السابقة حول قصة الأحزاب ، و كيف ان ربنا نصر المؤمنين ، و رد الكافرين يجرون أذيال الهزيمة و الفشل إلى بلادهم مكرهين ، و قد خسروا بطلهم عمرو بن ود.

الثانية : حديث حول نساء النبي (ص. (

و هنا يطرح السؤال التالي : ما هي العلاقة بين الفكرتين في السياق القرآني ؟ أي ما هي العلاقة بين انتصار المسلمين باذن الله في الحرب ، و بين الوصايا و التعاليم الإلهية لنساء النبي في هذه السورة ؟

و الجواب : يبدو أن محور سورة الأحزاب هو القيادة الرسالية في علاقاتها معالاشخاص و الاحداث التي تدور حولها ، و الآيات تؤكد بأنها مستقيمة على رسالة ربها ، لا تلويها الأحداث المتطورة - بما تحمله من ضغوط و اغراءات - و لا يؤثر في مسيرتها الأشخاص الذين يحوطونها لأنها تتبع هدى الله فتحدد موقفها من الأحداث ، و تستجيب لما يتفق معهذا الهدى اذا اقترحه الآخرون ، و ترفض ما سواه مهما كان صاحب هذا الراي قريبا أو معتمدا عندها ، و مهما كانت الظروف .

و من أبرز و أهم الحوادث في حياة القيادات هي الحرب ، و القيادة الرسالية التي تجسدت يومها - في حرب الاحزاب - في أفضل و أكمل صورها في الرسول الأعظم محمد (ص) كالجبل الأشم ، لا تزلزلها العواصف ، بل تتحدى متغيرات الزمان و الحرب و فرار المنافقين و تعويقهم ، و بالذات هزيمتهم في حرب

الاحزاب التي هي أقسى و أشد الحروب خطورة على رسول الله و على الأمة الاسلامية آنذاك ، من الناحية العسكرية ، فالرسالة في أول انطلاقتها ، و القيادة كما الأمة في بداية نشأتها و تكونها ، و قد جمع الكفار فلولهم من كل حدب وصوب.

صحيح ان غزوة أحد كانت أعمق أثرا من الناحية النفسية على رسول الله (ص) حيث ترك عمه حمزة سيد الشهداء مجندلا ، تلوك كبده هند ، كما أن ثلة من أصحابه الخلص لقوا مصرعهم فيها ، إلا أن حرب الاحزاب كانت الأشد و الأقوى عسكريا ، و كان نصر الله للمسلمين في هذهالحرب دليلا واضحا على نصرة الله لعباده المؤمنين ، كما أن استقامة القيادة الرسالية المتجسدة في شخص الرسول (ص) يومذاك و استقامة من يحيطون به من صحبه الخلص ، دليل على النموذج الأرقى للقيادة التي يجب ان تقاوم الحوادث المتغيرة ، و الظروف الصعبة ، و عمومضغوط الحياة ، فعظمة القيادة و مسؤوليتها تتجلى في استقامتها و مقاومتها للنكسات و الظروف السلبية التي تعصف بالامة و بالتجمع الذي تقوده.

ثم ان اقرب الناس الى الانسان و أمضاهم أثرا في شخصيته و قراراته - اذا كان مائعا ضعيف الارادة -هي زوجه ، ذلك ان زوجه حينئذ هي التي تصنع شخصيته ، و بالذات اذا تعلق بها قلبه ، و بالزواج ترسم خريطة الحياة المستقبلية للزوجين ، فالزوجة من الناحية النفسية في غالب الأحيان صورة أخرى للزوج بعد فترة من الزواج ، كما أن الزوج في أكثر الاحيان نسخة أخرى لزوجته و لهذا قيل : وراء كل عظيم امرأة ، فالصورة الاخرى الغير مرسومة ظاهرا لاكثر الرجال ، و السطر الغير مقروء في حياتهم هي زوجاتهم.

و لكن رسول الله (ص) كما القيادة الرسالية لا يتأثر أبدا بزوجاته ، بل يضحي بهن في لحظة واحدة لوأمره الله بذلك ، أو تعارض بقاؤه معهن مع أهداف رسالته ، و الآية (٢٧) ربما جاءت حينما كان الرسول (ص) متزوجا بتسع زوجات ، فأمره حينئذ بتخييرهن بين البقاء معهو تحمل الأذى و الهجرة و الفقر ، أو الطلاق بالمعروف و الإحسان ، و بالفعل خيرهن (ص) لان بعضهن كانت تقول : لو يطلقنا رسول الله لوجدنا من يتزوجنا من أهلنا ، و يخرجنا من هذا العيش المشين ، فقبلت احداهن الطلاق ، فطلقها الرسول ، و لكنها اصبحت ذليلة في قومها ، فقيرة إلى أن ماتت ، مريضة على اسوء حال ، دون ان يتزوجها أحد.

و كان هذا التصرف من الرسول (ص) معقولا ، فالتي تختار الرسول زوجا لها - وهو الذي جاء مغيرا للعالم ، و صانعا لأمة حسب وحي الله ، و مؤسسا لتاريخ حضارتها - لابد ان تتحمل الصعوبات و تستوعب طموحاته و ممارساته ، و تكيف حياتها بما يتناسب مع كل ذلك.

اذن تتلخص العلاقة بين الفكرتين في محورية رسول الله كقائد رسالي للأمة ، لا يتأثر بالأحداث و الظروف الصعبة كالحروب مثل حرب الاحزاب وهي أشدها ، و لابالاشخاص كالمنافقين أو زوجاته ، و هنا نذكر بقوله تعالى : " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة " فالرسول هو القيادة التي يجب علينا الاقتداء بها اذا كنا في موقع القيادة ، أو البحث عمن يكون امتدادا لها ثم التسليم له.

بينات من الآيات

[25]اجتمع الاحزاب و جاؤوا بخيرة فرسانهم ، و كان ذلك لهدفين:

-1التشفي من الاسلام و الرسول و المسلمين ، من الاسلام باعتباره يناقض أفكارهم و معتقداتهم ، و من الرسول لأنه زعيم الاسلام ، و القيادة المضادة لهم ، و من المسلمين لخروج اكثرهم عن طاعتهم ، و لما لحقوا بهم من هزائم في غزوات سابقة كغزوة بدر.

- 2الانتصار و جمع الغنائم من المسلمين ، سواء كانت الغنائم أموالا أو أناسا يسترقونهم ، و عموما فإن المشركين كانوا يشعرون بأن المدينة - بعد هجرة الرسول اليها - خرجت من تحت سيطرتهم ، فلعلهم كانوا يرجون التمكن منها و اعادتها من جديد لنفوذهم.

و لكن الله أنعم على المسلمين حينما أفشل خطط العدو ، فلم يصل الى اهدافه من جهة ، و من جهة أخرى حينما نصر المؤمنين دون قتال أو خسائر و تضحيات.

]و رد الله الذين كفروا[

دون ان يحققوا أهدافهم منهزمين.

]بغيظهم[

و حقدهم الذي لم يشفوه ، و من دون غنائم.

]لم ينالوا خيرا و كفى الله المؤمنين القتال و كان الله قويا عزيزا]قويا اذ رد الكفار منهزمين مع كثرتهم ، و عزيزا اذ نصر المؤمنين ، فلو لم ينصرهم في حرب الأحزاب لصاروا أذلة امام الكفار ، و لزالت هيبتهم.

[26]و من فوائد حرب الاحزاب أنها كشفت أعداء الرسالة الحقيقتين ، و جرت المسلمين الى حرب كان الانتصار حليفا لهم فيها مع بني قريضة.

]و أنزل الذين ظاهروهم[

أي أعانوا الكفار على المسلمين.

]من أهل الكتاب[

و هم يهود بني قريضة.

]من صياصيهم[

حصونهم و قلاعهم.

]و قذف في قلوبهم الرعب[

و كان الرعب من الآيات التي نصر بها الرسول (ص) في حروبه ضد الاعداء ، و لا ريب ان الهزيمة المعنوية و النفسية تنتهي الى الهزيمة العسكرية ، فالرسول يصبح الحاكم المطلق للجزيرة ، يهابه الجميع ، و يخافون سطوته لأنه يعبئ جيشا لمحاربةالروم - الدولـــة العظمى في ذلك العصر - و في غزوة أحد حينما ينهزم المسلمون عسكريا ، ينزل الوحي على النبي (ص) بان يجمع المجروحين من جيشه ، و يلاحق العـــدو ، فاذا بهم يحسبونه جمع جيشه من جديد لحربهم ، فينهزمون بعد الانتصار بسبب الرعب .

و هكذا كان مصير بني قريضة الذين زعموا بأن الرسول ضعيف لانه لم يحارب قريش و احزابها ، و لكنهم سرعان ما وجدوا المسلمين يحاصرون حصونهم ، فانهزموا و كانت هزيمتهم بعامل الرعب لا بالسلاح.

]فريقا تقتلون و تأسرون فريقا[

و ذلك في قصة مفصلة سنتعرض لذكرها في عقب الآية القادمة.

] [27]و أورثكم أرضهم[

أرض اليهود.

]و ديارهم[

الحصون و البيوت.

]و أموالهم[

اشارة الى الممتلكات المادية التي غنمها المسلمون منهم.

]و أرضا لم تطئوها[

بالرجال و الخيل - تعبيرا عن الحرب - انما أخذها المسلمون بالحصار.

]و كان الله على كل شيء قديرا[

و هــذا مما يعزز ثقة المؤمنين بربهم ، و هو شعورهم بانه صاحب الإرادة المطلقة ، و لا ريب ان الذي يحس بانه مدعوم من قوة لا متناهية سوف يزداد تسليما لها ، و اطمئنانا لوعدها ، و استقامة على هداها.

غزوة بني قريضة

روى الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن ابيه ، قال : لما انصرف النبي (ص) مع المسلمين عن الخندق ، و وضع عنه اللامة ، و اغتسل ، و استحم ، تبدى له جبرائيل (ع) فقال : " عذيرك من محارب ، ألا أراك قد وضعت عندك اللامة ، و ما وضعناهابعد ! " فوثب رسول الله (ص) فزعا ، فعزم على الناس ان لا يصلوا صلاة العصر حتى يأتوا بني قريضة ، فلبس الناس السلاح ، فلم يأتوا بني قريضة حتى غربت الشمس ، و اختصم الناس ، فقال بعضهم : ان رسول الله (ص) عزم علينا ان لا نصلي حتى تأتي بني قريضة ، فانمانحن في عزمة رسول الله ، فليس علينا إثم ، و صلى طائفة من الناس احتسابا ، و تركت طائفة منهم الصلاة حتى غربت الشمس ، فصلوها حين جاءوا بني قريضة احتسابا ، فم يعنف رسول الله (ص) واحدا من الفريقين ، و بعث علي بن ابي طالب (ع) على المقدم ، و دفع اليه اللواء ،و أمره ان ينطلق حتى يقف بهم على حصن بني قريضة ، ففعل ، و خرج رسول الله (ص) على اثاره ، فمر على مجلس من الانصار في بني غنم ينتظرون رسول الله (ص) فزعموا انه قال : مر بكم الفارس آنفا ، فقالوا مـــر بنا دحية الكلبي على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج ، فقال رسول الله (ص) : " ليس ذلك بدحية و لكنه جبرائيل (ع) ارسل الى بني قريضة ليزلزلهم و يقذف في قلوبهم الرعب " قالوا و سار علي (ع) حتى اذا دنا من الحصن سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله (ص)فرجع حتى لقي رسول الله (ص (بالطريق ، فقال : يا رسول الله لا عليك ان لا تدنو من هؤلاء الأخابث ، قال " :اظنك سمعت لي منهم اذى " فقال : نعم يا رسول الله فقال : " لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئا " فلما دنا رسول الله (ص) من حصونهم ،قال " : يا اخوة القردة و الخنازير ، هل أخزاكم الله و انزل بكم نقمته ؟! " فقالوا :يا ابا القاسم ما كنت جهولا ، و حاصرهم رسول الله (ص) خمسا و عشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار ، و قذف الله في قلوبهم الرعب ، و كان حيي بن أخطب دخل مع بني قريضة في حصنهم حين رجعت قريش و غطفان ، فلما ايقنوا ان رسول الله)ص) غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ، قال كعب بن اسد : يا معشر يهود ! قد نزل بكم من الأمر ما ترون و اني عارض عليكم خلالا ثلاثا ، فخذوا أيها شئتم ، قالوا : ما هن ؟ قال : نبايع هذا الرجل و نصدقه ، فو اللهلقد تبين لكم انه نبي مرسل ، و انه الذي تجدونه في كتابكم ، فتأمنوا على دمائكم و أموالكم و نسائكم ، فقالوا : لا نفارق حكم التوراة أبدا ، و لا نستبدل به غيره ، قال :فاذا أبيتم علي هذا فهلموا فلنقتل أبناءنا و نساءنا ، ثم نخرج الى محمد رجالا مصلتين بالسيوف ، و لم نترك وراءنا ثقلا يهمنا ، حتى يحكم الله بيننا و بين محمد فان نهلك نهلك ، و لم نترك وراءنا نسلا يهمنا ، و ان نظهر لنجدن النساء و الابناء ، فقالوا : نقتل هؤلاء المساكين ، فما خير في العيش بعدهم ؟! قال : فاذا أبيتم علي هذه فان الليلة ليلة السبت، و عســى ان يكون محمد و اصحابه قد أمنوا فيها ، فانزلوا فعلنا نصيب منهم غرة ، فقالوا : نفسد سبتنا ، و نحدث فيها ما أحدث من كان قبلنا ، فأصابهم ما قد علمت من المسخ ، فقال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما ، قال الزهري : و قالرسول الله (ص) حين سألوه ان يحكم فيهم رجلا : " اختاروا من شئتم من أصحابي " فاختاروا سعد بن معاذ فرضي بذلك رسول الله (ص) فنزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأمر رسول الله (ص) بسلاحهم فجعل في قبته ، و أمر بهم فكتفوا و اوثقوا ، و جعلوا في دار

اسامة ، و بعث رسول الله (ص) الى سعد بن معاذ ، فجيء به ، فحكم فيهم بأن يقتل مقاتليهم ، و تسبى ذراريهم و نساؤهم ، و تغنم أموالهم ، و ان عقارهم للمهاجرين دون الانصار ، وقال للانصار أنكم ذوو عقار و ليس للمهاجرين عقار ، فكبر رسول الله وقال لسعد : " لقد حكمت فيهم بحكم الله عز و جل " فقتل رسول الله (ص) مقاتليهم وكانوا فيما زعموا ستمائة مقاتل ، و قيل قتل منهم اربعمائة و خمسين رجلا ، وسبى سبعمائة و خمسين ، و روي : انهم قالوا لكعب بن أسد و هو يذهب بهم الى رسول الله (ص) : ارسالا يا كعب ما ترى يصنعبنا ؟! فقال : كعب افي كل موطن تقولون ؟! الا ترون ان الداعي لا ينزع ، ومن يذهب منكم لا يرجـــع ؟ هو و الله القتل ، و اتى بحيي بن اخطب - عدو اللــه - عليه حلة فاختية ، قد شقها عليه من كل ناحية كموضع الانملة ، لئلا يسلبها ، مجموعة يداه الى عنقه بحبل ،فلما بصر برسول الله (ص) فقال : أما و الله ما لمت نفس على عداوتك ، و لكنه من يخذل الله يخذل ، ثم قال : ايها الناس ! انه لا بأس بأمر الله ، كتاب الله ، و قدره ملحمة كتبت على بني اسرائيل ، ثم جلس فضرب عنقه ، ثم قسم رسول الله (ص) نساءهم و ابناءهم و اموالهم على المسلمين ، و بعث بسبايا منهم الى نجد مـع سعد بن زيد الانصاري فابتاع بهم خيلا وسلاحا ، فلما انقضى شأن بني قريضة ، انفجر جرح سعد بن معاذ ، فرجعه رسول الله (ص) الى خيمته التي ضربت عليه في المسجد ، و عن جابر بن عبد الله قال : جاء جبرائيل (ع) الى رسول الله (ص) فقال " : من هذا العبد الصالح الذي مات ؟! فتحت له أبواب السماء ، و تحرك له العرش "فخرج رسول الله (ص) فاذا سعد بن معاذ قد قبض .)١(

تعليق

لقد قتل بسبب حكم سعد بن معاذ ما بين (٤٥٠ و ٦٠٠) مقاتل من بني

(1)مجمع البيان / ج ٨ -ص ٣٥١

قريضة ، مع ان الاسلام حساس في موضع القتل ، فهو يعتبر من يقتل نفسا واحدة كأنما يقتل الناس جميعا " كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا " (١) مما يجعل هذا الحكم في ظاهره حكما جائرا في حقهم ، أما حينما نعود الى الواقع فاننا نكتشف صواب هذا الحكم حتى بالقياس الى عادات المجتمع آنذاك . فالخيانة التي ارتكبها بنو قريضة بنقضهم العهد مع النبي)ص) في ساعة الشدة ، عندما اعانوا الكفار و المشركين عليه و على الامة تستحق ذلك في حكم الشرع ، و في منطق المجتمع الذي يرفض الخيانة بشتصورها ، و في كل الظروف.

فمع ان الحروب و الغارات كانت سمة للعرب إلا أن الوفاء بالعهد ، و الإلتزام بالمعاهدات ، بل و الدفاع عن الحلفاء أمر مقدس عندهم ، و لان بني قريضة لم يدافعوا عن رسول الله ، بل وحاربوه مع سائر الأحزاب فانهم استحقوا ذلك ، و هذا أمر طبيعي تحكم به حتى التوراة.

ثم ان سعد بن معاذ الذي جرح بسهم في جبهته ، في معركة الاحزاب و استشهد بعد حادثة بني قريضة كان صورة للانسان الذي تاسى برسول الله (ص) فهو ممن استجاب لقوله تعالى : " لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة " الآية ، و هو ايضا من المعنيين بقوله تعالى : " من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه " الآية.

[28]و من هذه الآية ينتهي السياق الى الفكرة الثانية التي تدور حول علاقة النبي (ص) بأزواجه.

]يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا و زينتها]فان هذا لا يتفق مع اهداف النبي في الدنيا ، ولا تطلعاته في الحياة و لعلنا(١ (المائدة / ٣٢

نستلهم من هذه الآية أن المؤمن المجاهد الذي يريد التأسي برسول الله في كل شؤونه ، و يسعى لتطبيق قوله سبحانه : " ولكن في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله و اليوم الآخر " إن عليه هو الآخر ان يتحرر من ضغط زوجته ولا يخضع لها اذا تحولت الى عقبة في طريق الجهاد وحتى لو بلغ الأمر به

الى تهديدها بالطلاق يفعل ذلك ابتغاء مرضاة ربه.

]فتعالين أمتعكن[

من المستحب للمؤمن حينما يفارق زوجته أو صديقه ان تكون خاتمة المطاف طيبة حسنة ، فيعطي للطرف الآخر هدية أو ما أشبه ، و قد يستفاد من المتاع هنا نصف المهر اذا لم يدخل بالزوجة ، و كله اذا دخل بها.

]و أسرحكن سراحا جميلا[

اي طلاقا حسنا ، بتفاهم من دون شجار ، لأن هناك من الازواج من يفترقون بعد العراك و الشتم.

[29]اما الخيار الآخر فهو بقاء العلاقة مع النبي بشرط ان تكون أهداف هذه العلاقة هي:

- 1مرضاة الله و إن كانت مخالفة لما تميل له النفس.

]و إن كنتن تردن الله[

- 2التسليم للرسول.

]و رسوله[

و الذي يريد الرسول هو الذي يسلم لقيادته ، و ينتمي لتجمعه ، و يحبه بقلبه انتماءا سياسيا و اجتماعيا و قلبيا ، ولا يتحقق هذا الانتماء الشامل من دون التسليم الى من يمثل الرسول في المجتمع بقيادته و سلوكه.

- 3حب الآخرة.

]و الدار الاخرة[

من طبيعة الانسان انه يعيش ضغثا من الدنيا و ضغثا من الآخرة ، و على هذا الأساس يجب ان تكون الاولوية في حياة الانسان للدار الآخرة " و ابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة و لا تنس نصيبك من الدنيا " (١)و عموما فان من يريد الله والرسول و اليوم الآخر هو الذي يعمل من اجل ذلك ، و هذه الحقيقة تؤكدها الآية الكريمة : " و من أراد الآخرة و سعى لها سعيها و هو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا " (٢) وفي هذه الآية يؤكده قوله تعالى:

]فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما[

اذن فالانتساب للرسول بمجرد لقلقة اللسان و قبله الايمان بالله و اليوم الآخر وحده من دون السعي و العمل بما يتفق مع ذلك لا يكفي ، انما العمل هو الذي يقرب الانسان أو يبعده من ربه ، و الله يقول : " ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه " (٣) وأولى الناس بالرسول ، الذي يتأسون به ، و ليس قرابته بالنسب أو السبب ، وما نجده في الروايات من تعظيم لمنزلة فاطمة (ع) ليس لقرابتها من الرسول انما(١) القصص / ٧٧

(2)الاسراء / ١٩

(3)آل عمران / ٦٨

لاقتدائها به ، و كونها نسخة اخرى من حياته (ص) و لذلك اصبحت سيدة نساء العالمين.

[30]ثم يتوجه النداء من الله مباشرة لنساء النبي:

]يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة[

واضحة ، مورست بإرادة تامة ، و من دون أسباب قاهرة ، و لم تعقبها توبة.

]يضاعف لها العذاب ضعفين[

و ذلك لانها سوف تصبح قدوة سيئة للأخريات ، و لانها ترتبط بالرسول فقد يمس انحرافها بسمعته في المجتمع ، كما يفترض في من يعيش بين يدي الرسول ان يكون مطيعا لا عاصيا أو منحرفا ، فقد يرتكب الانسان المعصية وهو يعيش في محيط من الإنحراف ، و لكن ما هو عذر العاصي في محيط كله يدعو للصلاح و الطاعة ؟

ثم يؤكد القرآن ان لا نتصور بان انتسابنا للأولياء بأي شكل - غير العمل الصالح و التأسي بهم - يمكنه ان يخلصنا من النار ، فاذا عملنا المعصية ثقل على الله أوعز عليه - تعالى عما يشركون - ان يعذبنا . كلا .. فالجميع عنده سواء ، لا يميز بينهم سوى العمل الصالح.

]و كان ذلك على الله يسيرا [

[31]ثم من الجانب الآخر يضاعف الله العمل الصالح لنساء النبي.

]و من يقنت منكن[

تسلم و تخضع.

]لله و رسوله[

ولا تخرج عن طاعتهما.

]و تعمل صالحا[

ترجمة خارجية لذلك التسليم ، اذ لا يكفي خضوع القلب ، بل لابد من تسليم جوارح الانسان جميعها ، و التي تعمل من نساء النبي ذلك.

]نؤتها أجرها مرتين[

و لهذه الآية تفسيران:

الاول :ان المقصود من المرتين هو مضاعفة الجزاء ، و هو أمر طبيعي ، لان السلوك الحسن لزوجات الرسول يصيرهن قدوات حسنة للآخرين و في الحديث عن أبي جعفر)ع) قال:

"ايما عبد من عباد الله سن سنة هدى كان له أجر مثل أجر من عمل بذلك من غير ان ينقص من اجورهم شيء ، و ايما عبد من عباد الله سن سنة ضلالة كان عليه مثل وزر من فعل ذلك من غير ان ينقص من اوزارهم شيء(1) " الثاني : اضافة الى ذلك يقصد بالمرتين الدنيا و الآخرة ، فأما في الدنيا فالجزاء برفع الله شأنهم بين الناس ، و أما في الآخرة فما تؤكده عجز الآية:

]و أعتدنا لها رزقا كريما[

] [32]يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن](١) بح / ج ٧١ - ص ٢٥٨

لان الله سيضاعف لكن الجزاء حسنا كان أو سيئا ، و السياق يشير الى ان هذه المفارقة ليست نتيجة للتفوق العنصري الذاتي ، انما لارتباطهن المباشر برسول الله (ص) و لهذا حرص الاسلام على نقاء سمعتهن و طهارة سلوكهن الاجتماعي ، و من هذا المنطلـــق حدد الله اسلوب الكلام الذي ينبغي ان تتعاطاه نساء النبي مع ابناء المجتمع اذ قـال:

]فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض[

يجب ان يكون حديث المرأة المسلمة مع الجنس الآخر و بالذات نساء الرسول جادا ، و خاليا من الدلال و التملق ، حتى لا يجر هذا الاسلوب الى علاقات غير مشروعة مع الآخرين ، حفاظا على عفتها ، و سلامة للأسرة و المجتمع المسلم - هذا من الناحية الاجتماعية - و للموضوع وجهة سياسية اذا تحدد في زوجة القيادة الرسالية أو غيرها مما يشكل خطرا على أمن الأمة و مسيرتها ، لان الآخرين من المنافقين - و عموم الاعداء - اصحاب الاطماع السياسية ، يبحثون عن ثغرة ينفذون منها للقيادة ليحتووها ، أو يؤثروا على قراراتها ، وقد تكونهذه الثغرة هي زوج القيادة لو ضعفت و خضعت امام الآخرين .

أما عن محتوى التعامل من قبل نساء النبي فيجب ان يكون متناسبا مع موقعهن ، و مرضيا (معروفا) عند الرسول ، و ليس مخالفا له.

]و قلن قولا معروفا[

و هكذا يجب ان يكون كلام زوجة الرسول (ص) ومن ينتسب الى القيادة متوافقا مع مواقفها و اسلوبها ، اذ يجب ان يعرفوا بانهم لا يمثلون أنفسهم انما يمثلون القيادة بانتمائهم اليها ، و لانها يجب ان تكون جدية فلابد ان يكون كلام المنتمينجديا أيضا.

ولا تعني الجدية من قريب أو بعيد ان يشتم هؤلاء الآخرين . كلا .. و هذا درس يهم القيادة ، و كل من يدور حول القيادة ، ذلك أن من مشاكل القيادة انها تكون جيدة في غالب الأحيان (القائد - الامام - الفقيه - المرجع - الرئيس) لكن الحاشية (البطانة) تكون خلافا لذلك ، فاما الحواشي فعليهم ان يتقوا الله لأن خطأهم يكون بعشرة كما صوابهم ، و اما القيادات فيجب ان تكون حذرة من التاثر السلبي بالبطانة ، و لهذا الشطر من الآية الكريمة تفسير اجتماعي يهم المرأة وهو : انه يجب على المرأة بان تقتصر في حديثها مع الرجالعند الضرورات ، بما هو متعارف اجتماعيا و عقليا بكفايته ، و هذا ما تؤكد عليه رواياتنا ، و ما يستفيده معظم الفقهاء منها.

انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت

بينات من الآيات

[33]لا يعارض الاسلام خروج المرأة من حدود البيت و تعلمها ، أو دخولها المعترك الاجتماعي و السياسي ، و حتى العسكري بعض الاحيان ، انما يرفض خروجها بهدف الفساد و الافساد.

]وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى]لما في ذلك من فساد النفوس ، و انحطاط الاخلاق بالنسبة للمجتمع.

]و أقمن الصلاة[

توثيقا للعلاقة مع الله.

]و ءاتين الزكاة[

تطهيرا للمال و النفس ، و بناءا لاقتصاد المجتمع.

ثم ينعطف السياق ليحدثنا عن ضرورة طاعة الله و الرسول ، كما يشير الى طهارة أهل بيته ،و هذه الانعطافات و الالتفافات عادة ما يكون التدبر فيها مفتاحا لفهم الآيات ، و العلاقة بينها ، و تحول الخطاب من الغائب الى المخاطب ، أو من الخاص الى العام ، أو العكسهو من قبيل هذه الالتفاتات في السياق القرآني ، و المثل الظاهر للالتفات في القرآن هو ما نكرره عند كل صلاة في سورة الحمد ، فبعد ان نقول : " الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين " كل ذلك بضمير الغائب ، نقول : " اياك نعبدو اياك نستعين "بصيغة المخاطب ، و ذلك لاسباب منها:

- 1لان الانسان في اول علاقته مع ربه يكون بعيدا عنه بعد الذكر و ليس المسافة ، لكنه حينما يستمر في ذكره و العبادة له يتقرب اليه ، و لعل السورة تحدثنا عن هاتين المرحلتين ، ففي البداية يخاطب الانسان ربه بضمير الغائب ، اما حينما يتقرب اليه فانه يتحدثمعه بضمير المخاطب القريب.

- 2لو قلنا نعبدك و نستعينك ، لظن اننا نعبد غيره أيضا ، أما وقد تقدمت كاف الخطاف التي تخص بالخطاب فقد حصرت العبادة و الاستعانة في الله وحده ، و هنا في هذه الآيات من سورة الاحزاب نرى تغيرا في لحن القرآن ، فبينما كان الخطاب بصيغة جمع المؤنث ، موجهالنساء النبي " يا نساء النبي ... " فاذا به يتغير الى صيغة المفرد المؤنث " و من يقنت منكن " " للمحسنات منكن " و منه الى الصيغة العامة و جمع المذكر ، و التحول الى الصيغة الأخيرة) المذكر العام) يذكرنا بانعطاف آخر مرفي الدرس السابق ، حيث تحول السياق من المخاطب الجمع ، للمؤنث الى المفرد " للمحسنات منكن أجرا عظيما "و لعل الحكمة في ذلك : انالسياق أراد التأكيد على ان القيم العامة و الواضحة كقيمة التقوى قائمة ، و تشمل الجميع حتى نساء النبي (ص) فلا تصبح المرأة من اهل الجنة بمجرد انتمائها للنبي ، بل لابد ان تكون هي نفسها محسنة و صالحة أيضا.

فالله سبحانه يذهب الرجس عن أهل البيت اذا كانوا ممن انتمى الى الرسالة قلبا و قالبا ، اما من انتمى ظاهرا بنسبه أو بسب دون العمل فهو غير طاهر لأن ما يطهر الانسان هو الرسالة و العمل الصالح بما يغيرانه من سجايا الانسان الباطنة و الظاهرة فدخولك في هذاالبيت أو خروجك منه لا يؤثر الا بقدر ما تستوعب من قيم هذا البيت و رسالته و سلوكه أو بالعكس ، من هنا جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام:

"ولايتي لمحمد أحب الي من ولادتي منه"

]و أطعن الله و رسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا]و لهذه الآية علاقتان وثيقتان بما قبلها:

الاولى :علاقتها الخاصة بقوله تعالى : " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة "فالسورة كلها تدور حول قضية القيادة الرسالية ، المتجسدة أيام الرسول)ص) في شخصه ، و من بعده فيمن يمثل امتدادا حقيقيا لقيمه و قيادته ، لاقتدائه به و هم أهل بيته الذين طهرهم الله عن الرجس ، قال الامام علي)ع: (

"انا وضعت في الصغر بكلاكل العرب ، و كسرت نواجم قرون ربيعة و مضر ، و قد علمتم موضعي من رسول الله - صلى الله عليه و آله - بالقرآبة القريبة ، و المنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره و أنا ولد ، يضمني الى صدره ، و يكنفني في فراشه ،و يمسني جسده ، و يشمني عرفه ، و كان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه ، و ما وجد لي كذبة في قول ، ولا خطلة في فعل ، و لقد قرن الله به -صلى الله عليه وآله - من لدن ان كان فطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ، و محاسن اخلاق العالم ، ليله و نهاره ، و لقدكنت اتبعه اتباع الفصيل اثر أمه ، يرفع لي في كل يوم من اخلاقه علما ، و يأمرني بالاقتداء به ، و لقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله - صلى الله عليه وآله - و خديجة وانا ثالثهما ، ارى نورالوحي و الرسالة ، و اشم ريح النبوة " (١(

و لم يكن هذا الحديث كلاما كتبه الامام (ع) في كتاب و ابقاه لتقرأه الاجيال ، انما هي خطبة القاها أمام عامة المسلمين ، و صدقوه جميعا ، ولم يرد في التاريخ ان احدا قد كذبه في ذلك.

و العلاقة بين آية التأسي و هذه الآية : انه كما تجب طاعة الله و الرسول على نساء النبي و المسلمين ، تجب كذلك طاعة اهل بيته الذين تعنيهم الآية و هم الأئمة (ع) الذين اذهب الله عنهم الرجس ، و طهرهم بالعلم و التقوى و العصمة.

الثانية : علاقتها العامة بالآيات السابقة حول نساء النبي - و منهن المرأة المسلمة - فهذا الاهتمام و التركيز الذي يوليه الاسلام للمرأة في صورة تعاليم تربوية و اجتماعية و سياسية نابع من نظرة الدين لموقعها الحساس في المجتمع المسلم و الأسرة المسلمة ، ودورها الخطير في مستقبلها ، فتحقيق هدف الاسلام - و هو بناء المجتمع النموذجي الذي ينطلق من الاسرة النموذجية - يبدأ من خلق المرأة الفاضلة.

و لعله لهذا السبب جاء الحديث عن البيت الفاضل الطاهر بعد مجموعة التعاليم(١) نهج البلاغة / خ 134 -ص ٢٠٠

في شأن المرأة ، اشارة الى هدف هذه التعاليم القرآنية.

و قبل ان نمضي قدما في التدبر في بقية آيات هذا الدرس ، نورد بعض النصوص التي تفسر بشكل أوضح الآية الكريمة و المروية عن الكتب المعتمدة لدى الفرق الاسلامية جميعا.

يقول صاحب تفسير الميزان (رض) و بهذا الذي تقدم اشارة للشرح بتأييد ما ورد في اسباب النزول : ان الآية نزلت في النبي)ص) و علي و فاطمة و الحسنين عليهم السلام خاصة ، لا يشاركهم فيها غيرهم .

و هي روايات جمة تزيد على سبعين حديثا ، يربو ما ورد منها من طرق أهل السنة علـى ما ورد منها من طرق الشيعة . فقد روتها اهل السنة بطرق كثيرة عن أم سلمة ، و عائشة ، و ابي سعيد الخدري ، و سعد ، و وائلة بن الأسقع ، و أبي الحمراء ، و ابن عباس ، و ثوبان مولى النبي ، و عبد الله بن جعفر ، و علي ، و الحسن بن علي - عليهما السلام - في قريب من اربعين طريقا.

و روتها الشيعة عن علي ، و السجاد ، و الباقر ، و الصادق ، و الرضا - عليهم السلام - و ام سلمة ، و ابي ذر ، و ابي ليلى ، و ابي الاسود الدؤلي ، و عمر بن ميمون الأودي ، و سعد بن ابي وقاص في بضع و ثلاثين طريقا.

في الدر المنثور اخرج الطبراني عن ام سلمة : ان رسول الله (ص) قال لفاطمة:

"ائتيني بزوجك و ابنيه فجاءت بهم فألقى رسول الله (ص) عليهم كساء فدكيا ثم وضع يده عليهم ثم قال : اللهم إن هؤلاء أهل محمد - و في لفظ آل محمد - فاجعل صلواتك و بركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم . انك حميد مجيد. "

قالت أم سلمة : فرفعت الكساء لادخل معهم ، فجذبه من يدي و قال : " إنك على خير. "

و رواه في غاية المرام ، عن عبد الله بن احمد بن حنبل ، عن ابيه باسناده ، عن أم سلمة.

و فيه اخرج ابن مردوية ، عن ام سلمة ، قالت : نزلت هذه الآية في بيتي " انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت و يطهركم تطهيرا " و في البيت سبعة :جبرئيل ، و ميكائيل ، و علي ، و فاطمة ، و الحسن ، و الحسين ، و انا على باب البيت ، قلت : يارسول الله ألست من أهل البيت ؟ قال : " إنك على خير انك من ازواج النبي. "

و فــي الكتاب ذاته اخرج ابن جرير ، و ابن المنذر ، و ابن ابي حاتم ، و الطبراني ، و ابن مردوية ، عن أم سلمة زوج النبي : ان رسول الله (ص) كان ببيتها على منامة لـه ، عليــه كساء خيبري ، فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة ، فقال رسول الله (ص) : " ادعيزوجك و ابنيك حسنا و حسينا " فدعتهم ، فبينما هم يأكلون اذ نزلت على رسول الله)ص) : " انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا " .

فأخذ النبي بفضلة إزارة فغشاهم إياها ، ثم أخرج يده من الكساء و أومأ بها الى السماء ثم قال : " اللهــم هؤلاء أهل بيتي و خاصتي فاذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا " قالها ثلاث مرات:

قالت ام سلمة : فادخلـت رأسـي في الستر ، فقلت : يا رسول الله و انا معكم ؟ فقال : " انك الى خير " مرتين.

و روي الحديث في غاية المرام ، عن عبد الله بن حنبل بثلاث طرق - عن ام سلمة ، و كذا عن تفسير الثعلبي.

وفيه اخرج ابن مردوية ، و الخطيب ، عن ابي سعد الخدري قال : كان يوم أم سلمة أم المؤمنين ، فنزل جبرئيل الى رسول الله (ص) بهذه الآية : " انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا " قال : فدعا رسول الله (ص (بحسن و حسين و فاطمةو علي فضمهم اليه ، و نشر عليهم الثوب ، و الحجاب على أم سلمة مضروب ثم قال : " اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم اذهب عنهم الرجس و طهرهــم تطهيرا " قالت أم سلمة : فانا معهم يا نبي الله ؟ قال : " انت على مكانك و انك على خير. "

و فيــه أيضا عن مسلم في صحيحه باسناده ، عن يزيد بن حيان ، عن زيد بن ارقم ، قال : قال رسول الله (ص: (

"اني تارك فيكم الثقلين أحدهما كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى و من تركه كان على ضلالة "فقلنا : من أهل بيته نساؤه ؟ قال:

"لا ايم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر ثم الدهر ، ثم يطلقها فترجع الى اهلها و قومها ، اهل بيته اصله و عصبته الذين حرموا الصدقة بعده(1) " كما ان الآيات منقولة في كتب أخرى من جملتها الصحاح ، بما لا يمكن انكاره لبلوغه حد التواتر ، و هكذا تؤكد الاحاديث ما فسرناه بخصوص هذه الآية الكريمة.

(1)راجع تفسير الميزان / ج ١٦ - تفسير الآية.

بالاضافة الى هذه الروايات ، فانا من خلال دراستنا للتاريخ نجد ان وضعا خاصا كان يتمتع به أهل البيت (ص) و بالذات فاطمة الزهراء و الأئمة المعصومين - عليهم السلام - و لا يمكن لمؤرخ منصف ان ينكر تميزهم بالرغم مما لقوه من الضغوط و المصاعب ، فقد كانوا يجسدون روح الاسلام و قيمه في سلوكياتهم الشخصية ، و دعوتهم للناس ، و قيادتهم للحركة الرسالية عبر التاريخ ، و مواجهتهم للطغاة و .. و .. الخ.

بلى . كانت في أيام حياتهم بعض الأقلام و الالسنة التي باعت نفسها للطغاة ، تحاول النيل منهم لقاء المال و الجاه ، اما الآن فبامكان الجميع ان ينطروا للتاريخ نظرة واضحة مجردة ليكتشفوا دور أهل البيت في التاريخ الاسلامي ، وإذ أنزل الله هذه الآية فيهم فلعلمه بانهم سوف يجسدون الحق في حياتهم ، من خلال اقتدائهم بالرسول ، و تربيته لهم ، وهو الذي ربى البشرية و دفعها دفوعات حضارية ، لا زالت تتقدم بسببها الى اليوم و غد ، و نتساءل : أوليس الرسول قادرا على ان ينقل تلك الروح الى أولاده ؟

ان علماء النفس و التربية و الاجتماع يجمعون على أن الاب يؤثر في أولاده مرتين : مرة من خلال التربية

، و مرة من خلال الوراثة - هذا بغض النظر عن العامل الغيبي الذي يختص به أهل بيت النبوة - و نحن من مجمل دراستنا للتاريخ ، و معرفتنا بهذه العلوم ، و واقعحياة الرسول و سيرته ، و حياة أهل البيت و سيرتهم نستطيع ان نكتشف بان تلك الرسالة امتدت بعد الرسول في أهل بيته و خاصة الأئمة (ع. (

و هو لم يأل جهدا في بيان هذه الحقيقة ، فلم يدع مناسبة إلا و أكد فيها منزلة أهل البيت عند الله و عنده.

قال رسول الله (ص: (

اني تارك فيكم الثقلين خليفتين : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، و عترتي أهل بيتي ، و إنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض " (١)وقال (ص: (

"من دان بديني ، و سلك منهاجي ، و اتبع سنتي ، فليدن بتفضيل الأئمة من أهل بيتي على جميع أمتي ، فان مثلهم في هذه الأمة مثل باب حطة في بني اسرائيل (2) "و قال (ص: (

"انما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ، و من تخلف عنها غرق ، و مثل باب حطة من دخله نجا و من لم يدخله هلك " (٣)و في الأثر انه (ص) كان يطرق باب دار علي و فاطمة (ع) و يقول :

"الصلاة الصلاة أهل البيت"

ثم يقرأ الآية " انما يريد الله ... " الآية ، بصوت عال عند الفجر ، استمر لذلك ستة أشهر ، وكان هدفه ان يسمع جميع الناس بذلك الأمر ، و لم يكن هذا التأكيد من رسول الله)ص) بدافع العاطفة و الشفقة على أولاده ، انما كان أمرا الهيا مباشرا ، كماأن سنة الله في الحياة تقتضي ان يبقى خط رسالي صالح العمل ،(١) بح / ج - 23ص ١٠٧

(2)المصدر / ص ١١٩

(3)المصدر / ص ١٢٠

و طاهر النفس ، تمتد الرسالة من خلاله للأجيال ، و لعل حفظ الله للرسالة في قوله : " انا نحن نزلنا الذكر و انا له لحافظون " يتم بوسائل عديدة من أهمها وجود الخط الأصيل الذي يحفظ الرسالة من التحريف.

كما أنه لابد للناس من قدوة و امام ، و خط أصيل يستوعب افراده روح الرسالة ، و يجسدونها في سلوكهم ، و يتوارثونها عبر الأجيال ليكرسوها في الأمة جيلا بعد جيل ، و مدة بعد مدة ، و في دعاء الندبة اشارة واضحة الى هذه الفكرة ، فقد ورد فيه:

)ايـن ابناء الحسـين ، صالح بعد صالح ، و صادق بعد صادق ، اين السـبيل بعد السـبيـل ، ايـن الخيرة بعد الخيرة ، اين الشموس الطالعة ، اين الاقمار المنيرة ، اين الانجـم الزاهـرة ، ايـن اعلام الدين ، و قواعد العلم ، اين بقية الله التي لا تخلو من العترة الهاديـة (1) (

وفي اصول الكافي (ج ١) قال الامام الباقر (ع: (

"و الله . ما ترك الله أرضا منذ قبض آدم (ع) الا وفيها امام يهتدى به الى الله ، و هو حجته على عباده ، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة لله على عباده (2) "فليس غريبا اذن ان نجد الحديث عن أهل البيت في سورة الاحزاب التي جاءت لبيان الرسالة و موضوع القائد الرسالي ، و سوف نجد الآيات المناسبة لهذا الموضوع في ضمن السورة - و هو أمر طبيعي - اذ لابد للقائد الرسالي من امتداد في المجتمع.

(1)ضياء الصالحين / ص - 602الطبعة القديمة.

(2)اصول الكافي / ج ١ -ص ٢٥٢ - الطبعة الفارسية.

[34]ثم يذكرنا الله بواحدة من الواجبات التي ينبغي على زوجات الرسول مراعاتها وهو ضرورة ان يكن داعيات للرسالة ، ملتزمات بها.

]و اذكرن ما يتلى في بيوتكن من ءايات الله و الحكمة]لانها السبيل لتقويم السلوك و الطهارة ، و ليس من شك ان التلاوة التي لا يعقبها العمل لا تنفع صاحبها ، و انما يؤكد الله على نساء النبي بذكر الآيات لكي لا يتصورن الرسالة ما دامت تنطلق من بيوتهن الى الناس فهي لا تخصهن ، بل إن مسؤوليتهن تبليغ الرسالة ،فالقرآن كما جاء ليصنع قدوة للرجال تتثمل في الرسول الاعظم (ص) فكذلك جاء أيضا ليصنع قدوة للنساء و نساؤه أولى بالعمل بها.

]إن الله كان لطيفا خبيرا[

فهو يحيط بكن ، و يعلم هل استوعبتن الرسالة ، و عملتن بها أم لا.

[35]ثم نجد اشارة الى حقيقة هامة وهي : ان ما جاء في القرآن من الآيات بصيغة المذكر لا يدل على اختصاصها بالذكور دون الاناث ، انما يشمل الجنسين.

]إن المسلمين و المسلمات و المؤمنين و المؤمنات و القانتين و القانتات و الصادقين و الصادقات و الصابرين و الصابرات و الخاشعين و الخاشعات]كل ذلك قولا و عملا.

]و المتصدقين و المتصدقات[

الذي يكون الاحساس سمة علاقتهم مع الآخرين ، فهم كما يسعون لإصلاحأنفسهم و بنائها يسعون لبناء المجتمع و سد حاجته.

]و الصائمين و الصائمات[

تزكية للنفس.

]و الحافظين فروجهم و الحافظات و الذاكرين الله كثيرا و الذاكرات أعد الله لهم مغفرة]ان اخطأوا لأن مسيرتهم العامة هي الصلاح.

]و أجرا عظيما[

على أعمالهم الصالحة ، و عموما فان ما تقدم من الصفات هو صورة نظرية لسمات المجتمع الاسلامي ، و الاسرة المسلمة ، في ظل الالتزام بالقرآن الكريم ، و مسؤوليتنا السعي و الاجتهاد لايجادها في واقعنا بتجسيدها عمليا.

محورية القيادة الرسالية في المجتمع

هدى من الآيات

حينما نرجع الى الشريعة الاسلامية - كما سائر الانظمة - نجد فيها ثلاث قوى أساسية هي القضائية ، و التشريعية ، و التنفيذية ، أما الاولى فان وظيفتها تشريع القوانين و الأحكام العامة ، و أما الثانية فشأنها تطبيق القوانين على الوقائع المختلفة ، بينما مهمةالقوة التنفيذية هي تطبيق القانون الذي تقضي به كلا القوتين على الواقع.

و في الشريعة الاسلامية تتركز جميع هذه القوى في القيادة الرسالية العليا و هو النبي (ص) أو من يمثل أمتدادا حقيقيا له ، فهي المرجع التشريعي و القضائي الأعلى ، و اذا قضى النبي أو من يكون خليفة حقيقيا له لا يحق لأحد الاعتراض عليه.

و يضرب لنا القرآن مثلا من واقع الأمة الاسلامية على هذه الحقيقة ، حيثعارض الاسلام العادات الجاهلية الغاصبة حرمة الزواج من مطلقة الابن بالتبني ، و وضحت الآيات بأن ابن الانسان هو الذي ينسل من صلبه ، أما الآخر الذي يلتقطه و يتبناه فلن يصبح أبنا له أبدا ، لان الأبوة كما النبوة و عموم العلاقات الاجتماعية المشابهة قضية طبيعية واقعية و ليست اعتبارية تشريعية .

و كان هذا القضاء الجديد يومذاك يحتاج الى من يملك الجرأة و الإقدام ، و هنا تبرز و بصورة واضحة القدوة في الأمة ، فاذا بالرسول (ص (يتزوج من مطلقة زيد ابن حارثة وهو ابنه بالتبني ، و كان النبي قد خرق عادتين جاهليتين في هذه الحادثة ، الاولى ما تقدمت الاشارة اليها ، و الثانية انه زوج زينب بنت جحش - ذات الحسب و النسب الشريف - من رجل اقل نسبا ، تأكيدا لقيمة التقوى ، و نسفا للقيم الجاهلية المادية.

و رفعا للحرج في مثل هذه الحوادث عن المسلمين ، و لأن خرق العرف الاجتماعي سوف يسبب شيئا من الإحراج للرسول ، و ربما ألوانا من الضغط عليه من قبل الساذجين و المنافقين ، فقد حذره الله من الخضوع للناس على حساب الحق ، مؤكدا بأن أهم صفات المبلغ للرسالة هيالخشية من الله وحده ، و التوكل عليه .

بينات من الآيات

[36]المؤمن حقا هو الذي يسلم لقضاء الله و رسوله تسليما مطلقا في جميع جوانب الحياة ، ذلك أن كلمة الله ، و الرسول ، و القيادة التي تمثل امتدادا صحيحا له ، يجب ان تكون هي الحاسمة في المجتمع الاسلامي.

]و ما كان لمؤمن و لا مؤمنة إذا قضى الله و رسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم]و القرآن حينما يوجه الخطاب بصيغة المذكر فإنه يشمل النصف الآخر للمجتمع بصورة طبيعية ، و لكنه هنا يخص النساء ايضا " ولا مؤمنة " لأن الكثير من الاحكام - و بالذات في باب القضاء - ترتبط بالنساء ، و لابد ان يخضعن كما الرجال لقضاء الله و الرسولخضوعا حقيقيا.

و الخضوع الحقيقي هو الذي تشير اليه الآية الكريمة " فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدون حرجا مما قضيت و يسلموا تسليما " (١ (فحتى في المجال الفكري و النفسي لا يجوز للمؤمن ان يتضايق من قضاء الرسول ، بل يجب ان يسلم له راضيا به دون أدنى شك أو تردد.

]و من يعص الله و رسوله فقد ضل ضلالا مبينا[

و لعل أهم ما قضى به الله و الرسول ان اختار أهل البيت ، و قضى بطاعتهم ، اذ أذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا ، فلا يجوز للمؤمن الاعتراض على هذا القضاء أو الفسوق عمليا عنه ، و هذا مما يعزز تفسير الآية الكريمة (٣٣) في الدرس الماضي.

جاء في أصول الكافي عن عبد العزيز بن مسلم قال : كنا مع الرضا (ع) بمرو فاجتمعنا في الجامع في بدو قدومنا ، فأداروا أمر الإمامة ، و ذكروا كثرة اختلاف الناس فيها ، فدخلت على سيدي (ع) فأعلمته خوض الناس فيه ، فتبسم (ع) ثم قال:

"يا عبد العزيز ! جهل القوم و خدعوا عن أديانهم ، إن عز وجل لم يقبض نبيه (ص) حتى أكمل له الدين - الى قوله (ع) - : و لقد راموا صعبا ، و قالوا إفكا ، و ضلوا ضلالا بعيدا ، و وقعوا في حيرة اذ تركوا الإمام عن بصيرة ، و زين(١) النساء / ٦٥

لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ، و كانوا مستبصرين ، و رغبوا عن اختيار الله و اختيار رسوله (ص) الى اختيارهم ، و القرآن يناديهم : " و ربك يخلق ما يشاء و يختار ما كان لهم الخيرة من أمرهم سبحان الله و تعالى عما يشركون " و قال عز و جل : " و ما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله و رسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم " " (١)[٣٧] و كمثال على قضاء الله في الحقل الاجتماعي ، يستعرض السياق بشيء من التفصيل قصة زيد ابن حارثة ابن شرحبيل ، فهي من المسائل التي كان قضاء الله فيها مخالفا للعرف آنذاك ، و زيد ابن شيخ لقبيلة اسمه حارثة ، أغارت عليها قبيلة أخرى ، فأخذ و بيع في مكة ،فاشتراه الرسول (ص) و الذي كان يسعى حتى قبل بعثته لتصفية آثار الجاهلية قدر ما يستطيع ، و هكذا ينبغي للانسان المؤمن السعي بما يستطيع و كيفما يقدر لازالة آثار الجاهلية " فاتقوا الله ما استطعتم " فالرسول (ص) لم يكن قادرا على شراء كل العبيد و عتقهم أو تربيتهم ، و لكنه اشترى بعضهم.

وفي قصة طويلة جاء والد زيد زائرا لمكة ، و طلب من الرسول ان يشتري ولده ، فجعل الرسول الخيار لزيد في البقاء معه أو الرحيل مع والده - بعد أن اعتقه - فاختار البقاء مع المسلمين و في كنف النبي (ص. (

فعاش كأبرز صحابة الرسول ، وقد أبلى في الاسلام بلاء حسنا ، و كذلك ابنه اسامة (رضي الله عنهما)[وإذ تقول للذي أنعم الله عليه[

(1)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٢٧٩

اذ جعله يعيش تحت ظل رسول الله (ص. (

]و أنعمت عليه[

و كان انعام الرسول يتمثل في عتقه لزيد من العبودية ، وقد حدث ان أراد زيد طلاق زوجته زينب بنت جحش فنهره الرسول و قال:

]أمسك عليك زوجك[

لا تطلقها.

]و اتق الله و تخفي في نفسك ما الله مبديه[

اي ان اللـه كتب زينب زوجة لك ، و مهما أخفيت ذلك فإنه سيظهره يوما من الأيـام.

]و تخشى الناس و الله أحق أن تخشاه[

هكذا يحكي الله عن رسوله ، بالرغم من أن آية لاحقة تصف المبلغ للرسالة بأنه لا يخشى إلا الله ، فكيف نؤفق بين الآيتين ؟

الجواب :إن الرسول (ص) لم يكن يخشى أحدا إلا الله ، و لكنه كان يخشى الناس أن يكفروا برسالة ربه لو تزوج بزينب ، بسبب شكهم في أن الرسول ضغط على زيد) ابنه بالتبني) ليطلق زوجته ثم يتزوجها بعده ، و هكذا كانت سيرة الانبياء انهم يكلمون الناس على قدر عقولهم ، وفي رواية " ما كلم رسول الله الناس بكنه عقله قط " و هذه الآية تشبه قوله تعالى : " يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك و ان لم تفعل فما بلغت رسالته و الله يعصمك من الناس (1)(1) " المائدة / ٦٧

فخشية الرسول من تبليغ بعض بنود الرسالة لم تكن على نفسه ، إنما على الناس ان يكفروا به و بها.

]فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها[

اي لما تمتع بها زيد فترة من الوقت ثم طلقها زوجها الله رسوله . و كانت زينب تفتخر على سائر زوجات الرسول بأن الله هو الذي زوجه منها و بنص القرآن ، أما الهدف من وراء ذلك فهو كسر العادة الجاهلية ، و رفع الحرج عن المؤمنين في الزواج من مطلقات أبنائهم بالتبني.

]ولكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهم وطرا]و لأن البعض ربما يتصور بأن هذا القضاء سوف يفشل بسبب تعارضه مع العرف الاجتماعي ، أكد ربنا بأن امور الحياة بيده و ليست بيد الناس ، و أنه قادر على إجراء ما يريد.

]و كان أمر الله مفعولا[

فمع ان بعضا من أمور الحياة خولها الله للانسان ، الا ان مسيرتها العامة بيده ، يفعل ما يشاء ، و لهذا قال الامام علي (ع: (

"عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم ، و حل العقود ، و نقض الهمم " (١)[٣٨] ثم يؤكد القرآن بان القيادة الرسالية ليست هي التي تنسى الدنيا من(١) نهج البلاغة / ص ٥١١ - ج ٢٥٠

أجل الآخرة ، أو تنسى ضرورات الحياة ، فالرسل - و هم قادة الناس - بشر فرض الله عليهم أن يعيشوا كسائر البشر حياة تجمع العقل و الحاجة ، و لا يمكن لأحد أن يتجاوز هذا الفرض لكونه قائدا ، ثم يدعي بأن ذلك من ضرورات الرسالة ، لأن:

من لا معاش له لا معاد له "

و أئمة المتقين هم الذين يطلبون من الله أن يهبهم أفضل الازواج و البنين ، في الوقت الذين يطلبون أن يجعلهم أئمة للمتقين " ربنا هب لنا من أزواجنا و ذرياتنا قرة أعين و اجعلنا للمتقين أماما " (١)و هذا هو السلوك المتكامل للقيادة ، و الذي يجعلها أسوة للآخرين ، و هو سلوك القادة الرساليين من الأنبياء ، و الاوصياء ، و الاولياء عبر التاريخ ، و هو دليل على نوع الرسالة التي يدعون الناس اليها.

إن الحياة الفاضلة هي التي تدعوا إليها الآية الكريمة : " و ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة و لا تنسى نصيبك من الدنيا " (٢) ولا يمكن للقائد ان يتضخم فيه جانب على حساب الجانب الآخر ، لأن الناس آنئذ لن يتبعوا هذه القيادة ، لأن التمتع بالدنيا كما التطلع للآخرة قضية يقرها العقل البشري.

إذن لا داعي للحرج ، و ذلك لاسباب هي:

أولا : ان زواجه من زينب واجب مفروض عليه من قبل الله ، كما أنه من نفع الرسول لذلك جاء التعبير بـ " له " و ليس عليه.

(1)الفرقان / ٧٤

(2)القصص / ٧٧

]ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له[

ثانيا : ان التمتع بالدينا الى جانب السعي للآخرة ليس جديدا على الانبياء و القيادات الرسالية ، إنما هو سنة جرت بها الحياة.

]سنة الله في الذين خلوا من قبل[

ثالثا :لابد ان نعتقد - نحن المؤمنين - بأن أوامر الله حكيمة و دقيقة ، و هذا يبعثنا نحو التسليم لقضائه ، و هكذا كان واجبا على الرسول الخضوع لفرض الله عليه . و نهايات الآيات التي هي مفاتيح لمعرفة إطارها العام ، تهدينا الى حكمة الله وانه جعل كل شيء بقدر و حساب ، و لو أن الرسول ترك متع الدنيا التي فرضها الله له ، باعتقاد أن الآخرة هي الأهم ، لخرجت حياته من التوازن ، فلابد أن يستجيب لأوامر الله ، فالدين ليس شيئا يصنعه الانسان بفكره البسيط ، إنما يجب ان يتبعه كما هو ، و في الحديث:

"إن الله يحب أن يؤخذ برخصه (المباحات) كما يحب أن يؤخذ بعزائمه (الواجبات (1) " (و حينما أقسم عثمان بن مظعون أن يصوم الدهر نهره الرسول ، و قال له :

"و لكن صم يوما و أفطر يوما"

]و كان أمر الله قدرا مقدورا[

[39]ثم إن صاحب الرسالة و الذي يريد ان يكون مبلغا لها بين الناس ، يجب ان يضع في حسابه معارضة الناس له و لرسالته ، و بالتالي عليه ان يتجاوزهم و لا(١ (مستدرك وسائل الشيعة / ج ١ - ص ١٨

يخشاهم ، فيدع ما فرض الله له ، أو يترك واجبا من واجباته خوفا منهم ، كما يجب عليه ان يتوقع الضغط عليه من قبل الآخرين ، و من ثم يستعد لمواجهة هذه الضغوط التي أهونها الدعايات السيئة و العزلة من قبل المجتمع أو السجن و التعذيب أو التهجير من قبل السلطات الفاسدة ، لأن الاستقامة أمام ذلك سوف تنتهي به في الدنيا الى أهدافه و هي الهداية و التغيير ، و في الآخرة إلى روضات الجنات.

]الذين يبلغون رسالات الله و يخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله]اما من أين يستمد الانسان الرسالي روح الاستقامة ؟ انما من خشية الله التي يقاوم بها ارهاب الناس و ضغوطهم ، و ايضا من التوكل عليه الذي يجبر به ضعفه ، و أهم معاني التوكل على الله - و الذي هو من جوانب العظمة في الانسان الرسالي - العمل لله و تحمل كل شيءفي سبيله ، ثم احتسابه عنده ، فهذا يزيده استقامة و مضيا على طريق الرسالة ، و الإمام الحسين (ع) حينما ذبح سهم حرملة ولده علي الأصغر تقوى على المصاب عندما أعتبره طريقة لرضى الله قال:

"هون علي ما نزل بي انه بعين الله"

]و كفى بالله حسيبا[

فالمؤمن الحقيقي لا يبحث عن مصالحه و لذاته من الرسالة ، بل يبحث عن طرق تحقيقها حتى لو كلفه ذلك الكثير ، بلى . مستعد لتبليغها ، ولو خسر سمعته و مكانته الاجتماعية و السياسية و غيرها.

و داعيا إلى الله بإذنه و سراجا منيرا

هدى من الآيات

ينقسم السياق في هذا الدرس الى شطرين ، يدعونا شطره الأول الى ذكر الله و تسبيحه و بالتالي الى المزيد من المعرفة بربنا عز و جل ، و يبين لنا شطره الثاني عبر كلمات بسيطة في ظاهرها ، و عظيمة و مركزة في معناها جانبا من صفات الرسول القائد ، لو تدبرنا فيهالانفتحت لنا أبواب المعرفة بشخصيته العظيمة ، و ما أحوجنا نحن المسلمين الى هذه المعرفة.

و العلاقة بين الموضوعين تبينها الآية الكريمة " لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله و اليوم الآخر ، و ذكر الله كثيرا " فمعرفة الرسول ، و الاقتداء به لا يمكن إلا للانسان المؤمن و العارف بالله ، لان الرسول جاء من عند الله ،و كلما ازداد الانسان معرفة بربه ازداد معرفة بنبيه ، و في الدعاء " اللهم عرفني نفسك فانك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيك ، اللهم عرفني نبيك فانك ان لمتعرفني

نبيك لم أعرف حجتك ، اللهم عرفني حجتك فانك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني. "

اذن معرفة الله مفتاح لكل المعارف الأخرى ، و لعله لذلك جاء في الحديث " أول الدين معرفته " (١)و لان هذا الدرس يعرفنا بصفات الرسول الأكرم (ص) كان لابد أن يذكرنا بالله أولا ، لذلك وجدنا أول السياق دعوة الى ذكر الله و تسبيحه ، بينما يخوض نهايته حديثا عن صفات النبي ، و قد نعته القرآن بأنه شاهد ، فما هو الشاهد ؟

كما يتحرك لسان الميزان ليحدد الوزن فان الشاهد هو ميزان المجتمع ، و الرسول بـــرسالته و بحياته مقياس يتعرف به الانسان على ما اذا كان هو على الحق أو على الباطــل.

و لكن الرسول ليس شاهدا بسلوكه و حسب ، انما يبشر من يعمل الخير بالجزاء الحسن ، كما يحذر الذي يعمل السيئات من عاقبة السوء ، كما انه يدعو الناس الى ربهم وما يقربهم إليه ، و أكثر من ذلك يوضح لهم الطريق ، و يبرمج لهم الحياة ، فهو شاهد ، و مبشر ، و نذير، و داع الى الله ، و سراج منير.

و الذي يجمع هذه الصفات كلها هي استقامة الرسول ، و الاستقامة هي عدم الخضوع لأي ضغط أو شهوة ، الأمر الذي يصعب على الانسان بما فيه من جهل و غرائز و شهوات إحرازه لولا تنزيه الله و عصمته ، و لهذا نقرأ في نهاية الدرس خطاب الله لرسوله : " و لا تطع الكافرين و المنافقين. "

(1)نهج البلاغة / خ ١ -ص ٣٩

بينات من الآيات

[40]من طبيعة الرسالة الالهية انها لا تفرق بين انسان و آخر إلا بمقياس التقوى ، و رسول الله يجسد هذه الرسالة ، فهو لا يجعل بينه و بين الآخرين علاقة أرفع من الرسالة ، و مع ان للرسول أولادا هم (قاسم - طيب - طاهر - إبراهيم) إلا ان الله ينفي ابوته لاي رجل منهم ، لماذا ؟ هل لانهم (كما ذكر البعض) ماتوا قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال ، و لم يكن الحسن والحسين) عليهما السلام) حين نزول الآية ببالغين أيضا ، فلم ينف الذكر سوى ابوته لزيد الذي دعي لوقت أنه ابن محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أم لما هو أشمل من هذا و هو نفي العلاقة المادية بين الرسول و بين أمته كالتي زعمها اليهود في علاقتهم بموسى ، و حسبوا أنها وحدها كافية لشرفهم و كرامتهم عند ربهم ، بل و نجاتهم من جزاء أعمالهم المنكرة ، فجاءت الآية تحصينا للأمة الاسلامية من تسرب هذه الفكرة الشيطانية إلى صفوفهم.

و يبدو ان الاجابة الأولى ظاهر الآية و تفسيرها ، و الثانية باطنها و تأويلها ، و كلاهما صحيح ، بلى . ان الرسول سمى نفسه أبا لهذه الأمة حين قال : " أنا و علي أبوا هذه الأمة " (١) و لكن الواضح ان مراده ليس الأبوة المادية بل المعنوية التي تفوق تلك بدرجات ، و لذلك كان الشطر الثاني من الآية هذه يكرس العلاقة المعنوية بين الرسول و أمته.

و هذا يعني أن الصفة الأساسية للرسول ليست أبوته انما رسالته ، فلا يمكن لأحد أن يدعي نبوته للرسول و بالتالي تميزه عن الناس بها ، انما يتميز الانسان بخضوعه للنبي و اتباعه لرسالته.

وإذ ننسب فاطمة و ابناءها) عليهم السلام) بأنهم أبناء الرسول و أهل بيته فليس(١) بحار الانوار / ج 69- ص ٢٤٣

ذلك فقط لقرابتهم الاجتماعية منه ، انما لتجسيدهم قيمه و رسالته في الحياة مما جعلهم أبناءه قلبا و قالبا . روحيا و جسديا.

]ما كان محمد أبا أحد من رجالكم[

و هذا نفي للعلاقة المادية المجردة ، بينما الشطر الثاني من الآية اثبات للرسالة و العلاقات المنبثقة منها.

]و لكن رسول الله و خاتم النبيين[

و في تفسير الرسول لهذه الآية : قال جابر بن عبد الله الانصاري ، قال النبي)ص) : " انما مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأكملها و حسنها إلا موضع لبنة ، فكان من دخلها فنظر اليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة !! قال (ص) : فأنا موضع اللبنة ، ختم بي الأنبياء " . (١) و هذا يعني ان الكيان الرسالي غير مكتمل من دون الرسول.

و في نهاية الآيــة الكريمة يؤكد الله على احاطته علما بالأشياء ، فما هو معنى ذلك ، و ما علاقته بما قبله ؟

حينما نراجع آيات القرآن حول الطبيعة نجدها تحدثنا عن النمو و التكامل ، فالسماوات و الأرض و عموم الطبيعة انما وصلت لهذه الصورة من الكمال عبر مراحل ، قال تعالى : " الله الذي خلق السموات و الأرض وما بينهما في ستة أيام " (٢) و هذه الآية تكشفلنا طبيعة النمو البشري ، و ان البشرية منذ خلق الله آدم عليه السلام ، إلى أن بعث النبي الأكرم (ص) كانت في مسار تكاملي ، و ان(١) نور الثقلين / ج ٤ - ص ٢٨٥

(2)السجدة / ٤

الرسالات كانت تنسخ بعضها بعضا ، و تهيمن على التي قبلها لأسباب من أهمها التكامل ، حتى جاءت الرسالة المحمدية خاتمة لكل الرسالات ، لأنها في آخر المراحل - و هذا من معاني الإحاطة - فلم يكن بدعا ، ولا خلافا للحكمة أن يبعث الله رسوله الأكمل في آخر مرحلة.

]و كان الله بكل شيء عليما [

و لعل خاتمة الآية تشير أيضا الى ان الله ضمن رسالته الخاتمة كل ما احتاجته و تحتاجه حيــاة البشرية حتى قيام الساعة ، و ذلك لإحاطته علما بكل ما قد يقع ، و كيف يقع ، و ماهي حاجة الناس عندما تتطور حياتهم . أوليست البشرية تتطور في اطار سنن الله التي لاتتبدل ولا تتغير ، أوليس الله عليما بتلك السنن التي أجراها ؟! بلى . و لذلك جعل رسالته الخاتمة مهيمنة على تلك السنن.

[41]و حتى يعرفنا الله بهذا الرسول العظيم يعرفنا بنفسه أولا ، و ذلك حين يدعونا لذكره.

يا أيها الذين ءامنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا[

لان أجل الانسان مستور عنه ، و لا يعلم أي خاطرة أو كلمة أو حركة تكون هي خاتمة حياته ، فلعل خاطرة الانحراف ، أو كلمة الخبث ، أو حركة السوء تكون نهاية المطاف ، فتهوى به سبعين خريفا في النار - كما يقول الرسول (ص) - و هكذا يجب عليه ان يستقيم على الحق بقلبه و لسانه و جوارحه وذلك بذكر الله ، الذي يعني اتصال قلب الانسان بربه عز وجل ، قال الامام الصادق (ع " : (ما أبتلي المؤمن بشيء أشد عليه من ثلاث خصال يحرمها ، قيل وما هي ؟ قال : المواساة في ذات يده ، و الانصاف من نفسه ، و ذكر الله كثيرا ، أما أنيلا أقول : سبحان الله

و الحمد لله ولا إله إلا الله و الله اكبر ، و لكن ذكر الله عندما أحل له ، و ذكر الله عندما حرم عليه " (١)وما يدري البشر ان فكرة شيطانية واحدة تسبب دماره . أوليس إبليس بدأ الكفر بفكرة جالت في خاطره حينما قال : لو انصفني الله لكنت أنا شيخ الملائكة و سيدهم ، فأخرج الله كبره عندما امتحنه بالسجود لآدم (ع) ؟!

وفي خطبة للإمام علي (ع) في المبادرة الى صالح الأعمال أكد على هذه الفكرة إذ قال " : فاتقوا الله

عباد الله ، و بادروا آجالكم بأعمالكم ، و ابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم ، و ترحلوا فقد جد بكم ، و استعدوا للموت فقد أظلكم ، و كونوا قوما صيح بهمفانتبهوا ، و علموا ان الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، فان الله سبحانه لم يخلقكم عبثا ، ولم يترككم سدى ، و ما بين أحدكم و بين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به " (٢)[٤٢] ثم تؤكد الآيات على ضرورة استمرار الصلة بين العبد و ربه.

]و سبحوه بكرة و أصيلا[

ففي كل يوم ينبغي للانسان ان يفتتح حركته و انطلاقته بذكر ربه ، و يختتمها بذلك ايضا ، و لعل في الآية تأكيد على صلاة الصبح و فرضي المغرب و العشاء ، و ان أبرز أهدافها ربط الانسان في أول اليوم و آخره بخالقه عبر التسبيح.

واذا كان ظاهر التسبيح هو قول : " سبحان الله " فان باطنه و محتواه هو ما تهدف إليه هذه الكلمات من رفع الانسان عن حضيض الشرك إلى سماء التوحيد(١) نور الثقلين / ج ٤ - ص ٢٨٧

(2)نهج البلاغة / خ - 64ص ٩٥

و القيم ، فليس صادقا في تسبيحه من يلفظ هذه الكلمات و لكنه يقدم شهواته على القيم ، أو يطيع الآخرين بمعصية الله ، أو يحاول الخلط بين الحق و الباطل ، ضغثا من هذا و ضغثا من ذاك.

[43]و لا شك ان ذكر الله و تسبيحه سوف يستتبع جزاء من عند الله " فاذكروني أذكركم و اشكروا لي و لا تكفرون (1) " و هذا الجزاء يتمثل في أعظم صورة في الهداية الإليهة للانسان من الظلمات الى النور ، مما يؤكد بأن الهدف من الذكر هو الهداية ، و أنها - أي الهداية - تحصل من مجموع أمرين هما : سعي الانسان (ذكره و تسبيحه) و صلة الله له بالتوفيق و الرحمة.

]هو الذي يصلي عليكم و ملئكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور و كان بالمؤمنين رحيما]و الظلمات هي الجهل و العجز و سائر الصفات السلبية ، بينما النور ما يخالفها ، و هذا من رحمة الله بالمؤمنين.

ماهي صلاة الرب ؟

ماهي الصلاة ؟

قال علماء اللغة : ان لها معنيين : أحدهما النار وما أشبهها من الحمى ، و الآخر جنس من العبادة . (٢)و لكن يبدو ان هناك علاقة بين الصلاة و الصلة في الاشتقاق الكبير ، فيكون الاصطلاء بالنار هو الاقتراب منها أو الاتصال بها ، و منها قولهم : حليت العود(١) البقرة / ١٥٢

(2)ابن فارس : معجم مقاييس اللغة / ج ٣ - ص ٣٠٠

بالنار ، و هكذا يشترك المعنيان ، لان معنى الصلاة يكون التعطف و هو نوع من الصلة بين العبد و ربه.

و جاء في تفسير البصائر:

الخامس :قيل : أريد بالصلاة هنا العناية بحال المؤمنين ، و ذلك لأن الصلاة في الأصل : التعطف ، لأن المصلي يتعطف في ركوعه و سجوده ، فاستعير لمن يتعطف على غيره حنوا و ترؤفا.

و لذلك قيل : إن الصلاة من الله تعالى الرحمة ، و من الملائكة الاستغفار ، و من الناس الدعاء.

ثم أضاف قائلا : و على الخامس (و هو ما ذكرنا آنفا) جمهور المفسرين وهو المروي . (١)و جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق (ع) انه قال " : الصلاة من الله عز وجل رحمة ، ومن الملائكة تزكية ، و من الناس دعاء(2) " و هكذا نستوحي من كل ذلك ان لكلمة " الصلاة " معنى واحدا هو الترؤف ، و

التعطف ، و المزيد من العناية ، و التوجه.

و هذا المعنى مشترك بين العبد و ربه ، فالله سبحانه يتعطف على المؤمنين بالمزيد من الرحمة ، و على العباد أن يتعطفوا على رسولهم بطلب التعطف من الله له (و هو الدعاء) أما الملائكة فهم من جهة يستغفرون ربهم للمؤمنين ، و من جهة ثانية يقومون(١ (تفسير البصائر / ج ٣٢ - ص ٢٢٨

(2)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٣٠٣

بدور مباشر في نشر رحمة الله لهم.

و هكذا نجد ان خاتمة الآية تدل على معنى الصلاة من الله على المؤمنين.

]ليخرجكم من الظلمات الى النور[

من شح الذات ، و الجهل ، و العجز ، و السلبية ، و الحقد ، و البغضاء الى رحاب الحق ، و المعرفة ، و الارادة ، و الأمل ، و المحبة ، و السلام.

]و كان بالمؤمنين رحيما[

[44]هذا عن رحمة الله بالمؤمنين في الدنيا ، أما في الآخرة فان أبرز تجليات رحمة الله بهم تكون في أمرين :

الأول :السلامة ، تحية من الله لهم ، " و الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار " (١) . و قال تعالى : " إن المتقين في جنات و عيون ادخلوها بسلام آمنين " (٢) و هذه التحية بالاضافة الى معناها الظاهر وهو قول : (السلام عليكم) فانها تعني السلامة الجسدية من النقص العضوي و الصحي ، و السلامة الروحية من الرذيلة و الصفات السلبية ، و السلامة الاجتماعية ، و الاقتصادية و هكذا ، و بالتالي الكمال في سائر جوانب الحياة ، ذلك ان التحية هي طلب الحياة ، و يتبادل المؤمنون التحية بالسلام ، اشارة الى طهارة القلوب و صفائها.

]تحيتهم يوم يلقونه سلام[

الثاني : الجزاء الكريم.

(1)الرعد / ٢٣ - ٢٤

(2)الحجر / ٤٥ -٤٦

و أعد لهم أجرا كريما[

لماذا يقول الله : " و اعد لهم " ؟

لعل حكمة ذلك تكمن في أن الإعداد يدل على التدرج ، مرحلة بعد مرحلة ، و شيئا بعد شيء ، مما يوحي على أن هذا الأجر نتيجة لأعمال المؤمنين الصالحة التي هي الأخرى صارت بالتدريج ، فكلما عمل الانسان خيرا اضاف الى رصيده وزنا بقدره و نوعيته ، و يصف الرب الأجربأنه كريم و الكريم يعني أمرين:

الأول /ان الأجر جزيل جدا ، لأن المعطي كريم ، و من صفات الكريم انه يعطي الأجر أكثر مما هو مستحق ، فكيف اذا كان المعطي هو الله و هو أكرم الأكرمين ؟

الثاني / ان هذا الأجر يكون خالصا من الإذلال الذي يمس بكرامة الانسان.

[45]ثم يؤكد القرآن للرسول دوره في الحياة ، و ما دام القرآن وفي هذه السورة بالذات أكد كون الرسول أسوة حسنة للمؤمنين فإننا نستوحي من هذه الآية دور المؤمنين أيضا.

]يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا[

و الشاهد : هو الدليل عليه ، فشاهد القول : الدليل عليه ، و شاهد القضاء : هو الدليل على الحادثة ، و حينما يسمي القرآن الرسول شاهدا فذلك يعني أنه)ص) دليل و ميزان بسلوكه الحسن ، يهدي الانسان الى معرفة نفسه و موقعه من الحق.

]و مبشرا و نذيرا[

مبشرا للمؤمنين بالجنة ، و منذرا للعاصين بالنار.

[46]و لكن الرسول لا يكتفي بذلك و حسب ، انما يسعى و بشتى الوسائل الشرعية الممكنة لدعوتهم للحق.

]و داعيا الى الله بإذنه[

ولا يمكن لأحد ان يسمي نفسه داعيا إلى الله إلا إذا أكمل نفسه ، و صيرها من حزب الله ، ثم اذن الله له في ذلك إذنا مباشرا عبر الوحي كالأنبياء و الأوصياء ، أو غير مباشر من خلال القيم الإلهية ، فربما يتصور الانسان انه يدعو الناس الى الله ، و لكنه في الواقع يدعوهم الى الشيطان.

و عن رسول الله (ص) لما سئل عن سبب بعض تسمياته قال : " أما الداعي فاني ادعو الناس الى دين ربي عز و جل ، و أما النذير فاني أنذر بالناس من عصاني ، و أما البشير فاني أبشر بالجنة من أطاعني " (١)و الرسول كما الشمس في المنظومة ، يمثل مركز الإشعاع المعنوي عبر الأجيال . أوليس ينبعث منه نور الوحي إلى الحياة ؟!

]و سراجا منيرا[

كما ينبعث الى كل أفق ، كذلك تشمل معارف القرآن ، و أحكام الشرع ، و تعاليم الرسول كل نواحي الحياة ، و من هنا نستوحي من كلمتي " سراجا منيرا " المناهج المفصلة في رسالة النبي و سيرته.

فالرسول ليس يدعو إلى الله ، و يبشر و ينذر فحسب ، انما يضع أمامنا المناهج(١) علل الشرائع / ج ١ - ص ١٢٧

التفصيلية التي تقربنا الى الله ، و تنتهي بنا الى الجنة ، و تبعدنا عن النار.

و السؤال : لماذا لم يكتف السياق بكلمة سراج ، بل قال : " سراجا منيرا " ؟ انما قال ذلك ليؤكد صفة الإشعاع المستمر في شخصية الرسول ، فقد يكون السراج متقدا ، و قد ينطفئ ، بينما النبي يبقى منيرا يضيء أبدا حتى بعد وفاته ، لأن إشعاعه إنما هو برسالته و سيرته و هما باقيتان عبر الدهور.

[47]و تجاه هذه الرسالة التي يحملها الرسول و من يتبعه الى الناس هناك موقفان:

الأول : الايمان و التسليم و الذي ينتهي بأصحابه الى الفلاح في الدنيا و الآخرة ، و لابد للرسالي أن يبشر من حوله بهذه النتيجة.

]و بشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا[

[48]الثاني : العصيان بالكفر و النفاق ، و تجاه هؤلاء يجب على الرسول الإستقامة أمام ضغوطهم ، بل يجب عليه أن لا يغضب عليهم ، أو يحمل في نفسه الحقد ضدهم ، ذلك أنه ينبغي للرسالي أن يكون قلبه قطعة من الرحمة و النور حتى مع أعدائه.

وهذا نبي الرحمة (ص) و قد طرده الكفار و المشركون من بكة ، و بعدها من الطائف يقف وقد أدمت الأحجار قدميه ، فيجول ببصره الى السماء ثم يقول : " اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون " ثم لما عاد الى مكة منتصرا لم يفكر في الإنتقام ، بل قال كلمته المشهورة : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " و هذه هي الاستقامة الحقيقية ، أن يستقيم الانسان حتى في عاطفته .

]و لا تطع الكافرين و المنافقين ودع أذاهم[

اما من أين يستمد الرسالي روح الاستقامة ؟ فذلك من توكله على الله ، أما لو اعتمد على نفسه أو على الآخرين فانه لن يستطيع ذلك.

ومن الملاحظ : ان القرآن يأمر بالتوكل عندما يأمر بالسلم مع الأعداء ، أو الصبر عليهم ، أو ترك أذاهم ، أو ما أشبه ، كقوله تعالى : " و إن جنحوا للسلم فاجنح لها و توكل على الله. "

و لعل السبب هو ان المبادرة بالاعتداء على الآخرين تأتي - عادة - من الخوف منهم ، و من يتوكل على الله لا يخاف ، و لذلك لا يعتدي على أحد ، بل لا ينتقم منهم حتى لا يشكلوا خطرا حقيقيا عليه.

]و توكل على الله و كفى بالله وكيلا[

و عندما يدعو القرآن الرسول الى التوكل على الله لا يكتفي بالقول : " و توكل على الله " إنما يتبع ذلك بقوله : " و كفى بالله وكيلا " و ذلك حتى لا نعتقد بامكانية الخلط في التوكل بين الله و الآخرين ، ففي الوقت الذي نرفع فيه شعار الإسلام نعتمد على الغرب أو الشرق ، كلا .. ففي الله الكفاية.

و كان الله على كل شيء رقيبا

هدى من الآيات

تتناول آيات هذا الدرس الحديث عن العلاقة الزوجية عند الرسول (ص) و بعض محدداتها ، و قبل الدخول في تفاصيل الآيات هناك ملاحظتان:

الأولى :ان وجود آيات في القرآن الحكيم تنهى الرسول عن بعض الأمور دون الأخرين ، أو تفرض عليه واجبات من دونهم ، أو تزجره على بعض أفعاله ، و تكشف بعض ما اخفاه ، كما في زواجه بزينب بنت جحش ، كل ذلك يدل على ان القرآن ليس من عند الرسول نفسه ، و انما هووحي من الله له ، فلحن القرآن ، يهدينا الى أن المتكلم غيره ، اذ لو كان هو المتحدث لما تكلم على نفسه بزجر أو نهي.

الثانية :توجد في القرآن كما في الأحاديث بعض الاحكام الخاصة بالرسول ذاته ، كوجوب صلاة الليل عليه ، و جواز زواجه باكثر من أربع ، و بمن تهب نفسها له ، و خصائص أخرى رفعها بعض العلماء الى أكثر من سبعة عشر خصيصة ، و معان هذه الأمور لا تنسحب الى غير الرسول (ص) حتى اذا كان من القيادات الاسلامية ، الا ان ذلك يدل على أن بعض الامور تخص القائد بصورة مجملة ، و ينبغي للجميع معرفتها و مراعاتها ، و من أهم هذه الأمور هو الوقت الهام عند القيادة.

فبالرغم من أن جميع الأفراد يعتقدون بضرورة القرب من القيادة باعتبارها نقطة الحزم ، و قطب الرحا الاجتماعية ، ألا انهم يجب أن يعرفوا بأن للآخرين من أبناء المجتمع و الأقرباء كما القائد نفسه حقا في وقته ، فيجب أن لا يطيلوا الجلوس عنده بعنوان الإستفادةمن علمه و تجاربه الا بمقدار الحاجة و الضرورة ، و ذلك ليتسنى له التفرغ لسائر الأعمال التي تعود على الجميع بالنفع و الفائدة.

و تنبع أهمية هذا الأمر من أن القائد الذي يصرف أوقاته في قضايا لا طائل منها سوف لـــن يجد وقتا يصرفه في الأمور القيادية الهامة ، كالمطالعة ، و التفكير ، و المبادرة ، و وضع الخطط ، مما يضعف قيادته (قراراته و خططه) الامر الذي يعود على الجميع بالضرر، و من هذا المنطلق نهى الله المؤمنين ان يدخلوا على الرسول الا بإذن مسبق ، ثم إذا جلسوا اليــه فواجبهم ان لا يطيلوا استئناسا للحديث معه ، او انتظارا للطعام ، و مع ذلك لابد من التأكيد على أهمية الجانب الجماهيري في القيادة ، و انه من الخطأ ان تنفصل عن الناس.

بينات من الآيات

[49]اذا عقد المؤمن على امرأة ، ثم طلقها من قبل ان يمسها ، فلا تجب عليها العدة ، بل يجوزر لها ان تتزوج بعد الطلاق مباشرة ، و اذا كان فرض لها مهرا محددا وجب عليه دفع النصف لها ، و عند كون المهر محدد ، فان لها عليه ان يمتعها بان يدفع لها شيئا من المتاع ذهبا أو مالا أو لباسا مما يجبر كسر شأنها عند قريناتها.

]يا أيها الذين ءامنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن و سرحوهن سراحا جميلا]من دون نزاع او جدل ، او تهمة يلقيها كل طرف على الآخر ، تبريرا للفرقة ، أو تشفيا من صاحبه ، و هذا الأمر ينبغي ان ينسحب على جميع العقود و المعاملات الاجتماعية و المالية و غيرهما.

[50]ثم ينتقل السياق لبيان بعض احكام الزواج بالنسبة للرسول (ص) فالزواج من الشؤون البشرية التي ينبغي للانبياء الاهتمام بها ، باعتبارهم الأسوة للناس في سائر الجوانب حتى الاجتماعية منها ، فليس من الصحيح ان يجد الرسول غضاضة ولا حرجا في الزواج لكونه نبيا أو قائدا ، و هذا ما أكدته الآية الكريمة : " ما كان للنبي من حرج فيما فرض الله له " و الزواج الذي يحل للرسول (ص) على أنواع ثلاث:

الأول : ما يلتقي فيه مع الناس من جهة ، و يختلف معهم من جهة أخرى ، و هو الزواج العام فتحل المرأة للرسول كما لسائر المؤمنين بعد العقد و المهر ، بينما يختلف الرسول عن غيره في جواز زواجه بأي عدد شاء من دونهم ، اذ لا يحل لهم الزواج الدائم باكثر من اربعنساء.

]يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي ءاتيت أجورهن]و عـــن ابي عبد الله (ع) عن حمادة الحلبي : سألته عن قول الله عز و جل : " يا أيها النبي انا أحللنا لك ازواجك " قلت : كم احل له من النساء ؟ قال : " ما شاء من شيء " . (١)(١) نور الثقلين / ج ٤ - ص ٢٩١

الثاني : ما يتفق فيه مع سائر المؤمنين ، و هو الزواج من الإماء و الأقرباء.

]وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك[

و الأمة : هي المرأة التي يتملكها الرجل بالأسر أو الشراء ، و لا يكتفي الله بالتعبير " وما ملكت يمينك " انما يضيف " مما افاء الله عليك " وذلك ليقول للرسول و لنا ايضا : بان الزواج لا يتم من غير ثمن ، فهو ان لم يكن بالاجر)المهر)فبالأسر ، و كلاهما فيه تعب و صعوبة.

و مما يجوز للرسول الزواج منهن القريبات اللاتي تربطه بهن العلاقة العائلية.

]وبنات عمك و بنات عماتك وبنات خالك و بنات خالاتك التي هاجرن معك]أما التي لا تهاجر مع الرسول (ص) ، و تبقى في مكة فلم يكن جائزا له الزواج منها.

الثالث : ما ينفرد به النبي عن سائر المؤمنين وهي المرأة التي تهب نفسها له ، فانه يجوز له الزواج بها من دون أجر .

]و امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي ان يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين]و في تضاعيف الكلام يلاحظ انسجام التعابير مع تخصيص المورد للرسول وحده ، فقد تكررت كلمة " النبي " مرتين في موقع يمكن الاستغناء عن الثانية لولا هذا الأمر ، ثم أكد ربنا : " خالصة لك " تحديدا للخطاب بأنه يعني الرسول (ص) وحده ، ولم يكتف بذلك انما صرح بانفراده بها ، اذ قال " من دون المؤمنين. "

قال الحلبي : سألت ابا عبد الله (ع) عن المرأة تهب نفسها للرجل ينكحها من غير مهر ؟ فقال:

انما كان هذا للنبي (ص) فاما لغيره فلا يصلح هذا حتى يعوضها شيئا يقدم اليها قبل ان يدخل بها ، قل أو كثر ، ولو ثوب او درهم و قال : يجزي الدرهم(1) " وعن محمد بن قيس عن ابي جعفر عليه السلام قال:

"جاءت امرأة من الأنصار الى رسول الله (ص) فدخلت عليه و هو في منزل حفصة ، و المرأة متلبسة متمشطة ، فدخلت على رسول الله (ص) فقالت : يا رسول الله ! ان المرأة لا تخطب الزوج و انا امرأة أيم (٢) لا زوج لي منذ دهر ، ولا ولد ، فهل لك من حاجة ، فـانتك فقد وهبت نفسي لك ان قبلتني ، فقال لها رسول الله (ص) خيرا و دعا لها ، ثم قال : يا اخت الانصار جزاكم الله عن رسول الله خيرا ، فقد نصرني رجالكم ، و رغبت في نساؤكم ، فقالت له حفصة : ما اقل حياؤك و اجرأك و انهمك للرجال ! فقال رسول الله (ص) : كفي عنها يا حفصة فانه خير منك ، رغبت في رسول الله فلمتيها و عبتيها ، ثم قـال للمـرأة : انصـرفي رحمك الله . فقد اوجب الله لك الجنة لرغبتك في ، و تعرضك لمحبتي و سروري ، و سيأتيك أمري ان شاء الله ، فانزل الله عز وجل " : و امرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبيان أراد النبي ان يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين " قال : فاحل الله عز و جل هبة المرأة تفسها لرسول الله و لا يحل ذلك لغيره " (٣)(١) المصدر / ص ٢٩١

(2)الايم : التي لا زوج لها ، بكرا كانت أو ثيبا.

(3)المصدر / ص ٢٩٢

و تأكيد رابع يضيفه القرآن بان هذا الحكم يخص الرسول وحده حين يقول ، بان للمؤمنين احكاما خاصة تختلف عن أحكام النبي في الزواج.

]قد علمنا ما فرضنا عليهم في ازواجهم[

من وجوب المهر ، فلا يمكن لأحد غير النبي ان يتزوج امرأة من دون مهر أبدا ، و السبب أن المهر فرض للمرأة ، ضمانا لها ضد شهوة بعض الرجال ، و الرسول معصوم أن يحيف زوجته أو يظلمها ، و اذ ينتهي الحديث لهذه الفكرة فمن أجل رفع الحرج عن النبي (ص) حيث خص دونغيره ببعض الأمور ، تبين ذلك الآية الكريمة:

]لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما[

[51]و هكذا ينساب السياق مبينا جانبا من حدود العلاقة الزوجية عند الرسول حيث يقول:

]ترجي من تشاء منهم و تئوي اليك من تشاء و من ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن و يرضين بما ءاتيتهن كلهن و الله يعلم ما في قلوبكم و كان الله عليما حليما]وقد انقسم المفسرون في هذه الى فريقين:

الاول : ربطها بما قبلها ، و قال ان الآية " ترجي من تشاء منهن و تؤوي اليك من تشاء " يخـاطب الرسول : بانك حر ترفض من تهب نفسهـا اليك ، أو تقبلها و تتزوجهـا ، و استندوا في رأيهم هذا الى خبر عن الحلبي عن ابي عبد الله (ع) ، قال : قلت : أرأيت قوله : " ترجي من تشاء منهن و تؤوي إليك من تشاء " قال:

"من أوى فقد نكح ، و من أرجى فلم ينكح " (١)الثاني : فسرها بحرية الرسول (ص) في تقسيم وقته على زوجاته كيفما يشاء ، و ليس كما ترى زوجاته ، أو على أساس قانون معين له.

و انسجاما مع هذا الرأي يكون تفسير الآية : انك يا رسول الله تستطيع ان تنام عند من تشاء من زوجاتك ، و تترك الآخريات " ترجي من تشاء منهم و تؤوي اليك من تشاء " بل انت حر لو عينت ليلة ما لزوجة ما ثم بدا لك ان تغير الوقت ان تفعل بما تراه " و من ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك " و هذا الأمر يرفع احتمال النزاع بين زوجات الرسول لعلمهن بأن الأمر بيده لا بأيديهن ، " ذلك أدنى ان تقر أعينهن ولا يحزن .. ألخ. "

[52]و كما كانت الآيات السابقة قد أحلت للرسول بعض الأمور ، جاءت هذه الآية لتحرم عليه أمورا أخرى .

]لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك و كان الله على كل شيء رقيبا]و في هذه الآية اقوال عديدة:

- 1ان الآية جارية على ظاهر لفظها ، و معنى ذلك : لا يجوز للرسول بعد نزول هذه الآية ان يتزوج غير زوجاته التسع ، ولا ان يطلق احداهن ليتزوج غيرها ، باستثناء الاماء.

(1)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٢٩٣

- 2و هناك روايات تخالف هذا الرأي ، حيث تستنكر ان يجوز للانسان العادي استبدال زوجاته ، بينما يحرم ذلك على الرسول (ص) و تفسير الآية بانها تحرم عليه الزواج من غير النساء اللاتي حددتهن الآية السابقة ، " انا أحللنا لك ازواجك اللاتي اتيت اجورهن وما ملكت يمينك .. الآية " و بناء على المعنى الأول فقد أوقف الله حرية الرسول (ص) في الزواج ، و ذلك ليعرفنا ان تزوج النبي لم يكن بهدف الشهوة انما لأهداف نبيلة أخرى ، فمرة يتزوج امرأة بعد ان جربت الحياة الزوجية التي انتهت بالطلاق عدة مرات من أجل ان يستر عليها ، و يتزوج بثانية لكي يستميل عشيرتها ، و بثالثة من اجل ان ينقض عادة جاهلية قائمة في المجتمع تقضي بحرمة الزواج من مطلقات الادعياء.

[53]ثم يبين الله بعد ذلك العلاقة بين الرسول و من يحضر الى منزله محددا بعض الاحكام و الاداب التي تمس هذه العلاقة.

]يا أيها الذين ءامنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا إن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين إناه]١ - الدخول الى بيت النبي يجب أن يكون مسبقا بإذن.

- 2و عند الدعوة الى الطعام يجب ان لا يدخل مسبقا ، و ينتظر أوان الطعام ، لأن من آداب الأكل في بيوت الآخرين أن ياتي في الوقت المناسب ، و ذلك لان المجيء أول النهار و انتظار الغذاء يسبب الازعاج لصاحب البيت ، و قد جاء في السيرة : ان رسول الله (ص) أولمعلى زينب بتمر و سويق ، و ذبح شاة ، فأمر أنسا ان يدعو اصحابه ، فترادفوا أفواجا ، فوج يدخل فيخرج ، ثم يدخل فوج ، الى ان قال ، يا نبي الله ! قد دعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه ، فقال : ارفعوا طعامكم ، و تفرق الناس و بقي ثلاثة نفر يتحدثون فأطالوا ، فقام رسولالله - صلى الله عليه وآله-

ليخرجوا ، فطاف بالحجرات ، فرجع فاذا الثلاثة جلوس مكانهم ، و كان - صلى الله عليه وآله - شديد الحياء ، فتولى ، فلما رأوه متوليا خرجوا و نزلت الآية . (١)٣ - ولكن اذا دعيتم فادخلوا ، و لا يمنعكم الحياء من الاستجابة للرسول.

]فإذا طعمتم فانتشروا[

ولا تطلبوا الجلوس عند النبي حتى لو كان بهدف نبيل ، كالاستفادة من حديثه ، أو حديث بعضكم مع بعض.

]ولا مستئنسين لحديث[

ثم يبين القرآن خلفية هذا النهي : بأن الجلوس ربما يؤدي الى احراج الرسول و اذاه ، بما ينتهي اليه من آثار سلبية على برنامج حياته العائلية أو السياسية .. الخ.

]إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم و الله لا يستحي من الحق]٤ - وعلى الضيف ان يراعي حرمة البيت الذي يحل فيه ، فلو اضطرته الحاجة للتعامل مع أهله من النساء يجب ان يتعامل معهن بأدب ، و بمقدار حاجته ، ومن وراء حجاب ، فبعد نزول هذه الآية صار حراما على المؤمنين التحدث مع نساء الرسول الا بهذه الكيفية.

]وإذا سألتموهن متاعا فسئلوهن من ورآء حجاب[

اما عن حكمة هذا التشريع فهي الوقاية من الذنب ، و التي لا تتم الا بطهارة(١) جوامع الجامع للعلامة الطبري / ج ٢ - ص ٣٣٣

القلب ، و هذه الطهارة لا تتأتى الا بابتعاد الانسان عن اسباب المعصية ، و التي من بينها حديث المرأة مع الرجل و بالذات اذا لم يكن ثمة حجاب بين الطرفين ، ذلك ان من طبيعة المرأة كما من طبيعة الرجل ان يميل أحدهما للآخر بالغريزة ، و لعل الحديث بينهما بغير الصورة التي تهدي لها الآية ينتهي الى المعصية.

]ذلكم أطهر لقلوبكم و قلوبهن[

و لأن الرسول كان يدرك هذه الحقيقة لم يكن ليتقبل هذه الحالة ، بل كانت تلحق به الأذى النفسي.

]و ما كان لكم ان تؤذوا رسول الله[

و لكي يقطع الله الطريق على القلوب المريضة ، و بالتالي ينهي هذه المشكلة التي تؤذي الرسول ، حرم الزواج من نسائه بعده.

]و لا أن تنكحوا أزواجه من بعده[

و مع ملاحظة ظروف نزول الآية نعرف ان هذا الحكم يختص بنساء النبي اللاتي تعرضن لأذى المنافقين ، حيث طمع بعضهم في الزواج منهن بعد الرسول ، و صرح بذلك بوقاحة ، فحرم الله ذلك عليهم.

ان احترام بيت الرسالة كان يقتضي عدم ظهور نساء الرسول في المواقع العامة ، و عدم تحدثهن مع الرجال الا من وراء ستر ، بينما يحل مثل ذلك لغيرهن إذا حافظن على حدود الستر و العفاف.

قال علي بن ابراهيم : لما أنزل الله : " النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم و ازواجه امهاتهم " و حرم الله نساء النبي على المسلمين ، غضب طلحة فقال : يحرم محمد علينانساءه ، و يتزوج هو نساءنا ؟ !لئن امات الله عز و جل محمدا لنركضن بين خلاخيل نسائه كما ركض هو بين خلاخيل نسائنا ، فأنزل الله عز و جل : " و ما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا ازواجه من بعده ... الآية " (١)و ربما كان هدف هؤلاء المنافقين هو ايذاء الرسول الا انهم يخفون هذه النوايا ببعض التبريرات كقولهم : لماذا يتزوج هو بنسائنا ، و لا يصح لنا العكس ، فهددهم الله من طرف خفي اذ قال:

]إن ذلكم كان عند الله عظيما[

و هناك حكمة أخرى لهذا التشريع الالهي يذكره بعض المفسرين : ان مركز نساء النبي العظيم كان يستهوي الطامعين في السلطة أو الشهرة ، و كان امثال هؤلاء يمنون أنفسهم بنكاح ازواج النبي من بعده للحصول على مكانة اجتماعية تستغل لأطماع سياسية ، ولعل بعضهم كان ينوي نشر أفكاره من خلال ذلك بادعاء أنه أضحى من أهل البيت و هم أدرى بما في البيت.

و لعل الآية تشير - من طرف خفي - الى عدم جواز استغلال مكانة ازواج النبي للوصول الى مراكز سياسية أو اجتماعية كما حصل فعلا - ومع الأسف - بين المسلمين من بعد رحيل الرسول - صلى الله عليه وآله. -

[54]ثم كشف هذا الواقع ، و أكد للمنافقين أنه يعلم به.

]إن تبدوا شيئا[

بالتصريح به.

(1)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٢٩٨

]أو تخفوه[

بمختلــف المظاهر و التبريرات التي تخدعون بها الناس الذين لا يعلمون إلا الظاهــر.

]فإن الله كان بكل شيء عليما[

و أخيرا:

فان هذه الآية الكريمة - و كما أشرنا في بدايات الدرس - تصلح أن تكون نبراسا للمسلمين في كل مكان في علاقتهم مع قيادتهم ، فيحترمونها ، و يفرضون على أنفسهم حقوقا لها ، لكي يستطيع القائد تقديم أكبر قدر من الخدمة للأمة ، و لمبادئها و اهدافها.

صلوا عليه و سلموا تسليما

هدى من الآيات

يتابع السياق في هذا الدرس حديثه عن نساء النبي ، و ضرورة احتجابهن عن الاجانب من الرجال و النساء الا ما استثني ، و اذ يفرض عليهن الحجاب تجاه غير المؤمنات من النساء ، فلأنهن قد يصبحن نافذة للأجانب من الرجال على المرأة المؤمنة ، و يصفن جمال المؤمنات لهم ، حيث لا يملكن رادعا دينيا عن القيام بهذا العمل.

ثم ينتقل السياق الى الحديث عن الرسول (ص) بعد الحديث عن نسائه ، و قد سبق القول : بان العلاقة بين أسرة الرسول و الرسول نفسه ، اي النواحي القيادية فيه لهي علاقة وثيقة ، لأنها العلاقة بين مركز الانسان الذي منه ينطلق و يتقدم ، و بين اهدافه و وسائل تحركه فــي الحياة ، فلا ريب ان البيت الصالح و الذي يكون أهله في مستوى المسؤولية ســـوف يساعد الانسان على القيام بمهامه ، و اذا كان المثل الشائع يقــول : (وراء كل رجل عظيم امرأة) فانا نقول : (و راء كل رجل عظيم بيتمبارك) و لهذا كان من أهم تطلعات عباد الرحمن الذين تحدثنا عنهم سورة الفرقان هو البيت الصالح ، و امامة المتقين . لأنهم يدركون أهمية هذا الأمر في تحقيق طموحهم الأسمى و هو قيادة المجتمع " و الذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا و ذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما " (١) و من أجل ان يطمئن قلب الانسان ، و ينطلق لقيادة المجتمع ، لا يكفي ان تكون زوجته وحدها صالحة لأن للأولاد و عموم أفراد الأسرة أثرا بالغا على شخصية القائد ، و هنا يجب أن نؤكد على ضرورة التفات المرأة الى موقعها في

حياة زوجها ،فان طبيعة سلوكها معه سوف تؤثر في حياته ، فعليها إذن أن تسعى لتنظيم حياتها و أسرتها معه.

من هنا نجد الإمتزاج و الاختلاط بين شطري السياق واضحا في تمام السورة ، يلتقيان تارة و ينفصلان أخرى ليلتقيا من جديد و هكذا ، و هذان الشطران هما بعد القيادة في البيت ، و بعدها في المجتمع.

ثم يدعونا القرآن للصلاة على النبي (ص) الذي يصلي عليه الله و ملائكته و ينتهي السياق بالاشارة الى أذى المنافقين للرسول (ص) في حياته و بعد وفاته ، المتمثل في عدم تطبيق مناهجه ، و عدم القيام بمسؤولياتهم تجاهه كقائد ، و اعظم من ذلك محاولتهم الحط من شأنه ، و الذي يناقض صلاة المؤمنين عليه و تسليمهم له ، و ينذرهم القرآن بالطرد من المدينة ، و اجتثاث جذورهم منها إذا ما استمروا في عملهم هذا ، كما نجد في -البين- توصية للمؤمنات بضرورة الحجاب ، وقاية لهم من أذى المنافقين ، و اصحاب القلوب المريضة ، و المرجفين.

بينات من الآيات

[55]تحدثنا هذه الآية عن بعض حدود الحجاب الاجتماعية ، و بيان من

(1)الفرقان / ٧٤

يستثنى من هذا الحكم ممن يمكن لنساء النبي عدم التحجب معهم.

]لا جناح عليهن[

اي لا عتب ولا ذنب على نساء النبي ، لولم يتحجبن عمن تشير اليهم الآية و هم:

]في ءابآئهن و لا ابنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن]ان يتحدثن معهم من دون حجاب ، ثم تضيف الآية:

]ولا نسائهن[

اي النساء اللواتي يتحدث معهن في الدين ، ثم يستثني القرآن الاخريات من النساء في وضع خاص ، و ذلك إذا كن اماء تحت أيديهن.

]و لا ما ملكت أيمانهن[

من غير نسائهن (المؤمنات) فعموم النساء غير المؤمنات يجب التحجب عنهن الا الأماء ، و ذلك للحرج و الوقوع فيما لا يطاق ، و لأن الأمة مقطوعة عن مجتمعها الكافر فهي لا تكون نافذة عليه ، و في الآية التفافة لطيفة يتعرض لها المفسرون و هي سكوتها عن الخال والعم ، و يرجعون ذلك لحرمة جلوس نساء النبي لهذين الاثنين مـن غير حجاب ، و السبب ان ابناء العم و الخال يجوز لهم الزواج من ابناء العمة و الخالة ، فمن الممكن ان يحكي العم و الخال لاولادهم حال بنت اخوهما أو اختهما ، مما يمكنهما تشجيعهم على الزواج منها بعد طلاقها أو وفاة زوجها ، بينما يحرم ذلك بقاعدة خاصة على المؤمنين جميعا من نساء النبي (ص) فوجب عليهنالتحجب عن اخوالهن و اعمامهن من دون سائر المؤمنات . (١)و الذي يؤيد هذا الرأي ان ما تعرضت لهم الآية من الذكور لا يجوز لهم الزواج من نساء النبي و ان نزلوا ، و هناك رأي آخر يقول : ان ترك الخال و العم كان لدلالة السياق عليهما ذلك ان الآية ذكرت ابناء الاخوان و ابناء الاخوات ، و هم الذين تصبح المرأة بالنسبةاليهم عمة أو خالة ، فدل على حرمة العم و الخال لأنها ذات العلاقة ، و لا فرق بين العم و العمة و الخال و الخالة . (٢)و لم تذكر الآية ايضا والد الزوج أو ابنه لانهما - بالنسبة الى نساء النبي - لم يكونا موجودين عملا.

و بعد هذه المجموعة من الاحكام المتقدمة يحث القرآن نساء النبي على التقوى قائلا:

]و اتقين الله[

و هذا التأكيد على التقوى لسببين:

الاول :حتى لا تزعم أي زوجة للرسول ان مجرد انتمائها اليه يعفيها عن المسؤوليات الدينية ، أو يجعلها أرفع درجة من غيرها . كلا .. بل الأهم من الانتماء الظاهري انتماؤها الواقعي للنبي بالتقوى.

الثاني : لان التقوى افضل وازع نفسي عن تعدي حدود الشريعة ، و مالم يسع المؤمن نحو إيجاد روح التقوى في نفسه فانه لن يستطيع الإلتزام بكثير من الأحكام ،(١) تفسير مجمع البيان / ج ٨ / ص ٣٦٨ / عن الشعبي و عكرمة.

(2)تفسير نمونة / ج - 17ص ٤١٢.

ذلك أن من طبيعة البشر أنه يريد ان يكون مطلقا كما يهوى ، و ليس من شيء يواجه هذه الطبيعة كالتقــوى لما توجده من أحساس بالرقابة الالهية الدائمة و جاء في أحد التفاسير : " و اتقين الله " في نقل الكلام من الغيبة الى الخطاب دلالة على فضل تشديد فيماأمرن به من الاحتجاب و الاستتار ، أي و اسلكن طريق التقوى فيما امرتن به ، و احتطن فيه . (١)[ان الله كان على كل شيء شهيدا[

الصلاة على النبي

[56]في سياق الحديث عن عظمة الرسول و الاحكام التي يتميز بها يدعو الله المؤمنين الى الصلاة عليه ، و التسليم لقيادته ، فلا يكتمل علاج المحيط الاجتماعي الا من خلال الصلاة على الرسول (ص) و التسليم له ، فما هو معنى الصلاة على النبي ؟

لعل اصل معنى الصلاة هو التعطف و الترؤف - كما ذكرنا آنفا - أما الصلاة على النبي فهي الدعاء الى الله بأن يرحمه ، و يرفع درجته ، و يبلغه المقام المحمود الذي وعده ، أما صلاة الله على نبيه ، فبالنسبة الى الله تأخذ الكلمات غاياتها و تترك مبادئها ، فحينمانقول بان الله يحب ، و يبغض ، و ينتقم ، فليس المعنى انه تطرأ عليه هذه الحالات -سبحانه - فتغير فيه شيئا كما تغير في نفوسنا و اجسامنا ، انما تصدق على الله الغايات منها ، فعطفه على الانسان هو هدايته له ، و انعامه عليه ، و صلاته على نبيه ، انه يستجيب الدعاء في حقه ، و بسببه.

و صلاة الملائكة على الرسول)ص) تعني الدعاء له عند ربهم ، و تأييد تابعية ،(١) تفسير جوامع الجامع / ص ٣٧٧

اما صلاة المؤمنين التي وجبها الرب علينا في صلواتنا ، و ندب اليها في كل وقت ، و بالذات عند ذكره - صلى الله عليه وآله - فهي تعني الدعاء له ، و التقرب الى مقامه الكريم ، و من أبرز الحكم فيها:

أولا : تصحيح عقيدة المسلم ، ففي الوقت الذي يجب ان يعظم المسلم نبيه (ص) لا يجوز ان يغلو فيه فيمرق من الدين ، بلى . يكرمه من خلال الدعاء الى الله سبحانه لتبقى صلته الاولى بربه ، و من خلال توحيد الله ، و حبه الشديد يكرم المسلم الرسول و يحبه ، وفي ذاتالوقت تبقى علاقته بالرسول وسيلته للتقرب الى الله ، و من دون التسليم له و لمن أمر الرسول باتباعه ، و من دون حب الرسول و حب من أمر بحبهم لا يمكن ان يتقرب المسلم الى ربه . هكذا تحمل كلمات الصلاة على الرسول و آله إطار العقيدة الاسلامية ، و تعنــي المزيدمن التقرب الى الله و لكن بالرسول ، و المزيد من حب الرسول ، و لكن في الله.

ثانيا : ان ذلك حق علينا تجاه الرسول الذي أجهد نفسه من أجل البشرية ، و تحمل الأذى في سبيل هدايتها ، حتى قال (ص: (

"ما أوذي نبي قط بمثل ما أوذيت"

و أبرز شكر نقدمه للنبي (ص (على ما نملك اليوم من الهداية و الخير ، اللذان كانا بسببه ، يكون بالصلاة عليه) الدعاء له. (

ثالثا : ان صلاتنا عليه يعود علينا بالنفع و الخير ، كما جاء في الدعاء للمؤمن ، ففي الحديث قال الامام الصادق)ع: (

"دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب يسوق الرزق ، و يصرف عنه البلاء ، و يقول له الملك : لك مثلاه "
(1)(1)بح / ج ٩٣ - ص ٣٨٨

و حينما ندعو الله للرسول ان يرفع درجته من الناحية المعنوية و المادية فانا ايضا ترتفع درجاتنا كتابعين له .

جاء في الحديث الماثور عن الرسول (ص: (

من صلى علي صلى الله عليه و ملائكته ، فمن شاء فليقل و من شاء فليكثر " (١)ان الرسول هو قائدنا في الدنيا و الآخرة ، فكلما ارتفعت درجته ، و علا مقامه ، فان درجات المؤمنين به ترتفع و تعلوا ، جاء في حديث مأثور عن الامام الصادق (ع: (

"ان رجلا أتى النبي فقال : يا رسول الله أجعل لك تلك صلاتي ، لا بل اجعل لك نصف صلاتي ، لا بل أجعل كلها لك ، فقال رسول الله اذا تكفى مؤنة الدنيا و الآخرة " (٢)و في رواية:

"ان رسول الله جاء ذات يوم و البشرى ترى في وجهه ، فقال النبي : انه جاءني جبرئيل ، فقال :اما ترضى يا محمد ان لا يصلي عليك احد من أمتك صلاة واحدة إلا صليت عليه عشرا ، و لا يسلم أحد من أمتك الا سلمت عليه عشرا " (٣)و حتى في الدنيا فانه كلما ارتفعت درجته (ص) كلما ارتفع شأن المسلمين جميعا.

(1)تفسير البصائر / ج - 32ص ٦٢٨

(2)المصدر

(3)المصدر

رابعا :ان الصلاة على النبي (ص) من وسائل استجابة الدعاء ، وقد يدعو العبد ربه ألف مرة فلا يستجيب له حتى يصلي على محمد (ص) يبدأ بها و يختم.

قال الرسول (ص: (

"صلاتكم علي اجابة لدعائكم ، و زكاة لأعمالكم " (١)و قال الامام علي (ع(

"لا يزال الدعاء محجوبا حتى يصلى على محمد و آل محمد " (٢)و قال الامام الصادق (ع: (

"من كانت له الى الله عز و جل حاجة فليبدأ بالصلاة على محمد و آله ، ثم يسال حاجته ، ثم يختم بالصلاة على محمد و آل محمد ، فان الله أكرم من ان يقبل الطرفين و يدع الوسط ، إذ كانت الصلاة على محمد و آل محمد لا تحجب عنه " (٣)امـــا عن الهدف المباشر لهذه الصلاة فهو التسليم للرسول ، و إتخاذه أسوة و إماما ، و قد أفرد العلامة المجلسي في كتابه بحار الأنوار بابا خصصه لتفسير هذه الآية

الكريمة . (٤)[ان الله و ملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين ءامنوا صلوا عليه و سلموا تسليما](١) بح / ج ٩٤ - ص 54

(2)بح / ج ٩٣ - ص ٣١١

(3)المصدر / ص ٣١٦

(4)راجع بح / ج ٢ - باب ٢٦ - ص ١٩٩ و ما بعدها.

و كم هو عظيم ان يستجيب العبد المؤمن الى ربه بالصلاة على النبي (ص) لينتمي الى حزب الله الذي يضم الملائكة المقربين ، و لكن ليس كل صلاة تحقق له هذا الانتماء ، انما التي يتلفظها بلسانه ، عارفا بحدودها في عقله ، مسلمة لها نفسه ، خاضعة لها جوارحه ، فإذاسمع الخطيب يقول : قال رسول الله (ص) يجب ان يصلي عليه بلسانه ، و يستوعب الصلاة بمعرفته ، و يستعد لتطبيقها بنفسه ، ثم ينطلق من عنده للعمل وفقها و بما تقتضيه ، و من الناحية النفسية الذي يدعو لآخر في غيابه فانه سيحبه حتى لو كانت بينهما عداوة ، ذلك ان الدعاء يلين جانب الداعي للطرف الآخر من جهة ، و من جهة أخرى يشعر المدعو له بالميل و من ثم المحبة ، حتى ولو لم يفعل شيئا غير الدعاء ، لأن للقلوب عليها شواهد ، و لأن النفوس جنود مجندة ، تتألف غيبيا كما تتألف شهوديا.

و نحن عندما نصلي على رسول الله فان حبه و احترامه يسمو في قلوبنا الى ان نصير محبين له ، مما يسهل علينا طاعته ، و التأسي به ، و قد قرأت في علم النفس : انه و بعد التجـارب العديدة ثبت ان الحق أقوى عامل للطاعة ، و ان الطفل - على سبيل المثال - اكثر ما يطيع أمه حبا لها ، لا خوفا منها ، وفي المقابل تقدم الام لطفلها الحنان و العطف و التضحيات لانها تحبه.

[57]ان الذي يبتعد عن رسول الله (ص) يبتعد عن رحمة الله و هؤلاء هم الذين يؤذون رسول الله ، سواء بالنيل من شخصيته أو بأذى ذريته أو بمخالفته أو ما اشبه.

وفي أكثر من مناسبة قرنت طاعة الله بطاعة رسوله ، و هنا نجد ان السياق يذكر أذى الله قبل أذى الرسول للتأكيد بأن الموقف من الرسول يحدد الموقف من رب العالمين ، فمن آذى الرسول فقد أذى الله.

]إن الذين يؤذون الله و رسوله لعنهم الله في الدنيا و الأخرةو أعد لهم عذابا مهينا [

و هؤلاء بدل الصلاة على النبي و آله المفروضة عليهم تراهم يؤذون النبي في نفسه أو في أهل بيته أو في التابعين له ، فتلحقهم لعنة الله في الدنيا بالابتعاد عن بركاته ، و في الآخرة بالحرمان من شفاعة الرسول (ص. (

و نستوحي من الآية فكرة هامة و هي : ان الأمة التي تؤذي القيادة الرسالية بمخالفتها ، و الاستهانة بها تعذب في الدنيا و الآخرة ، بينما الأمم التي تعودت على الخضوع لقيادة الحق تكون أعز و أعظم شأنا في الدنيا و الآخرة .. و واضح من واقع الامة الاسلامية انها حين التزمت بالطاعة للقيادة الرسالية في مطلع فجرها صارت أعز الأمم و أفضلها ، أما حين نبذت أئمة الحق انحرفت مسيرتها نحو الدمار و التخلف .

[58]و لان ثمة أناس لا يستطيعون النيل من الرسول ، فانهم يحاولون المس بكرامة المؤمنين ، و قد تعرض السياق لأذى المؤمنين ، مؤكدا بانه ينتهي الى العذاب أيضا ، و لا ريب ان من يؤذي اتباع الرسول - نساءا أو رجالا - فانه يؤذي نفس النبي ، و بالتالي يؤذي الله.

و لقد ثبت في التاريخ : ان أبا طالب - والد الامام علي)ع) - كان من أرفع المؤمنين درجة ، و اقربهم الى النبي (ص) و قد سمى الرسول العام الذي توفي فيه أبو طالب (رض) بعام الاحزان ، و كيف لا وكان له بمنزلة الأب الحنون ؟! و لكن أقحمت بعض الروايات الملفقةحوله في كتب التاريخ بهدف اسقاط شخصيته .

و حينما ندرس خلفيات هذه الروايات نجد ان هدفها النيل من بطل الاسلام امير المؤمنين علي ابن ابي طالب (ع) ذلك ان مروجيها لم يجدوا نقصا في شخصيةالامام فانتقصوا والده ، و الملاحظ ان هذه المرويات انتشرت أيام بني أمية الذين بنوا سلطتهم على الحقد الدفين للإمام علي وأهل بيته عليهم السلام.

]و الذين يؤذون المؤمنين و المؤمنات بغير ما اكتسبوا]انما بالافتراء المحض ، و التهم الكاذبة.

]فقد احتملوا بهتانا و إثما مبينا [

و البهتان هو التهمة التي لا واقع لها ، و اذ يصف القرآن أذاهم بذلك فلكي يرفع التهمة أولا عن المؤمنين ، اما الاثم المبين فهو الذنب التام الذي يمارسه صاحبه عن وعي و عمد ، و جاء في الاثر عن الامام الرضا عليه السلام انه قال:

"من بهت مؤمنا أو مؤمنة ، أو قال فيه ما ليس فيه أقامه الله تعالى يوم القيامة على تل من نار حتى يخرج مما قاله فيه " (١)و روي عن الامام الصادق (ع) انه قال:

"اذا كان يوم القيامة نادى مناد : اين الصدود لاوليائي ، فيقوم قوم ليس على وجوههم لحم ، فيقال : هؤلاء الذين آذوا المؤمنين ، و نصبوا لهم ، و عاندوهم و عنفوهم في دينهم ، ثم يؤمر بهم الى جهنم " (٢)[٥٩] [يا أيها النبي قل لأزواجك و بناتك و نساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن](١) تفسير نمونه / ج ١٧ - ص ٤٢٤

(2)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٣٠٦

و الجلباب هو العباءة ، و انما أمر الله المؤمنات بتثبيت العباءة لأنهن و هن يلبسنها قد لا يراعين الألبسة التي تليها ، فقد تكون مما لا يليق ظهوره للآخرين ، ويبين القرآن ان الهدف الأهم من وراء هذا الفرض:

]ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين و كان الله غفورا رحيما]و المعرفة هنا تحتمل أحد تفسيرين:

- 1ان يعرفن من بين النساء ، انهن ينتسبن الى رسول الله او الى فلان من المؤمنين ، فيؤذين إمعانا في الأذى لذلك الطرف ، سواء بالكلام البذيء أو غيره.

- 2ان تعرف مفاتنهن و زينتهن مما يسبب الأذى لهن ، و الملاحظ أن قسما من المؤمنات لا يراعين كيفية الحجاب تماما ، و لكن ليس بهدف الافساد ، انما لعوامل تربوية و ثقافية سلبية ، أو لقلة الوعي الديني ، فيؤدي ذلك الى اثارة بعض ابناء المجتمع ، الذين قد تنتهي اثارتهم الى الاعتداء.

و عن هذه الآية جاء في تفسير القمي : انه كان سبب نزولها : ان النساء كن يخرجن الى المسجد و يصلين خلف رسول الله (ص) فاذا كان بالليل و خرجن الى صلاة المغرب و العشاء الآخرة ، يقعد الشباب لهن في طريقهن فيؤذنهن ، و يتعرضون لهن . (١)و قد عبر القرآن بكلمة " نساء " في عطفه الحديث عن المؤمنين على أمره رسول الله (ص) دون التعبير بـ (زوجات المؤمنين و بناتهم) لما في كلمة نساء من ظلال خاص يشمل من جهة الزوجات و البنات ، و يشير الى الحد الشرعي للحجاب ، فوجوبه على الانثى لايكون الا اذا بلغت مبلغ النساء عرفا شرعا.

(1)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٣٠٧

[60]ولان مشكلة الحجاب ذات طرفين ، فانا نجد السياق في الوقت الذي يفرضه على النساء يزجر الرجال عن ايذائهن ، لانه كما يجب على المرأة الحجاب يجب على الرجل غض البصر ، و هنا نجد

السياق حادا مع المنافقين ، و الذين في قلوبهم مرض ، و المرجفون (و هم الذينيذيعون في البلد الاشاعات الكاذبة. (

يقول تعالى:

]لئن لم ينته المنافقون و الذين في قلوبهم مرض و المرجفون في المدينة]و كل هؤلاء تجمعهم السلبية الاجتماعية ، و الذاتية ، فالمنافق يعيش بشخصيتين الاولى مع المجتمع و الرسالة و هي الظاهرة ، و الثانية ضدهما و هي الباطنة ، أما مريض القلب فهو يعيش العقد ، و مختلف الامراض النفسية ، التي يبحث عن متنفس لها ، و دائما ما يكونتنفيسه هو التشفي من ابناء المجتمع ، اما المرجف فان طبيعته تضعيف النفوس ، و بث الوهن و الخوف في صفوف المجتمع ، عبر اشاعة الفواحش و الأخبار السلبية فيه ، و يبدو أن هذه الآية تأول معنى الأذى في الآية السابقة ، فهؤلاء هم الذين يؤذون المؤمنين.

ولابد للمجتمع و القيادة الرسالية من مواجهة هذا القطاع من الناس حتى تستمر مسيرته التصاعدية ، و نهاية هذا الدرس يحدد الموقف السليم من هؤلاء ان لم يرتدعوا بالانذار.

]لنغرينك بهم[

نحرضك عليهم لاخراجهم من المدينة ، و تطهير المجتمع من رجسهم.

]ثم لا يجاورونك فيها[

في المدينة.

]إلا قليلا[

ان أبعاد هؤلاء عن المجتمع ، و بالتالي عن التاثير فيه أمر مهم ، لأن من طبيعتهم الافساد ، فلا حل معهم الا الإجتثاث الجذري ، حتى لا ينفثوا سمومهم ، أو يتوسعوا ليكونوا لهم خطا انهزاميا سلبيات في المجتمع ، و يبدو أن نزول هذه الآية - و عموما سورة الأحزاب - بعد استئصال الخطر الآتي من مشركي قريش ، و يهود المدينة يدل على ان اهتمام المسلمين انعطف نحو تصفية الحسابات الداخلية ، خصوصا مع المنافقين الذين كانوا يقومون بأدوار خبيثة ضد المجتمع الاسلامي.

و نستوحي من ذلك أمرين:

أولا : حينما تعجز القوى المعادية عن كسر شوكة المسلمين تحاول التأثير عليهم داخليا بإثارة المنافقين و ضعاف النفوس.

و لعل الأعداء فعلوا مثل ذلك بعد انهزامهم في الأحزاب ، مما دفع بالمسلمين لمواجهة الوضع بقوة و حزم.

ثانيا :حينما ينتصر المسلمون في جبهة خارجية عليهم ان يستثمروا انتصارهم في تقوية جبهتهم الداخلية ، و تطهير صفوفهم من المنافقين ، و لكن بعد الانذار و فتح المجال للتوبة أمامهم.

[61]و حينما يبعد هؤلاء الى مدينة أخرى يفقدون حماية المسلمين ، فيحيط بهم الخطر.

]ملعونين أينما ثقفوا أخذوا و قتلوا تقتيلا[

و هنا حكمان حكم بالابعاد ، و آخر بالقتل ، و اختلف المفسرون فيها ، و لعل الإبعاد هو مقدمة قتلهم ، و

قال البعض ان القتل يشمل من لم يخرج منهم.

[62]و هذا القضاء قانون إلهي لابد من تطبيقه في كل مكان و زمان ، لانه يرتبط بثوابت الحياة و قوانينها العامة ، و هذا الفريق من الناس - هو الآخر - لا يختص بعهد رسول الله (ص) و حسب ، انما وجد في العهود السابقة و سيبقى سنة جارية في اللاحقة ايضا.

]سنة الله في الذين خلوا من قبل و لن تجد لسنة الله تبديلا]و في الحديث عن علي بن ابراهيم : انها نزلت في قوم منافقين كانوا في المدينة يرجفون برسول الله (ص) اذا خرج في بعض غزواته يقولون : قتل و أسر ، فيغتم المسلمون لذلك ، و يشكون الى رسول الله (ص (فانزل الله عز وجل في ذلك : " لئن لم ينته المنافقون و الذين في قلوبهم مرض " اي شك " و المرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا " اي نأمرك باخراجهم من المدينة الا قليلا " (١)(١) نور الثقلين / ج - 4ص ٣٠٧

إنا عرضنا الأمانة على السموات و الأرض

هدى من الآيات

في نهاية هذه السورة و بعد بيان ضرورة الطاعة للقيادة الرسالية ، و أنها فرض الهي ، يبين لنا القرآن الآثار السلبية لرفضها ، فقد توعد الله المنافقين بالنفي ، و اعلان الحرب ضدهم ، كما حذر الكفار بأن كفرهم سيؤدي بهم الى الخلود في السعير ، أما متى يحين ميعاد هذا الجزاء ؟ فقد تجاوز السياق الاجابة عن ذلك ، مكتفيا بالتأكيد على حتمية وقوعه ، و ان تبرير الكفر بطاعة الكبراء لن يغني عن العذاب شيئا.

ثم يوضح ربنا وجاهة النبي)ص) عنده ، ناهيا المؤمنين عن التشبه ببني اسرائيل الذيـــن آذوا مـوسى)ع) حيث اتهموه بقتل هارون ، و بالبرص ، كما ادعى عليه قارون - بالتعاون مع فاجرة من بني اسرائيل - انه زنى بها ، لكن الله برأه من كل ذلك ، وفي هذا اشارة الى ان أراجيف المنافقين سوف تذهب سدى بقدرة الله ، و في الأثناء يدعو الله المؤمنين للتقوى ، ذلك انها أساس المنطق السليم ، فهي تبعدالانسان عن الكذب و التهمة ، و تدعوه للتثبت في منطقه ، كما تصلح سعيه في الحياة ، و تمحو اخطاءه ، ولان التقوى لا تتم الا بطاعة الله و القيادة الرسالية ، و جدنا الآية تصفها بالفوز العظيم.

و تختم السورة آياتها بالحديث عن امانة عرضها الرب على السموات و الأرض و الجبال ، فرفضتها خوفا من عدم تحملها ، و بالتالي من العذاب و الغضب الالهي المترتب على ذلك ، بينما تحملها الانسان ، فخانها المنافقون و الكفار بظلمهم و جهلهم ، فما هي هذه الامانة؟

من ناحية السياق ، جاءت الكلمة بعد الحديث عن الطاعة ، مما يوحي بأنها تعني الطاعة لله و للرسول ، و بالذات لرسول الله ، لما في طاعته من خروج من سجن الذات ، الأمر الذي يستصعبه البشر ، فقد يكون سهلا عليه الإستجابة للقيادة في الأمور العادية كالصلاة ، والزكاة ، و الحج ، و لكن من الصعب عليه الخضوع لإنسان مثله في الظاهر لو نصبه الرسول قائدا له.

و هناك اقوال أخرى حول الأمانة تبناها بعض المفسرين ، فقال بعضهم انها الامانة المتعارفة ، كما لو اعطاك شخص ما ماله لتحفظه له فان ذلك مما يصعب على الانسان رعايته و اداؤه ، و قال أخرون : انها العقل و العلم و الارادة و الحرية ، و مثلوا على ذلك بان اللهوهب العقل للانسان من دون المخلوقات الاخرى كالحيوانات ، و وهبه الارادة و الاختيـار دون الملائكة الذين جردهم عن الشهوة الدافعة لهم باتجاه الشر و الفساد ، وقد وصفهم عز و جل بقوله : " بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون " (١) وكل هذا صحيح ولكن التجربة الحقيقية للإنسان بعقله و علمه و اختياره انما تكون في طاعة الرسول بتمام المعنى ، التي تعتبر أصعب(١) الانبياء / ٢٦ - ٢٧

تجليات الاختيار في حياة البشر ، فلا معارضة اذن بين القول بأن الأمانة هي العقل ، و بين القول بأنها الطاعة للرسول بدلالة السياق القرآني.

بينات من الآيات

] [63]يسئلك الناس عن الساعة[

تقف وراء هذا السؤال فكرتان :

الأولى :استبعاد الانسان بطبعه للجزاء ، بالتسويف تارة ، و بطول الأمل أخرى ، فاذا بالشباب يتصور الموت بعيد عنه ، و الشيخ يطول أمله بالبقاء اضعاف عمره ، و ربما مات الواحد بعد هذه التصورات بلحظة ، فقامت قيامته (١) و ما دام الأمر كذلك ، و الانسان يجهللحظة موته ، فعليه ان لا يغتر بنفسه ، و بماله ، و عشيرته ، لانهم لا يغنـــون عنه شيئا يوم القيامة ، ولا يدفعون عنه الموت في الدنيا ، يقول أمير المؤمنين (ع: (

"فاتقى عبد ربه ، نصح نفسه ، و قدم توبته ، و غلب شهوته ، فإن أجله مستور عنه ، و أمله خادع له ، و الشيطان موكل به ، يزين له المعصية ليركبها ، و يمنيه التوبة ليسوفها ، إذا هجمت منيته عليه أغفل ما يكون عنها ، فيالها حسرة على كل ذي غفلة ، ان يكونعمره عليه حجة ، و ان تؤديه أيامه الى الشقوة " (٢)و اسباب الموت كثيرة جدا ، و مهما أبعدت اسبابا منها عنك فان غيرها يلزمك و لأنه سنة جارية على الخلق.

الثانية : الزعم الخاطئ بان على القيادة ان تعرف كل شيء ، و كأنها المسؤول(١) اشارة للحديث الشريف : " اذا مات أبن آدم قامت قيامته "(٢) نهج البلاغة / خ ٦٤ - ص ٩٥

المباشر عن كل جزء من الدعوة ، و الواقع أنها تنتهي مسؤوليتها بإبلاغ الرسالة لتبدأ مسؤولية الناس ، أما متى تكون الساعة ، فليست الإجابة على ذلك من ضروريات القيادة ولا من مسؤولياتها ، ذلك انه يكفي للانسان العلم بحصولها لكي تبدأ مسؤوليته تجاهها ، كما يكفيالرسول و القائد مسؤولية بيان ذلك للناس ، ثم إن علم الساعة مما يختص به الله عز و جل.

]قل إنما علمها عند الله و ما يدريك لعل الساعة تكون قريبا]و لعل : تفيد الترجي ، مما يدل على كفاية الاحتمال بقرب الساعــة موعظة للإنسان ، حتى يعمل بما يقتضيه هذا العلم ، ايمانا و عملا و تسليما للقيادة.

[64]و لكن الكافرين يبحثون عن مبرر لكفرهم بالساعة ، مهما كان سخيفا و خارجا عن حدود الموضوعية ، و لكن هل يدفع ذلك العذاب عنهم ؟ كلا .. فقد أبعدهم الله عن رحمته ، و أعد لهم سعيرا.

]إن الله لعن الكافرين و أعد لهم سعيرا[

و لنستمع شيئا عن هذا السعير ، فقد جاء في تفسير علي بن ابراهيم عن ابي بصير)رض) قال : قلت لابي عبد الله (ع) : يابن رسول الله خوفني فان قلبي قد قسى ، قال:

"يا محمد ! استعد للحياة الطويلة ، فان جبرئيل جاء الى النبي - صلى الله عليه و آله - وهو قاطب ، وقد كان قبل ذلك يجيء و هو مبتسم ، فقال رسول الله (ص) : يا جبرئيل ! جئتني اليوم قاطبا ؟! فقال : يا محمد ! قد وضعت منافخ النار ، فقال وما منافخ الناريا جبرئيل ؟ فقال : يا محمد ! ان الله عز و جل أمر بالنار فنفخ عليها الف عام حتى ابيضت ، ثم نفخ عليها الف عام حتى احمرت ،ثم نفخ عليها الف عام حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة ، لو أن قطرة من الضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها ، و لو ان حلقة واحدة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعا وضعت على الدنيا لذابت من حرها ، ولو ان سربالا من سرابيل أهل النار علق بين السماءو الارض لمات أهل الدنيا من ريحه"

الى ان يقول الامام (ع: (

"فما رأى رسول الله (ص) جبرئيل مبتسما بعد ذلك " (١)[٦٥] و أعظم ما في العذاب الذي ينال الكافرين ، خلودهم الأبدي فيه ، بين الموت و الحياة " كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب " (٢)ثم ان علاقاتهم السلبية بالقيادات المنحرفة من الطواغيت و اصحاب المال و الوجاهة لن تنفعهم ، لأن الذي ينفع هنالك علاقة الانسان بربه ، و بالقيادة الرسالية التي يرتضيها.

]خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا[

[66]و من صور العذاب الظاهر لهؤلاء في جهنم تقليب وجوههم فيها.

]يوم تقلب وجوههم في النار [

و لهذه معنيان : الأول : ان تقليب الوجه هو تبدله من حال الى حال ، و من صورة الى أخرى ، و الثاني : هو أنها تقلب في النار على كل جانب لكي تنالها من جميع الجهات ، كما يقلب اللحم في الافران لتنضجه من جميع نواحيه.

(1)تسلية الفؤاد / ص 240

(2)النساء / ٥٦

و عند مشاهدة هذه الألوان من العذاب يتمنى الكفار و المنافقون لو انهم استجابوا لله و اطاعوا الرسول ، و انى ينفع الكلام في دار الجزاء ، و قد اضاعوا على أنفسهم فرصة العمل في الحياة الدنيا ؟!

]يقولون ياليتنا أطعنا الله و أطعنا الرسولا[

بينما كانوا يعتذرون عن الاستجابة للحق ، و التسليم لقيادة الرسول في الدنيا ، و هذا مما يدل على ارتفاع الحجب و التبريرات يوم القيامة ، و أن تبريرهم لكفرهم بأنهم لا يعلمون بميعاد الساعة إنما كان للتملص من مسؤولية الإيمان و الطاعة لا أكثر.

[67]و مما يقدمه أهل النار لتبرير كفرهم بالقيادة الرسالية أنهم انخدعوا بالقيادات الضالة ، و وقعوا تحت تأثيرها . و كل ذلك مرفوض عند الله ، لأن الانسان متصرف و عاقل ، و ليس آلة جامدة تحركها الأيدي كيف تشاء ، فهو اذن مسؤول عن قراراته و أعماله و سلوكياته ، و قد حمله الله هذه المسؤولية التي رفض حملها كل الخلائق ، و اذا ضيعها فانما بجهله و ظلمه ، و من يقول : ان الأوامر تأتي من فوق ، أو انني جندي مأمور لا ترتفع عنه المسؤولية.

]و قالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا و كبراءنا فأضلونا السبيلا]السادة : فهم كالحاكم و القائد السياسي ، و العسكري ، أو النظام الاقتصادي ، و سائر الجهات التي يعود عصيانها بالاذى على الناس ، اما الكبراء فهم أصحاب الوجاهة الاجتماعية ، أو الاقتصادية ، و عموم الجهات التي يتبعها الانسان لمصلحة معينة بإرادته المجردةو ليس للخوف منها ، و كان من الحري بهم الطاعة لله و لرسوله ، خوفا من عذاب الله ، و رغبة في ثوابه و رضاه.

و نستــوحي من هذه الآية بالاضافة الى سابقتها : ان السبيل يعني القيادة الرسالية ، ذلك ان القيادات المنحرفة ليس تضل الانسان عن المنهج السليم و حسب ، بل و تضله عن القيادة الصالحة.

قال أمير المؤمنين (ع) في خطبة له يوم الغدير:

"و تقربوا الى الله بتوحيده ، و طاعة من أمركم أن تطيعوه ، و لا تمسكوا بعصم الكوافر ، ولا يخلج بكم الغي فتضلوا عن سبيل الرشاد باتباع اولئك الذين ضلوا و اضلوا ، قال - عز من قائل - في طائفة ذكرهم بالذم في كتابه " : انا أطعنا سادتنا و كبراءنا فاضلونا السبيلا " " (١(

و قال علي بن ابراهيم في تفسيره : " فاضلونا السبيلا " اي طريق الجنة ، و السبيل امير المؤمنين صلوات الله عليه . (٢)[٦٨] و عادة ما يبحث المضللون عن أعذار ترفع عنهم مسؤولية الانحراف ، و تلقيها

على كاهل السادة و الكبراء منهم ، و قد يستطيعون خداع الناس في الدنيا بسببها ، ولكن انى لهم خداع الله ؟!

]ربنا ءاتهم[

السادة و الكبراء.

]ضعفين من العذاب و العنهم لعنا كبيرا[

و الله سوف يعذب هؤلاء ضعف الآخرين و اكثر ، الا ان ذلك لن يرفع عن(١) نور الثقلين / ج ٤ -ص ٣٠٨

(2)المصدر و الصفحة.

اولئــك العــذاب ، انما سيمكثون في السعير " خالدين فيها أبدا لا يجدون فيها وليا ولا نصيرا . "

[69]ثم يحذر الله المؤمنين مباشرة بعد تحذيرهم الضمني بالتعرض الى حال المضللين في الآخرة من الصبر الذي انتهى اليه أولئك باتباعهم القيادات المضلة فهي دوما تسعى لإشاعة الافكار الخاطئة ، و الاراجيف و الدعايات الباطلة حول قيادة الحق لفض الناس من حولها، و جرهم نحوهم عن طريق الاعلام .

يقولون : لا تنصاعوا لهذه القيادة فانها تورطكم ، و تعرضكم للسجن و القتل و التشريد.

]يا أيها الذين ءامنوا لا تكونوا كالذين ءاذوا موسى فبرأه الله مما قالوا [ما تثيره القيادات المضلة من شائعات حول القيادة الرسالية سوف تنفضح ، لأن حكمة الله و بالتالي قوانين الحياة و سننها قائمة على نصرة الحق و أهله.

]و كان عند الله وجيها[

[70]و لان الشائعات الباطلة قد تتلاقفها الألسن دعى الله المؤمنين الى الكلمة الصالحة ، و الى تحمل مسؤولية الكلام ، ولا يتم ذلك إلا بالتفكير و الإستقراء المنطقي ، و قبل ذلك كله بتقوى الله ، ذلك ان التقوى تصنع في النفس نوعا من الرقابة الذاتية و المحاسبة ، فالمتقي يخشى من اتهام الآخرين ، و من المشي بالغيبة و النميمة ، و هذه الأمور من مقومات الاعلام المنحرف ، و الشائعات.

]يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله و قولوا قولا سديدا]و لا يكون القول سديدا حتى يكون سليما ، وفي وقته المناسب ، ولا يكون كذلك الا بالتفكير و النظر الى الواقع و المستقبل . و الذي يميز المؤمن عن المنافق ان المؤمن يتحمل مسؤولية كلامه ، فهو يفكر كثيرا قبل الكلام ، بينما المنافق يبادر بالحديث دون رؤية فيبتلى بكلام ، و في الحديث:

"و ان لسان المؤمن من وراء قلبه ، و ان قلب المنافق من وراء لسانه " (١)ولو تكلم المؤمن بكلام ثم اكتشف أنه كان خطا اعترف بالخطأ ، و تراجع عن موقفه و كلامه ، اما المنافق فتأخذه العزة بالإثم.

قال ابو عبد الله (ع) لعباد بن كثير البصري الصوفي:

"ويحك يا عباد ! غرك ان عف بطنك و فرجك ! إن الله - عز و جل - يقول في كتابه : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم اعمالكم " اعلم انه لا يقبل الله عز و جل منك شيئا حتى تقول قولا سديدا(2) " و قال رسول الله (ص) وقد سأله احدهم : وهل يحاسبنا ربنا على ما نقول ؟ !قال:

"وهل يكب الناس في النار الا حصائد ألسنتهم ؟! " (٣)[٧١] و لكي يكون كلامنا سديدا يجب ان نبتعد عن التبرير ، و الكذب و النميمة ، و الغيبة ، و التهمة ، و كل آفات اللسان ، و هذا ينعكس مباشرة على سلوكنا ، و سلامة تحركنا في الحياة.

(1)نهج البلاغة / خ - 176ص ٢٥٣

(2)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٣٠٩

(3)بحار الأنوار / ج - 77ص ٩٠

]يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم[

وفي الحديث عن الامام الصادق)ع: (

"ان الله جعل للشر أقفالا ، و جعل مفاتيح تلك الاقفال الشراب ، و شر من الشراب الكذب " (١)[و من يطع الله و رسوله فقد فاز فوزا عظيما[

و السؤال : ماهي العلاقة بين صلاح الأعمال و الطاعة لله و للرسول ؟

من خلال السياق القرآني نكتشف ان الكلام السديد هو الكلم الحق الطيب و الذي يدعم التسليم لله و لرسوله.

[72]و التسليم للقيادة هو الامانة ، وهو من أبرز تجليات الإرادة البشرية.

]إنا عرضنا الأمانة على السموات و الأرض و الجبال فأبين ان يحملنها و اشفقن منها]و لكن الانسان تحملها ، و بظلمه و جهله الذين ارتكز فيهما يخون هذه الامانة.

]و حملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا[

الظلوم صيغة المبالغة من الظلم ، و الجهولة صيغة المبالغة من الجهل ، و هذا يشير الى انهما صفتان مغروزتان في الانسان ، و هما من طبيعته العدمية الضعيفة ، و هو يستطيع التغلب على هاتين الطبيعتين عن طريق العمل الصادق ، و الوعي الدائم ،(١) وسائل الشيعة / ج ١٧ - ص ٢٦٣

و بالتالي عن طريق اتصاله برسالة الله و تسليمه له ولأوليائه ، من الرسل و الأئمة و القيادات الصالحة .

[73]و هذا هو أبرز مصاديق تحمل الأمانة ، التي يتحدد مصير الانسان حسب موقفه منها ، فمن يخونها - وهم المنافقون و الكفار - يصير الى الجحود و العذاب ، و من يرعاها و يحفظها يصير الى التوبة و الثواب .

]ليعذب الله المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات]على خيانتهم و رغبتهم عن التسليم.

]و يتوب الله على المؤمنين و المؤمنات[

لان المؤمن الحقيقي حينما يقع في الذنب بسبب الغفلة أو الجهل سرعان ما ينتبه لخطئه ، فيعود الى مسيرته المستقيمة ، فيتوب الله عليه.

]و كان الله غفورا رحيما[

و الطـــريف هنا ان تنتهي هذه السورة - التي اشتملت على آيات العذاب و العقاب - بالاشارة الى غفران الله و رحمته ، مما يعمق فينا - نحن البشر - الملفوفين بالظلم و الجهل الأمل بربنا عز وجل.

الامانة في الاحاديث

و ختاما لتفسير هذه السورة نذكر جانبا من الاحاديث التي ركزت على تفسير الأمانة بأنها التسليم للقيادة الرسالية:

- 1قال الامام الرضا (ع (وقد سأله الحسين بن خالد عن قوله عز وجل : " إناعرضنا الامانة ... الآية " . فقال:

"الامانة الولاية من ادعاها بغير حق كفر " (١)و قال ابو بصير : سألت ابا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل : " أنا عرضنا الامانة .. الآية " قال:

"الامانة الولاية (2) "

و عنه (ع) قال:

"هي ولاية أمير المؤمنين (ع) " (٣(

وقال ابو جعفر (ع) : في قول الله تبارك و تعالى : " إنا عرضنا الامانة على السموات و الأرض و الجبال فأبين ان يحملنها " قال:

"الولاية ، أبين أن يحملنها كفرا ، و حملها الإنسان " (٤)و في كتاب الاحتجاج للطبرسي رحمه الله ، عن أمير المؤمنين (ع) في حديث طويل يقول فيه)ع) لبعض الزنادقة ، وقد قال:

"و أجده يقول : إنا عرضنا الامانة على السموات و الأرض و الجبال فأبين أن يحملنها و اشفقن منها و حملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا " فما هذه الامانة ومن هذا الانسان ؟ و ليس من صفة العزيز الحكيم التلبيس على عباده ؟ و اما الامانة(١) نور الثقلين / ج ٤ - ص ٣٠٩

(2)المصدر / ص ٣١١

(3)المصدر / ص ٣١٢

(4)المصدر / ص ٣١٣

التي ذكرتها فهي الامانة التي لا تجب ولا تجوز ان تكون الا في الانبياء و اوصيائهم ، لان الله - تبارك و تعالى - ائتمنهم على خلقه ، و جعلهم حججا في ارضه ، و السامري و من اجتمع معه و أعانه من الكفار على عبادة العجل عند غيبة موسى (ع) ماتم انتحال محل موسى منالطغام ، و الاحتمال لتلك الامانة التي لا ينبغي الا لطاهر من الرجس فاحتمل وزرها و وزر من سلك سبيله من الظالمين و اعوانهم ، ولذلك قال النبي (ص) : من استن سنة حق كان له أجرها و أجر من عمل بها الى يوم القيامة ، و من استن سنة باطل كان عليه وزرها و وزر منعمل بها الى يوم القيامة " (١(

(1)الإحتجاج / ص ٢٥١

سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

- 1روي عن الرسول الاعظم)ص) انه قال:

"من قـرأ سورة سبأ لم يبق نبي ولا رسول الا كان له يوم القيامة رفيقا و مصافحا "نور الثقلين / ج ٤ - ص ٣١٤

الاطار العام

الإسم

اقتبس اسم السورة من قصة مشهورة عند العرب ، و قد بين القرآن عبرتها الأساسية وهي قصة حضارة سبأ ، التي دمرت بسيل العرم لانحرافها و فسادها.

تتشابه آيات الذكر في بيان مسؤولية الانسان عن أفعاله ، و تفنيد الأعذار التي يتشبث بها البشر للفرار عنها بزعمه.

و من غرر السور التي تزرع الأحساس بالمسؤولية الذي لو ترسخ في قلب الانسان زكاه ، و اصلح أعماله ، هي سورة " سبأ " التي تذكرنا ايضا بالوحي المنزل على النبي (ص. (

و واقــع الجزاء (المسؤولية) تجل لإسمي الحكيم الخبير اللذين نحمد الله بهما ، فهو العالم بما يلج في الارض وما يخرج منها (٢/١. (

و عند قيام الساعة يتجلى الجزاء بأبرز صوره ، حيث لا ينفع تشكيك الكفار بها ، و حيث يحيط الرب علما بكل شيء ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، و حيث الجزاء الوافر للصالحين ، و العذاب الأليم لم يسعون في آيات الله معاجزين (معاندين و متحدين) (٥/٣)و ينقسم الناس فريقين تجاه الوحي : فبينما يراه أهل العلم هو الحق ، يستهزأ به الكفار ، و يقولون : هل الرسول مفتر أم به جنة ؟! كلا .. بل أنهم لا يؤمنون بالآخرة فهم في العذاب و الضلال البعيد.

و ينذرهم الذكر بأن كفرهم برسالات الله قد يعرضهم لعذابه ، الذي ان شاء خسف بهم الأرض أو أسقط عليهم من السماء كسفا (٩/٧. (

و يعرض السياق صورتين للحضارة : أولهما صالحة حيث استمرت ، بينما الثانية دمرت لفسادها ، وهما بالتالي صورتان بارزتان لواقع الجزاء و المسؤولية.

فلقد آتى الرب داود فضلا ، و ألان له الحديد ، و علمه صنعة الدروع السابغة ، و سخر لسليمان الريح ، و سخر له الجن ، و أمر داود و سليمان بالشكر له ، فاستمرت حضارتهما الى ما بعد موت سليمان ، الذي مــا دل على موته إلا الأرضة التي أكلت عصاته ، فعلمت الجنأنهم بقوا في العذاب لجهلهم بالغيب) و بالتالي لا يجوز الاعتماد عليهم للهروب من الجزاء كما زعم الجاهليون. (

أمــا الصورة الثانية فتتمثل في قصة سبأ ، الذي أتاهم الله جنتين عن يمين و شمال ، و أمرهم أيضا بالشكر ، فأعرضوا ، فأرسل عليهم سيل العرم.

و مثلهم مثل القرى الآمنة التي بارك الله فيها ، فكفرت ، فجعلهم الله أحاديث يعتبر بها كل صبار شكور (١٩/١٠. (

و ينسف القرآن الكريم أسس التبرير التي يعتمد عليها الكفار ، و التي هي في ذات الوقت حجب للقلب ، و غشاوة للبصر .

الف :القاء اللوم على إبليس الذي صدق عليهم ظنه ، و يؤكد الذكر انه لا سلطان له عليهم ، و إنما يبتلي الله به الناس ، ليعلم من هو المؤمن حقا بالآخرة ممن هو منها في شك.

باء : الانداد الذين يزعمون أنهم يغنون عنهم شيئا ، و يجرمون اعتمادا عليهم ، إنهم لا يملكون مثقال ذرة في السموات و الأرض ، و لا شرك لهم في السلطة ، و لا لهم أعـــوان و أعضاد ، و لا تنفع شفاعتهم إلا لمن أذن الله له ، كما أنهم لا يملكون للناس رزقا ، ولا يتحملون عنهم وزرا.

جيم : إن الناس إما على هدى أو في ضلال مبين ، و إن أهل الصلاح لا يزرون من مسؤولية المجرمين شيئا (٢٠/٢٧. (

و يذكر السياق بأن الرسول بشير و نذير لكافة الناس ، و أن وعد الله آت ، لا يستأخر ساعة ولا يستقدم ساعة ، و يصور لهم مسؤوليتهم عن إيمانهم بالرسالة ، و أن جزاء كفرهم اليوم يتجلى عند قيام الساعة ، حيث يتلاوم الكفار ، و يلقي بعضهم المسؤولية على عاتق البعض الآخر.

دال : يلقـــي المستضعفون اللوم على المستكبرين ، ولكنهم لا يتحملون عنهم وزرا ، بل يقولون لهم : انكم كنتم مجرمين . و حين يشترك الجميع في الأغلال يعلمون أنهم كانوا جميعا مسؤولون عن أعمالهم (بشهادة أنهم في العذاب مشتركون. (

هاء :كثرة الأموال و الأولاد لا ترفع عن أصحابهما الجزاء و المسؤولية ، و يزعمالمترفون الذين كفروا بالرسالات الالهية : أنهم غير معذبين ، و يفند الذكر هذه الفكرة بما يلي:

أولا : إن الرزق من الله ، فكيف يقف حاجزا دون جزاء الله ؟

ثانيا :إن الأموال و الأولاد لا يقربونهم عند الله زلفى الا بقدر الاستفادة منهما في العمل الصالح و الانفاق ، و يعود القرآن ليذكرنا : ان الانسان مسؤول عن رفضه ، و أن الذين يسعون في آيات الله معاجزين يحضرون للجزاء غدا عند ربهم.

واو : إن بعضهم كانوا يعبدون الجن ، و يزعمون أنهم يعبدون الملائكة (كل ذلك ليستمروا في جرائمهم اعتمادا على شفاعة الملائكة (و يرفضهم الملائكة.

و يبين الرب أنهم لا يملكون لبعضهم نفعا و لا ضرا ، و أن الظالمين مجزيون بالنار (ولا ينقذهم ادعاؤهم الانتماء الى الملائكة من جزاء ظلمهم) (٢٨/٤٠. (

و يكشف القرآن الحجب التي يتلبس بها قلب الكافر الواحد بعد الآخر.

أولا : حجاب التقليد . حيث تراهم يتهمون رسولهم بالإفتراء أو بالسحر لانه يريد ان يصدهم عما كان يعبد آباؤهم.

و يقول الذكر : إن آباءهم لم ينزل عليهم كتاب يـــدرسونه ، ولا بعث فيهم نذيـر (حتى يفتخروا بآبائهم الذين لم يكن لهم رسالة ولا معرفة. (

ثانيا :حجب الغرور . حيث تجدهم يكذبون بالرسالة اعتمادا على قوتهم ، في حين أن قوة الأمم الغابرة التي كانت أكثر من هؤلاء عشرات المرات لم تدفع الجزاء المتمثل في العذاب النكير.

ثالثا : حجاب الغفلة . حيث يدعوهم الرب للقيام من أجل الله ، و التفكر في رسولهم ليعرفوا دلائل الصدق فيه . فهو ليس بمجنـون و لكنه يرى عذابا شديدا فينذر به (و هذا هو دليل حماسه الكبير الذي فسره الكفار بالجنون) و هو لا يطلب أجرا إلا ما يعود بالتاليليهم ، و هذا شاهد صدق على أنه حق.

ثم إن الرب يشهد له بالصدق ، و هو على كل شيء شهيد ، فهو يقذف بالحق فيهدم أركان الباطل فلا يتجدد ولا يعود.

و يؤكد ربنا أن خسارة الضلالة تعود على صاحبها (فالانسان مجزي بضلالته شاء أم أبى) (٥٠/٤١. (

و يحذر الرب من مغبة الضلالة ، حيث لا يفوت أحد منهم من قبضة العدالة ، بل يؤخذون من مكان قريب ، فيقولون : آمنا ! و لكن هيهات لقد فات الآوان ، و هنالك حيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأتباعهم من قبل . كل ذلك بسبب أنهم كانوا في شك مريب (٥٤/٥١. (

و له الحمد و هو الحكيم الخبير

هدى من الآيات

تبدأ هذه السورة المباركة بالحمد ، و بذكر اثنين من اسماء الله ، و هما الحكيم الخبير ، ومن خصائص القرآن انه يبين آياته و عبره ، بعد التمهيد لها ببراعة الإستهلال ، وهو بدء المتكلم بالاشارة الى حديثه ، و في القرآن الحكيم نجد بيانا للموضوعات التي يفصلها السياق بعدئذ عبر ألفاظ مجملة ، مما يدل على نزول الوحي من عند الله ، اذ لا يقدر أحد على التحدث بهذا الاجمال و التعبير ، و بهذه الاحاطة غير الله.

و عند البحث عميقا في هذه السورة التي تبدا بالحمد ، نجد اشارات و تجليات لإسمي الحكيم و الخبير ، و حديثا عن جوانب من انعكاساتهما في الحياة ، و هكذا نبدأ المعارف الالهية و القرآنية كما الدين بذكر الله ، و تنتهي اليه ، و في الحديث:

"أول الدين معرفته (1) "

(1)نهج البلاغة / خ ١ -ص ٣٩

و هكذا تتركز المعرفة ثم تتسع و تعود بعدها لتتركز مرة أخرى . في البدء نتعرف على أن ربنا حميد و حكيم و خبير ، ثم نفتش في الحياة واذا بها تدلنا بما فيها من سنن و أنظمة على ذلك ، و النظرة الكلية للحياة (الفلسفة العامة) يجب ان توفر للإنسان الإجابة على السؤال التالي : ماهي السنن و الأنظمة العامة التي تسير الحياة ؟ و بتعبير آخر : ان الحكمة (الفلسفة (هي التي تبصرنا بحقيقة أنفسنا ، و ما يحيط بنا من الخلائق ، و بما تحكمها من سنن ثابتة ، و بالتالي تجعلنا قادرين على معرفة أفضل و عمل اصلح . و هذه الحكمة نجدها مفصلة في كتاب ربنا الحكيم ، و أكثر آيات الذكر تبصرنا بتعابير ظريفة يستطيع أن يستوعب مضامينها حتى الطفل الصغير ، و بشكل متكامل ، فقوله الحمد لله الحكيم الخبير يشتمل على حقائق كثيرة في الحكمة العامة ، لأنه يحدد بداية الكون و نهايته و هدفه ، و انه قائم على علم و نظام يتجليان في كل جزء و جزء منه ، لأن خالقه هو الله الذي يملك السموات و الارض حاضرا و مستقبلا مما يوجب علينا الحمد له في كل مكان و زمان.

و الخبير هو المحيط بدقائق الأمور نظريا و عمليا ، و من مصاديق خبره انه يحيط علما بكل ما يلج في الارض وما يخرج منها حتى الغازات التي تمتصها الأرض أو التي تلفضها ، يعلم الله وزنها و حجمها و طبيعتها ، كما يحيط علما بكل ما ينزل من السماء وما يعرج اليها، و ألطف ما يعرج هو النية الحسنة و العمل الصالح اللذان يرفعهما الله.

ثم يشير السياق الى أحد تجليات الحكمة الالهية ، حينما يذكرنا بأن الله عادل في جزائه للناس ، فالذي يعمل الصالحات يجازيه بالمغفرة و الرزق الكريم ، بينما يعذب الذين يعملون السوء برجز أليم.

بينات من الآيات

]بسم الله الرحمن الرحيم[

] [1]الحمد لله[

قال بعض المفسرين ان معنى الآية: يا أيها القارئ للقرآن قل الحمد لله ، و الحال أننا لا نحتاج الى تقدير كلمة " قل " لان جملة " الحمد لله " مفيدة للمعنى المطلوب ، فالحمد التام الدائم لله تعالى شئنا أم أبينا ، قلنا أم سكتنا ، عرفناأم جهلنا ، و من هو أحق بالحمد ممن خلق فرزق ، و قدر فألهم ، و صور

فأحسن.

]الذي له ما في السموات و ما في الأرض[

وما في الدنيا صورة مصغرة و محدودة مما في الآخرة ، و حين نتذكر بالآيات التي تدل على أن ربنا حميد في الدنيا نعرف انه حميد في الآخرة.

]و له الحمد في الأخرة[

و من آيات حمده حكمته و خبره .

]وهو الحكيم الخبير[

[2]و لكن ماهي تجليات هاتين الصفتين الالهيتين ؟

يحدثنا القرآن عن علم الله (خبره) أولا ، و ذلك عندما يعرفنا بإحاطته علما بكل شيء ، وعن حكمته ثانيا ، و ذلك عندما يذكرنا بجزائه العادل للخلق.

]يعلم ما يلج في الأرض و ما يخرج منها و ما ينزل من السماءو ما يعرج فيها[

فالله محيط بكل شيء خبرا ، و جاء في تفسير الآية عن علي بن ابراهيم : " يعلم ما يلج في الأرض " ما يدخل فيها " و ما يخرج منها " قال : من النبات " و ما يعرج فيها " قال : من أعمال العباد (١) و لكن الله لا يتخذ علمه وسيلة ليضاربها البشر ، بل هو رحيم بهم ، و بعلمه يرحمهم ، و اذا علم منهم ذنبا فإنه يغفره لهم.

]و هو الرحيم الغفور[

روى أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال:

"لما رأى ابراهيم ملكوت السموات و الأرض التفت فراى رجلا يزني ، فدعا عليه فمات ، ثم رأى آخر فدعا عليه فمات ، ثم رأى ثلاثة فدعا عليهم فماتوا ، فأوحى الله اليه يا إبراهيم إن دعوتك مستجابة فلا تدع على عبادي فإني لو شئت لم أخلقهم " (٢)[٣] واذ يذكرنا القرآن باسماء ربنا الحسنى - وانه حكيم خبير و عليم - فلكي ينعكس ذلك على وعينا و سلوكنا . أوليس ربنا حكيما ، إذا لابد من يوم الجزاء ، و إنما يكفر البعض بالساعة تهربا من حقيقة الجزاء.

]وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة[

وهكذا بهذه البساطة أرادوا التملص من ثقل المسؤولية ، بيد أن ربنا الجبار قال لهم كلمته التي لا تبديل لها:

(1)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٣١٤

(2)المصدر / ج ١ - ص 732

]بلى و ربي لتأتينكم[

و حين تعرضون أمام ربكم تعرفون أن كتاب ربكم قد أحتوى كل صغيرة و كبيرة من اعمالكم.

]عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات و لا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين][٤] و يبين القرآن الهدف من الساعة ، و بالتالي الهدف من التذكرة بالرقابة الالهية على العباد ، الا وهو إثبات تحقيق العدل الشامل ، الأمر الذي يستوجب الحساب الحق .. الذي لا يغفل عن أي شيء يصدر من البشر مهما كان صغيرا.

]ليجزي الذين ءامنوا و عملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة و رزق كريم]فما دامت مسيرة المؤمن العامة هي الصلاح ، فإن ما يشوبها من ذنوب بسبب غفلته ، يفتديها الله بغفرانه ، كما يثيبه على إيمانه و عمله الصالح بالوان الرزق الكريم ، الذي يصفه الحديث بما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر.

[5]موقف المؤمن من آيات ربه هو التسليم الذي يسمو به الى درجة رؤية الحق مباشرة ، بينما موقف الكافر الرفض ، و لكن كيف يرفض البشر المزود بالعقل الحقيقة التـــي تتـرى عليها شواهد لا تحصى ؟ أوتقدر العين أن تنزوي عن أشعة الشمس بسهولة ؟!

كلا .. كذلك ليس من السهل ان يرفض الانسان الحقائق الكبرى التي يذكربها الوحي ، كحقيقة المسؤولية إلا بصعوبات بالغة ، لذلك فهم:

أولا : يسعون سعيا حثيثا - و ببالغ الجهد - من أجل إثبات كفرهم الباطل ، و إقامة الأدلة على ضلالتهم.

ثانيا :هدفهم من هذا السعي ليس إقناع أحد بالحقيقة ، و إنما إسكات المؤمنين و إعجازهم بإثارة الشبهات حول الحقائق ، كلما ردت لهم شبهة منها أعدوا شبهة جديدة مكانها ، فهم لا يهدفون الإقتناع بحديث الطرف الآخر ، و لا إقناعه لانهم على باطل ، و إنما يهدفونان يخصموه موقتا ، لكي لا تقتحم أدلة الحق رحاب قلوبهم.

]و الذين سعوا في ءاياتنا معاجزين[

و آيات الله هي شواهـد صدق رسالاتـــه ، و التعبير بمعـاجزيـن بالـغ الدقـة حيث الطرف الثـاني (وهم المؤمنون) يحاولون اقناعهم أيضا ، وبالتالي محاولة إعجازهم (ايصالهم الى حد العجز عن الادلاء بحجـة جديدة) فكل طرف يحاول إعجاز الطرف الثاني ، و هذه الكلمة توضح استراتيجية الإعلام عند الكفار القائمة فقط على أساس إسكات الخصم ، و طمس معالم الحق أمام عينيه.

]أولئك لهم عذاب من رجز أليم[

الرجز -كما قالوا - أشد العذاب ، و لعله يشير الى ما يقابل الكريم في الآية السابقة ، و على هذا يكون معناه عذابا أليما فيه الذل و الهوان ، أوليسوا قد تكبروا ، فهم يستحقون الصغار و الرجز.

[6]و من الناس من يعرج به اليقين درجة يرى الحق واضحا لا ريب فيه ،أولئك هم أولوا العلم .

]و يرى الذين أوتوا العلم[

و العلم - هنا - ليس مجرد المعلومات التي يختزنها الذهن البشري ، ولا الألفاظ المتشابهة التي تتزاحم في ذاكرة المعاجزين من أدعياء العلم ، و إنما هو ذلك النور الإلهي الذي يشرق على القلب فيجد الحقائق وجدانا ، و يعيها وعي دراية لا وعي رواية ، حتى يقول أمثلهم هدى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

"و الله لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا "[الذي أنزل إليك من ربك هو الحق]

فهم يعلمون الحق ، و يرون ما أنزل الى الرسول ، فيعرفون أن ذلك الحق التام الذي لا يشوبه هوى ، ولا يخالطه باطل أو جهل هو هذا الوحي المنزل.

]و يهدي الى صراط العزيز الحميد[

و الذي يؤتى العلم هو الذي يحيط به ، فيستطيع فهم القرآن ، و التمييز بين الحق و الباطل ، بين الدساتير و المناهج الحديثة المضلة و بين الآيات القرآنية ، كما ميز سحرة فرعون بين حبالهم و عصيهم التي يخيل للناس أنها تسعى و بين الآية الحقيقية التي جاء بهانبي الله موسى (ع. (

و لعل اختيار اسمي العزيز الحميد ، من بين اسماء الله الحسنى ، جاء انسجاما مع الجو العام للسورة ، التي هي تجليات اسم الحمد ، و لأن الانسان يتطلع الى العزة و حميد الخصال ، فلما رأى اولوا العلم الوحي عرفوا أنه يحقق ذلك الطموح.

و يبدو أن الآيات الثلاث تبين ثلاثة نماذج من الناس : المسلمون أولا ثم الكفار ثم الصديقون.

اعملوا آل داود شكرا

هدى من الآيات

استلهاما من اسمي الحميد العزيز لربنا عز وجل ، و انطلاقا من الحديث عن البعث و النشور ، و بيانا لبعض الشبهات التي يبثها المشركون انكارا للمعاد يحدثنا هذا الدرس - من بدايته - عن استنكارهم الظاهر لحقيقة النشور بعد الموت و التمزق.

إن الكثير من الذين ينكرون الحقائق إنما ينكرونها لأنها أكبر من افقهم و تفكيرهم الضيقين ، و هذه من مشاكل البشر المعقدة ، إنهم يكفرون بكل مالم يصل اليه علمهم و عقلهم ، و لكن الله يضرب لهؤلاء فكرة البعث فيقول : صحيح ان ذلك من المستحيلات بالقياس الى القدرة البشرية ، و لكنه ممكن عند الله الذي يجمع الزمان و الأعضاء ليعيد الخلق من جديد . و حتى يكون هذا الحديث مقبولا من الناحية المنطقية و الفطرية ، يدعو ربنا هؤلاء الى التفكر في الآيات من حولهم ، لأنها من مظاهر القدرة لربنا الحميد.

و لعل لهذا التأكيد المتكرر في القرآن على ضرورة التفكر في آيات الله فائدة مهمة هي : إرساء قاعدة صلبة للبحث العلمي الرصين عند الانسان الذي اعتاد - و من اول يوم عملت حواسه - على هذه الآيات ، و ألفها حتى أصبحت لا تثير انتباهه ، لكنه لو نظر إليها و كأنها جديدة و بقلب متفتح ، و عقل منير ، لازداد علما ، و توسع أفقه ، مما يجعله أقدر على استيعاب الحقائق و تفهمها.

ثم يضرب القرآن لنا مثلا من حياة داود و ابنه سليمان على نبينا و آله و عليهما السلام حيث ان قصصهما تجليات لاسمي العزيز الحميد.

فقد بلغ داود من الملك و السيطرة مبلغا عظيما ، حتى شملت هيمنته الطبيعة فكانت الجبال و الطيور تسبح معه ، و الحديد طوع يده يصوغه كيف يشاء ، اما سليمان فقد ورث ملك والده ، و زاده الله عليه ملكا ، و هذه القصص و الأمثال تفتح أمام البشر آفاقا ، و تدعوهمالى السير فيها و الوصول الى أبعادها ، فقصة داود توحي بإمكانية تسخير الطير و الحـديـد لخدمة الحضارة الانسانية ، و قصة سليمان تشير الى إمكانية الاستفادة من الريـح.

بينات من الآيات

] [7]و قال الذين كفروا[

و هم يستهزؤون ، و يحاولون الانتقاص من الرسول و الرسالة.

]هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق[

أي تفرقت أعضاؤكم ، و تمزقت بددا.

]إنكم لفي خلق جديد[

[8]ثم يتساءلون بحيرتهم.

]افترى على الله كذبا[

هل ما يدعيه افتراء على الله ؟! ثم عادوا الى وجدانهم فعرفوا أن الرسول لا يمكن ان يفتري على ربه الكذب ، و هو الصادق الأمين ، و قد بين بوضوح العقاب الذي ينتظر الذين يفترون على الله الكذب ، ثم إنه أول المصدقين بالبعث ، و العاملين بما يستوجبه هذا التصديق . ألا يرون كيف يكاد يشقي نفسه بالعبادة حتى نزلت عليه الآية : " طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى " ؟! لذلك تراهم عادوا و أكدوا انه ليس مفتريا ، ثم إنهم بكفرهم قالوا فيه قولا كبيرا ، لأنهم كانوا من المعاجزين الذين يعملون بجهدهم على مقاومة القرآن ، قالوا:

]أم به جنة[

و هي الجنون ، و يجيب القرآن على هذه التساؤلات بأن المشكلة ليست في الحقائق التي يبينها الرسول ، ولا في اسلوبه ، حتى يتهم بالكذب تارة ، و بالجنون أخرى ، إنما المشكلة في الكفار أنفسهم ، و مشكلتهم هي ضيق الأفق فلا يستوعبون النشور بعد الموت ، و السبب كفرهم و عدم اتباعهم المنهج السليم الذي يقودهم إلى الحقائق.

]بل الذين لا يؤمنون بالأخرة في العذاب و الضلال البعيد]قالوا : إن العذاب هنا يقابل افتراءهم على رسولهم بالكذب ، بينما الضلال يقابل نسبة الجنون عليه . (١)(١) الرازي - التفسير الكبير.

و يبدو لي أن السياق يؤكد على أن السبب في كفر هؤلاء بالرسول يكمن في كفرهم بالآخرة الذي يجعلهم يواجهون الحقائق دائما فيعيشون العذاب . أرأيت كيف يعاني من يعارض حكومة قاهرة ، كيف يحيط به العذاب ، كذلك الذين لا يؤمنون بالآخرة يضطرون مخالفة حقائق الخليقة.

و من جهة ثانية أنهم يعيشون في حالة من الضلال البعيد جدا عن الهدى ، و آية ذلك أنهم ينسبون من يهيديهم الى الحقائق والى سبيل سعادتهم الى الجنون ، فهل تترقب لمثل هؤلاء هدى ؟

و نستوحي من الآية انه لا يضل الانسان عن أهدافه و عن الحقائق ، إلا عندما يكون الطريق الذي يختاره خاطئا ، و هؤلاء حين كفروا بالبعث وقعوا في الإنحراف الكبير.

[9]و حتى يتسع أفقهم ، و يهتدوا لصحة الحقائق ، و ما يقوله الرسول ، يدعوهم القرآن للنظر في آيات الكون العظيمة و التفكر فيها ، لأنها علامات و شواهد على قدرة الله . كما أنه ينذرهم بأن استرسالهم في الضلالة قد يعرضهم لعذاب شامل من نوع عذاب القرون الغابرة ، كان يخسف الله بهم الارض أو يسقط عليهم من السماء شهبا.

]أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء و الأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء]و يبين لنا ربنا حقيقة هامة هي : إن الكون المحيط بنا قائم بالله ، و تهيمن عليه و تدبر شؤونه قدرته القاهرة ، كما تشير الآية الى بعض الحقائق العلمية ، فقد جعل الله الارض في موقع معين ، و ضمن نظام دقيق بحيث تحافظ على اتزانها ، و تمكنالخلق من العيش عليها ، و أنشأ حجابا واقيا بين الأرض و السماء ، هو الغلاف الجوي الذي يمنع سقوط النيازك و الشهب من السماء على الارض.

ولكن من الذي يكشف هذا النظام المحكم وما وراءه من عظمة الرب ؟

]إن في ذلك لاية لكل عبد منيب[

إن الآيات وحدها لا تهدي الانسان الى الحقيقة كلها ، فقد يؤمن بها و يتبعها الفرد فتأخذ بيده الى الهدف ، و قد يراها و لكنه يكفربخلفياتها وما تشير اليه فلا تنفعه ، و القرآن يقول بأن الآيات المبثوثة في الكون تهدي الى الحقيقة ، و لكن على شرط ان يكون المتفكر فيها عبدا مسلما لله ، فالعبودية و الإنابة اذن شرطان للاستفادة من الآيات.

إن من مشاكل الانسان انه حينما يسير في ركاب العلم ، و تنكشف له الحقائق ، و تتضح أمامـــه الألغاز المهمة في الحياة ، فإنه لا ينظر الى خلفياتها إنما ينظر اليها بذاتها ، فهو حينما يكتشف مكونات الذرة وهي النواة و الإلكترون و البروتون ، ثم يجد أن كل عناصر الحياة المادية و مكوناتها ، تعتمد على نفس النظام وهو الذرة ، مع اختلاف التركيب ، لا يهتدي من خلال ذلك الى حقيقة التوحيد ، و ان اليد التي خلقت الذرة هي التي خلقت المجرة.

و فكرة أخيرة نستوحيها من الآية الكريمة هي : إننا عندما نتعمق في فهمنا للآية نجد أن القرآن يربط بين فهم الحياة و تزكية النفس ، فكأن الذين لا يتصفون بالإنابة الى ربهم لا يفهمون الحياة فهما حقيقيا.

[10]و كما أن لاسماء الله تجليات في الطبيعة ، فإن لها تجليات أخرى في تاريخ البشر ، و لعل هذه هي علاقة السياق بين الحديث عن الطبيعة و بيان جانبمن قصة داود و سليمان عليهما السلام.

و هناك صلة أخرى بين الموضوعين في السياق هي : إن الآية السابقة تنذر الكفار بينما تبشر هذه الآية المؤمنين من خلال قصة داود الذي آتاه ربنا فضلا حين أناب إليه.

]و لقد ءاتينا داود منا فضلا[

و هذا الفضل مظهر لاسم الحمد الإلهي ، حيث خص الله نبيه داود بأمور من دون الآخرين ، و كانت هذه الأمور من أركان و خصائص الحضارة التي بناها (ع. (

قال تعالى:

]يا جبال أوبي معه و الطير [

فكلاهما كان خاضعا لداود ، و سخر له.

]و ألنا له الحديد[

و كان لتسخير الحديد هدف يشير له القرآن في الآية اللاحقة:

] [11]أن اعمل سابغات وقدر في السرد[

لقد أمر الله داود (ع) بصناعة الدروع السابغة (أي الواسعة) حتى يلبسها المقاتل من غير تعب ، كما أمره بالاتقان في حياكتها ، حتى تكون حلقاتها منتظمة و متساوية تؤدي كل واحدة دورها المحدد ،و لعل الآية تشير إلى ضرورة الإتقان في العمل ، ولا سيما في الصناعة ، و لكن الصناعة المتقنة كأي تقدم حضاري أخر يجب أن تكون بهدف حكيم هو العمل الصالح.

]و اعملوا صالحا إني بما تعملون بصير[

و نستوحي من الآية أن الله الذي سخر لداود كل هذه الأمور ، لم يرتض منه أن تكون بديلا عن السعي و العمل الشخصي ، لأن قيمة الانسان تكمن في سعيه و عمله.

و في الحديث أن أمير المؤمنين (ع) قال:

"أوحـــى الله عز وجل الى داود (ع) انك نعم العبد ، لو لا انك تأكل من بيت المال ، ولا تعمل بيدك شيئا ، قال : فبكى داود (ع) أربعين صباحا ، فأوحى الله عز وجل إلى الحديد أن لن لعبدي داود ، فألان الله عز وجل له الحديد ، فكان يعمل في كل يوم درعا فيبيعها بألف درهم ، فعمل ثلاثمائة و ستين درعا ، فباعها بثلاثمائة و ستين الف و استغنى عن بيت المال " (١)كما نستوحي أن شكر نعم الله و حمده عليها يكون بالإستفادة منها في سبيل الخير و الصلاح.

[12]ثم يضرب الله لنا مثلا آخر من حياة نبيه سليمان (ع) فيقول:

]و لسليمان الريح غدوها شهر و رواحها شهر[

قال علي بن ابراهيم : " كانت الريح تحمل كرسي سليمان فتسير به في الغداة مسيرة شهر و بالعشي مسيرة شهر " (٢)و اذا عرفنا ان مسيرة الشهر تضاهي (٧٢٠) كيلو متر نعرف ان السرعة تقترب(١) نور الثقلين / ج ٤ - ص ٣١٨

(2)المصدر / ص ٣١٨

من سرعة الطائرة اليوم خلال الساعة الواحدة.

]و أسلنا له عين القطر[

يعني الرصاص و النحاس.

]و من الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير]و تدلنا هذه الآية على أمرين :

الأول : إن الجن ليسوا كما تزعم الأساطير أقوى من البشر ، بل الإنسان قادر على تسخيرهم بإذن الله.

الثاني : إنه يمكن للانسان أن يبلغ من التطور و التكامل الصناعي و المعنوي الى درجة يسخر الارواح - كالجن - في صالحه.

[13]و يبين لنا الله جانبا من أدوار الجن في حضارة سليمان (ع) اذ يقول:

]يعملون له ما يشاء من محاريب[

و هي أماكن الصلاة التي تتقدم بيت العبادة.

]و تماثيل[

أي المجسمات التي تماثل الخلق الطبيعي في ظاهرها.

]و جفان كالجواب[

و الجفان الأواني التي يقدم فيها الطعام ، وقد وصفها الله لعظمتها و سعتها بالحفـــر أو الأحواض ، لأن سليمان ما كان يقدر على إطعام جيشه في أوان صغيرة لكثرتهم . (١)[و قدور راسيات[

و الراسية هي الثابتة ، مما يدل على ان لسليمان قدورا ثابتة ، و أخرى متحركة كان يحتاجها عند حركته و تنقله.

]اعملوا ءال داوود شكرا و قليل من عبادي الشكور[

إن أهم عبرة في هذه الآيات الكريمة هي ضرورة الشكر العملي ، فقبل أن يكون بيد الانسان الفضل و الخير الالهي ربما يكون مقبولا منه الشكر القولي وحده ، أما بعده فيجب ان يتحول هذا الشكر الى برنامج عملي و نعني بذلك ثلاثة أمور :

الاول : العمل الصالح ، كما قال ربنا لنبيه داود : " و اعملوا صالحا " فعلى سبيل المثال يكون الشكر العملي للمال الانفاق في سبيل الله ، و التصدق على الفقراء ، و إقامة المشاريع الاسلامية ، و بالتالي استخدام هذه النعمة في أهدافها المحددة.

الثاني : الإبقاء و المحافظة على العوامل التي سببت الفضل و النعمة ، فالعالم إنما أصبح عالما بسبب الدراسة و القراءة و التفكير و العمل ، فشكر العلم هو المحافظة على هذه العوامل ، لأنها تحفظ العلم و تزيده.

الثالث : الوصول بالنعمة الى غايتها و هدفها ، و هدف كل شيء في الحياة(١) راجع المجمع في تفسير الآية.

وسيلة لهدف أكبر حتى يتصل الانسان بهدفه الأعظم وهو الطاعة و التسليم لله ، فالمجاهد يقرأ حتى يتكلم ، و يتكلم مع الناس لكي يهديهم ، و يهديهم حتى نتكون مجموعة رسالية ، و تتكون هذه المجموعة من أجل العمل السياسي و العسكري و الثقافي الشامل ، و ذلك يهدف إسقاطالنظام الطاغوتي الفاسد ، لكي يقوم بدله حكم الله ، الذي يدافع عن المستضعفين ، و من ثم يقيم حضارة إسلامية متكاملة ، و هكذا .. فالشكر العملي إذن أن ترقى من هدف لآخر أسمى منه.

صورتان لحضارتين

هدى من الآيات

يبدو أن سورة سبأ تتمحور حول علاقة الانسان بالحضارة ، حيث تعرض آياتها نموذجين منها ، يتمثل الأول في قصة آل داود الذين اتخذوا الملك وسيلة لعمارة الأرض ، و اصلاح الناس ، و شكر الله ، و يتمثل الثاني في قصة سبا و قرى أخرى ، حيث لم تنفعهم الحضارة الزراعية التي أنعم الله بها عليهم ، انما ازدادوا كفرا بدل الشكر ، و توغلا في الجاهلية.

ومن اختلاف هاتين القصتين نعرف : أن السلطة - كما القوة - ليست شيئا مكروها أو ممدوحا بذاتها عند الاسلام ، او في نظر العقل ، انما موقف الانسان منها هو الذي يضفي عليها صفة الخير أو الشر ، فاذا اتخذها طريقا للخير كانت خيرا وإلا فشر.

كما نستفيد من واقع القصتين أن هناك أجلين لحياة الانسان و لما يعطيه ربه منالنعم:

الاول : هو الأجل المسمى المحدد عند الله ، و هو العمر الطبيعي للانسان.

الثاني :الأجل المعلق و الذي يستنزله الانسان بعمله ، فيطول اذا اكان العمل خيرا كالصدقة و الاحسان ، و يقصر اذا كان شرا كقطيعة الرحم.

فبالنسبة للحضارات لا تبقى للأبد لأن هناك سنة الهية عليا تقضي بفناء الانسان ، و بوار ملكه بعد ان ينقضي أجله المسمى ، قال ربنا سبحانه : " و تلك الايام نداولها بين الناس " و قال : " هو الذي جعلكم خلائف في الارض. "

و هكذا نجد ان الحضارات تسير ضمن دورة معينة ، فعادة ما يعقب نموها و ازدهارها التدهور و الانحطاط ، و الذي يمكننا ان نسميه بالأجل الطبيعي للحضارة.

و لكن الناس كثيرا ما يستعجلون هذه السنة بعصيانهم و كفرهم ، الأمر الذي يسبب موت كثير من الحضارات في ريعان شبابها ، فقد كان من المتوقع لالمانيا قبل الحرب العالمية ان تصير سيدة اوربا صناعيا و حضاريا ، و لكنها ماتت في ايام شبابها بسبب طيش هتلر ، و مبادئ الحزب النازي ، و بسبب الثقافة العنصرية التي انتشرت عند الشعب الألمانـي فاستجاب لتلـك القيادة الرعناء . فعمر الحضارات اذن طويل لو لا اخطاء اصحابها.

ان قصة سليمان و والده (ع) صورة للحضارة التي امتدت فترة من الزمن ، ثم انتهت بصورة طبيعية ، بينما قصة سبأ الذي انتهت حضارتهم بسيل العرم صورة مناقضة تجسد النهاية غير الطبيعية . فداود و سليمان (ع (ضربا مثالا للحضارة البشرية النموذجية ، و لما تم المثلانتهت حضارتهم ، فهي بدأت من نشأتها حتى صارت شبابا ثم هرمت و ماتت ، لكن حضارة سبأ ماتت في شبابها.

بينات من الآيات

[14]أبقى الله نبيه سليمان (ع) منتصبا على عصاته بعد الموت ، و ذلك بهدف فضيحة الجن الذين كانوا يدعون بأنهم يعلمون الغيب ، و لإبطال الاعتقاد السائد لدى قسم من الناس بانهم كذلك ، و الذي تحول الى نمط من الثقافة الجاهلية بل عبادة ، و لعل لهذه الحادثة أثرها الكبير في القضاء على الجانب الأكبر من عبادة الجن الشائعة في التاريخ.

]فلما قضينا عليه الموت[

و لعل القضاء هنا هو اجراء القدر الأول.

]ما دلهم على موته إلا دابة الأرض[

وهي الأرضة.

]تأكل منسأته[

اي العصا التي يتوكأ عليها ، و الاعتماد على العصا ليس دليلا على العاهة أو المرض ، لان موسى (ع) المعروف ببطشه و قوته كان يتوكأ عليها أيضا : " قال هي عصاي أتوكؤ عليها و أهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى " (١)و حينما أكلت الأرضة العصا التي يعتمد عليها سليمان خر إلى الأرض.

]فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين](١) طه / ١٨

و لهذه الآية تفسيران:

الأول :ان معناها بعد ان خر جسد سليمان (ع) الى الارض عرفت الجن بموته الذي مضى عليه عام واحد ، فتمنوا علم الغيب ، اذ لو أوتوا ذلك لما بقوا يعملون هذه المدة ، و يشير هذا الأمر الى ان الجن كانوا مسخرين بالقوة ، و ما كانوا يقدرون على التمرد ضد سليمانفي حياته.

الثاني : انه لما خر جسد سليمان الى الأرض ، و كان الجن قد عملوا له سنة كاملة ، دون علم بموته ، افتضح أمرهم عند الناس ، و انكشف للجميع أنهم لا يعلمون الغيب ، اذ لو كانوا كذلك لما بقوا يعملون شيئا لا يريدونه ، و لعلنا نستفيد من آخر الآية : " مالبثوا في العذاب المهين " ان خضوع الانسان الى حاكم لا يرتضيه سواء كان الحاكم صالحا كسليمان ، أو طالحا كفرعون ، أو حتى قيام الانسان بعمل لا يقتنع به ، من أشد الأمور ايلاما و عذابا له ، أو ربما كان هؤلاء الجن من العصاة فأراد سليمان عذابهم بالأعمالالشاقة.

قال الامام الباقر عليه السلام:

"ان سليمان بن داود - عليهما السلام - قال ذات يوم لاصحابه : ان الله تعالى وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي ، سخر لي الريح ، و الانس ، و الجن ، و الطير ، و الوحوش ، و علمني منطق الطير ، و اتاني من كل شيء ، و مع جميع ما أوتيت من الملك ما تم ليسرور يوم الى الليل ، وقد أحببت أن أدخل قصري في غد ، فأصعد أعلاه و أنظر الى ممالكي ، و لا تأذنوا لأحد على ما ينغص علي يومي ، قالوا : نعم ، فلما كان من الغد أخذ عصاه بيده ، و صعد إلى أعلى موضع من قصره ، و وقف متكئا على عصاه ينظر الى ممالكه سرورا بما أعطي ، اذ نظر الى شاب حسن الوجه و اللباس قد خرج عليه من بعض زوايا قصره ، فلما بصر بهسليمان (ع) قال له : من أدخلك الى هذا القصر ، و قد أردت أن أخلو فيه اليوم فبإذن من دخلت ؟! قال الشاب : ادخلني هذا القصر ربه ، و بإذنه دخلت ، قال : ربه احق به مني فمن أنت ؟ قال : انا ملك الموت ، قال : وفيما جئت ؟ قال : جئت لاقبض روحك ، قال : امض لما أمرت به ، فهذا يوم سروري ، و أبى الله عز وجل ان يكون لي سرور دون لقائه ، فقبض ملك الموت روحه و هو متكئ على عصاه ، فبقى سليمان متكئا على عصاه و هو ميت ما شاء الله ، و الناس ينظرون اليه وهم يقدرون انه حي ، فافتتنوا فيه ، و اختلفوا ، فمنهم من قال : ان سليمان قد بقى متكئا على عصاه هذه الأيام الكثيرة ولم يتعب ولم ينم ، ولم يأكل ، ولم يشرب ، انه لربنا الذي يجب علينا ان نعبده ، و قال قوم : ان سليمان ساحر ، و انه يرينا انه وقف متكئ على عصاه ، يسحر أعيننا و ليس كذلك ، فقال المؤمنون : ان سليمان هو عبد الله ونبيه ، يدبر الله أمره بما يشاء ، فلما اختلفوا بعث الله عز وجل دابة الأرض ، فدبت في عصاه ، فلما أكلت جوفها انكسرت العصا ، و خر سليمان من قصره على وجهه ، فشكرت الجن للأرضة صنيعها ، فلاجل ذلك لا توجد الارضة في مكان الا وعندها ماء و طين ، و ذلك قول الله عز وجل : " فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين " " (١)[١٥] ثم يضرب القرآن مثلا آخر وذلك من تاريخ اليمن ، كشاهد على الحضارة التي تموت فجأة وقبل أجلها الطبيعي ، و سبأ التي يذكرنا بها القرآن قبيلة عاشت على الطـــرف الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ، و كانت تتقلب في نعماء الله حتى بطرت معيشتها ، فتكبرت عن الشكر له ، و لم ترع العوامل المسببة للخير ، فدمر الله سدها الذي تقوم عليه حضارتها الزراعية ، فانهارت و بادت ، و تبددت القبيلة حتى انقرض كيانها ، فضرب به المثل العربي : (تفرقوا أيادي سبأ. (

(1)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٣٢٤

]لقد كان لسبأ في مسكنهم ءاية جنتان عن يمين و شمال]و كان ينبغي لهؤلاء ان لا يقفوا عند الآية ، انما يستدلوا بها على الحقيقة التي تهدي اليها ، و هي كما تبين آخر الآية معرفة رب النعم وهو الله ، و من ثم شكره لتزداد النعمة و تدوم ، و الملاحظ ان الله استخدم للتعبير عما فيه سبأ من النعيم كلمة " مساكن " ولم يقل بيوت ، و لعل المسكن هو البيت الذي يأوي اليه الانسان مطمئنا مرتاحا ساكنا ، بينما البيت هو محل المبيت ، و ربما أتاه الانسان قلقا حزينا.

و قوله عز وجل : " جنتان عن يمين و شمال " يكشف عن الطبيعة الجغرافية ، ذلك لانه يفهم من هذا التعبير وجود نهر يقسم البلاد الى شطرين ، و لعل هذا النهر يتصل بالسد حيث تفرغ المياه فيه ليحملها الى الجنان التي على جانبيه.

و كان من المفروض ان تستفيد سبا مما تنتجه الأرض ، عارفين بأنه مــن عند الله ، ثم يشكرونه.

]كلوا من رزق ربكم و اشكروا له[

و قد أمر الله آل داود بذلك ، فلما استجابوا و شكروا استمرت حضارتهم ، حتى وافاها أجلها الطبيعي بموت سليمان ، أما هؤلاء فلم يشكروه ، مما أدى الى اندحار حضارتهم.

و المجتمع حينما تكون مسيرته العامة الشكر لله مباشرة ، أو الشكر للعباد قربة له ، فانه يصبح مجتمعا فاضلا خيرا ، أو كما يعبر القرآن:

]بلدة طيبة[

لانه يسير في ركاب الحق ، اما بالنسبة للذنوب و الأخطاء الجانبية فانها لا تقضيعلـــى الحضارات ، بالذات إذا لم يكن مصدرها التحدي و العناد ، انما يصلحها الله و يغفرهـا.

]و رب غفور[

[16]كانت هذه دعوة الله لهم ولا تزال تشمل البشرية جيلا بعد جيل ، لكنهم رفضوها.

]فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم[

و الفاء تفيد العطف و التعقيب بلا فاصل ، فالآية اذن تشير الى سرعة التكذيب ، كما تشير الى سرعة الجزاء ، و هذا يدل على ان حضارتهم لم تبق كثيرا ، و ربما دلت على ان حضارتهم مهما طالت فإن الله يختصر المسافة بين التكذيب و الجزاء ، فمهما عاشوا فهو قليل عند الله حقير.

يقول علي بن ابراهيم : " وكانت لهم عن يمين و شمال ، عن مسيرة عشرة أيام فيها لا يقع عليه الشمس من التفافها ، فلما عملوا المعاصي ، و عتوا عن أمر ربهم ، و نهاهم الصالحون فلم ينتهوا ، بعث الله - عز و جل - على ذلك السد الجرذ ، و هي الفأرة الكبيرة ،و كانت تقلع الصخرة التي لا يستقلها الرجال ، و ترمي بها ، فلما رأى ذلك قوم منهم هربوا و تركوا البلاد ، فما زال الجرذ تقلع الحجر حتى خرب ذلك السد ، فلم يشعروا حتى غشيهم السيل ، و خرب بلادهم ، و قلع اشجارهم " (١)[و بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط و أثل و شيء من سدر قليل](١) المصدر / ج ٤ - ص ٣٢٧

و قد اختلف المفسرون في معنى الخمط و الاثل ، الا انهما كما يبدو شجرتان بريتان شوكيتان ، قد تكون احداهما الأراك و الأخرى السمر ، و كذلك السدر من الاشجار التي تقاوم الجفاف.

[17]و يبين الله السبب الرئيسي الذي يقف خلف هذه النهاية المدمرة الا وهو الكفران بالنعمة.

]ذلك جزيناهم بما كفروا[

بالله و بأنعمه.

]وهل نجازي إلا الكفور[

و من هذا المقطع نستفيد فكرتين : فمن جانب هناك إشارة الى أن الجزاء يشمل كل كفور ، دون ان يختص بهذه الجماعة التي يذكرها القرآن ، و من جانب آخر يوضح تعبير " كفور " بأن الرب يعطي فرصة للعباد عند الخطيئة ، المرة بعد الأخرى رحمة بهم ، فهو لايأخذهم بالعذاب في بادئ الأمر ، انما بعد الإصرار على الذنب ، و صيغة المبالغة " كفور " تدل على تكرار الكفر بالنعمة.

هكذا بادت الحضارة الزراعية التي انتشرت ربوعها على اطراف شبه الجزيرة ، التي لم يكن الرجل يحتاج وهو يمشي بين اغصانها المتدلية باصناف الثمر لكي يقطف منها ما يشاء ، الا للقليل من الجهد ، و حلت محلها حياة متخلفة.

[18]ثم ينتقل بنا السياق الى تجربة حضارية ثالثة ، من واقع القرى التي امتدت من اليمن حتى مكة و المدينة ، والتي تميزت بالظهور وهو الارتفاع أو القوة أو الشهرة ، و بالنظام و الامتداد ، و اخيرا بالامن الذي يعتبر من أعظم نعم الله علىالانسان.

]و جعلنا بينهم[

اي بين أهل سبأ الذين مر الحديث عنهم في الآيات السابقة.

]و بين القرى التي باركنا فيها[

وهي مكة و ما حولها.

]قرى ظاهرة و قدرنا فيها السير[

و لعل هذه اشارة الى النظام ، حيث جعل الله السير فيها مقدورا ، و يعتبر ذلك ميزة لحضارة هذه القرى ، لأنها كانت تعيش في منطقة جبلية يصعب السير فيها ، و ربما كانت جبالها و وديانها تبتلع القوافل الضائعة.

]سيروا فيها ليالي و أياما ءامنين[

و هذه العبارة توحي لنا بمعنيين : احدهما : سعة الحضارة ، إذ يسير فيها الإنسان أياما و ليالي ، فهي إذن ممتدة شاسعة المساحة ، و ثانيهما :الأمن الذي كانت تتمتع به هذه القرى ، و الجدير بالذكر أن الأمن في ذلك الزمان وفي هذه المنطقة التي يحدثنا عنها القرآن بالذات كان أمرا نادرا بسبب عصابات قطاع الطرق ، و الوحوش.

[19]لكن هؤلاء رفضوا هذه الخيرات و المعطيات ، التي تمخضت عنها الحضارة الجديدة ، و بدأوا يحنون الى الماضي ، حيث القبلية و التفرقة الحاكمة ، و حيث الروح الفردية المستبدة.

]فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا[

و لعلهم في هذا الجانب و بهذه الروح يشبهون بني اسرائيل ، حيث تقدمت بهم الحضارة حتى صار أكلهم يتنزل عليهم من السماء منا و سلوى ، لكنهم رفضوه ، و أخذهم الحنين الى القديم من البقل و العدس و الفوم ، فذمهم الله على هذه النفسية السلبية المتخلفة وقال : " اتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم و ضربت عليهم الذلة و المسكنة و باؤوا بغضب من الله " (١) و يصف الله هذه الروحية بانها صورة للظلم الذي يعود على صاحبه بالضرر و الفساد.

]و ظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث[

و مضربا للمثل في خاتمة السوء ، و تهدينا الآية الى نهاية هؤلاء ، حيث تحولوا من الواقع المتحضر القائم على الأرض ، الى مجرد احدوثة على ألسنة الناس ، و القرآن الكريم يشير الى ان حضارتهم انما تبددت بسبب الروح الفردية التي نخرت كيانها فيقول:

]و مزقناهم كل ممزق[

حيث تحولت النزعة الانانية الى واقعها المر ، ولا ريب ان الحضارة تولد بالجهود الجماعية المنظمة ، حيث تتركز الجهود ، و حين تنعدم الروح الجماعية ، و التفكير المشترك ، و السعي الموحد ، تؤول الى الدمار.

و في تفسير الآية عن الامام الصادق (ع) قال:

"هؤلاء قوم كانت لهم قرى متصلة ، ينظر بعضهم الى بعض ، و انهار جارية ، و أموال ظاهرة ، فكفروا بنعم الله عز وجل ، و غيروا ما بأنفسهم ، ففرق قراهم ، و خرب ديارهم ، و اذهب بأموالهم " (٢)(١) البقرة / ٦١

(2)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٣٢٩

و قصص هذه الحضارات الأربع تنطوي على كثير من الدروس و العبر التي تنفع البشرية في مسيرتها

الحضارية الصاعدة ، و البشرية أحوج ما تكون و هي تنشد الرقي ان تدرس تجارب الحضارات الأخرى ، و بالذات الماضية منها ، لأنها مرت بدورة حضارية كاملة.

]إن في ذلك لأيات لكل صبار شكور[

انها ليست قصصا للتسلية و اللهو ، بل تحمل مشاهدها الدروس و العبر ، و حتى يستوعب الانسان الفرد أو الامة ذلك عقليا و أهم منه عمليا لابد ان تتوفر فيه صفات معينة : أبرزها الصبر الدائم ، و الشكر الكثير ، لأن الصبر آية سكينة النفس ، و حصانة العقل ، و بعد النظر ، و معرفة عواقب الأمور ، و كل تلك الصفات ضرورية لوعي الحقائق ، و معرفة غيب الاحداث ، و ما ورائيات الظواهر التاريخية.

أما الشكر فانه دليل العلم ، فالجاهل لا يرى أسبابا للنعم ، و لا يفهم ان لكل ظاهرة حادثة عوامل ، أوجدت بها ، و تستمر معها ، و بالتالي لا يبلغ الى معرفة من أنعم عليه فلا يشكره ، هكذا تتصل صفة الشكر و الصبر بعالم المعرفة ، و هكذا تزيد المعرفة بالشكر والصبر.

هذا من جهة ، و من جهة أخرى :ان عبرة هذه القصص هي الشكر و الصبر.

فالقصص الأربع من حضارتي داود و سليمان ، و حضارتي سبأ و القرى التي امتدت منها الى مكة المكرمة ، تلهمنا درس الصبر و الشكر ، فسليمان و داود (ع) انما تقدمت حضارتهما ، و استقامت الى اجلها الطبيعي حينما صبرا و جدا في تأسيسها ، و شكرا الله حفاظا لها من الزوال ، اما الحضارتان الاخريان فدمرتا بنهاية غير طبيعية ، لانعدام صفتي الصبر الذي يعبر عن الجد و الاستقامة ، و الشكر الذي يجسدالاتصال الحقيقي بحبل الله ، و المحافظة على اسباب الرقي ، و اللذان يعتبران روحا لأية حضارة.

و كلمة أخيرة : هل ان شبه الجزيرة التي استضافت الحضارات ، و التي انبعثت فيها ابار النفط بالخير و البركة ، سوف يستفيد أهلها و حكامها من قصص آبائهم ، فكتون حضارتا داود و سليمان (ع) مثلا لهم ، أم لن يعتبروا بتاريخهم ، ولا يصبروا على دين الله ولا يشكروا له ، فتكون الحضارتان الأخيرتان أمثولة لهم ؟!

بل هو الله العزيز الحكيم

هدى من الآيات

كثيرة هي الآيات القرآنية التي تنسف الافكار التبريرية و غيرها ، مما يحول بين الانسان و السعي ، فالحق و بالذات في كلياته العامة واضح كالشمس إلا أن الهوى يحجبه عن عقل الانسان ، و لكي تبرر النفس البشرية تثاقلها عن تطبيق الحق و انحرافها عنه فانها تلجأالى الأفكار الباطلة ، ولابد لمن يريد العودة الى الرشاد من نسف هذه الأفكار ، و رفع تلك الحجب ، لكي يتصل عقله اتصالا مباشرا بالحق ، و هذا من أهم أهداف الآيات القرآنية ، إذ نجدها تبطل الأفكار التبريرية الواحدة تلو الأخرى ، فاذا بها تجابه فكرة شفاعة الأنداد ببيان حقيقة التوحيد ، و تنسف فكرة الإطمئنان الى الدنيا بان الدنيا مرحلة بسيطة في حياة البشر ، و تبطل الجبر بتأكيد ارادة الانسان و مسؤوليته.

و أول ما يعالجه هذا الدرس - الذي جاء لينقض جانبا من الثقافة السلبية - هو فكرة الحتمية ، فالكثير من الناس يسعون لتبرير واقعهم المنحرف (السياسي)كخضوعهم للسلطات الجائرة و مؤسساتها ، أو (الاجتماعي) كاستجابتهم لضغوط الاباء و المجتمع أو (الاقتصادي (كاستجابتهم للنظم الاقتصادية الفاسدة و ما أشبه بفكرة الجبر و الإكراه ، واذا أراد البشر تحدي حتمية اتباع إبليس ، و من يجسده في الدنيا ، فعليه ان يتسلح بالايمان بالآخرة ، لأنه يعلو به على الحتميات ، فلو هدده الطاغوت بالقتل اذا لم يتحول الى عميل له ، و عبد يسعى في خدمته و أهدافه ، و لقال : " انا إلى ربنا منقلبون " و اذا توعده بالسجن قال : " السجن أحب إلي مما يدعونني اليه " و هذا المنطق هو الذي جعل السحرة يستقيمون أمام جبروت فرعون و ظلمه.

بينات من الآيات

[20]حينما أمر اللـه الملائكة بالسجـود لآدم أبى إبليس - الذي جمع معهم لعبادته - السجود تكبرا ، فطرده الله بعد ان حذر البشر منه ، فقال : " انه لكم عدو مبين " لكن إبليس اكتشف نقاط الضعف في

الانسان من حب للمال و السلطان ، فظن في نفسه أنهقادر على أغوائه " و قال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا " (١) و الله يؤكد ان إبليس وجد لظنونه مصداقا بين الناس.

]و لقد صدق عليهم إبليس ظنه [

و لعلنا نستفيد من هذا التعبير أن إبليس ظن أنه سوف يتخذ من أبناء آدم نصيبا مفروضا ، ثم سعى حتى جعل ذلك الظن الذي ظنه صادقا و ذلك باغواء الناس.

بلى . ان ابليس عدو خطير لانه قد خطط سلفا للايقاع بالبشر ، و سعى جاهدا لتنفيذ تلك الخطط.

(1)النساء / ١١٨

و هكذا اتبعه الناس أجمعون ، الا مجموعة من الناس هم الفريق المؤمن بالله و اليوم الآخر.

]فأتبعوه إلا فريقا من المؤمنين[

و لا يدل هذا الاستثناء ، على ان الفريق الآخر من المؤمنين اتبعوا ابليس ، إذ معنى " من " هنا التفسير و البيان ، أي اتبعه الا فريقا وهم المؤمنون.

و من أهم مصاديق صرف الشيطان للانسان عن الحق هو اضلاله عن ابتاع القيادة الصادقة ، و هذا ما يفسر الروايات التي جاءت مؤولة الآية الكريمة بانها تعني القيادة الرسالية . (١)[٢١] و لكن هل جبر الانصياع الى أمر إبليس ، حتى يبرر الانسان انحرافه بأن لا حول له و لا طول تجاه ضغوطه و اساليبه الماكرة ؟ بالطبع كلا .. و الله ينفي هذه الحتمية بعد الاشارة الى عدمها ، من خـــلال تقسيم الناس الى مطيعين لابليس و مخالفين له ، اذ لو كانت حتمية تقضي بالخضوع له لما تمرد عليه فريق المؤمنين ، فالناس إذن هم الذين يقررون طاعة الرب أو اتباع ابليس.

]و ما كان له عليهم من سلطان[

يقهرهم به ، بلى . ان وسائل الشيطان و الطغاة كثيرة و ماكرة ، و لكن الانسان قادر على مواجهتها ببصيرة الايمان ، و سلاح التوكل ، و لو تسلح بهما لما أضعفت نفسيته و لما ضللته وسائل الاعلام و التوجيه المنحرفة و غيرها.

و الله يؤكد ان الهدف في خلق ابليس ليس اضلال الناس ، فحاشا لله ان يريد(١) راجع نور الثقلين /ج ٤ ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤

اضلال عباده و قد خلقهم ليرحمهم ، و ان أراد ذلك لما بقي أحد مؤمنا ، و انما خلقه ليمتحن الناس من خلاله.

]إلا لنعلم[

علما واقعيا.

]من يؤمن بالأخرة ممن هو منها في شك[

والا فان الله بكل شيء عليم ، يعلم بمعرفته و خبرته المطلقة المؤمن من الكافر . و الآية تؤكد على الايمان بالآخرة هو حجر الزاوية في مسيرة الانسان و تحديد مصيره ، بل و في ايمانه ، و بالتالي فان شكه فيها يبعثه على الشك العام في سائر الحقائق.

]و ربك على كل شيء حفيظ[

يسجل للانسان أو عليه كل عمل و حركة ، و يحفظها في كتابه الذي يلقاه يوم القيامة منشورا.

و نستوحي من الآية ان ثمة سلطانا محدودا لإبليس على بني آدم ، لا يبلغ درجة الحتم بل يقف عند حدود الضغط ، وان الحكمة من اعطاء ابليس هذا السلطان المحدود ابتلاء البشر ليعرف مدى ايمانهم بالآخرة ، فمن كان ايمانه بها ثابتا فانه يثبت امام ارهاب ابليس و منيتبعه و يمثله من اولي القوة و الثروة و التضليل ، الا ترى كيف صمد السحرة بعد ايمانهم برب موسى و هارون)ع) امام تهديد فرعون لأنهم كانوا واثقين من اليوم الأخر ، فلم يفلح ابليس و خليفته فرعون من النيل من صلابتهم شيئا . تعال نقرأ القرآن:

"قال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوفتعلمون لأقطعن أيديكم و أرجلكم من خلاف و لأصلبنكم أجمعين قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون انا نطمع ان يغفرلنا ربنا خطايانا ان كنا أول المؤمنين(1) " وهكـذا كـل من تعرض لضغط اولياء الشيطان عليه ان يتذكر الآخرة ليصمد امامهـم.

[22]و الفكرة التبريرية الاخرى التي يعالجها هذا الدرس ، هي فكرة الشفاعة ، التي تعني الاعتماد على قوى أخرى تنقذ الانسان من نار جهنم كالاصنام ، وقد أقحمت هذه الأفكار في المسيحية تحت عنوان الفداء ، اذ كانوا في القرون الوسطى و الى اليوم يذهبون للكنائس مناجل الحصول على صك الغفران.

ولا شك ان الاعتقاد بوجود منقذ غير الله يفرض على الله شفاعته صورة أخرى للشرك.

]قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله[

من الشركاء ، و خضعتهم لهم ، وهم كما يبدو ثلاثة اصناف من الشركاء:

الأول :اصحاب الثروة ، الذي يظن الناس أنهم يرزقونهم ، و أنهم لما يظهر لهم من ثروتهم و ملكهم يشاركون الله في ملكه للحياة ، و القرآن ينفي ملكيتهم ولو بمقدار الذرة المتناهية في الصغر.

]لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض[

الثاني : اصحاب السلطة ، و الزعم بأن شخصا او نظاما يشارك الرب في إدارة(١) الشعراء / ٤٩ - ٥١

الخليقة ، و تدبير شؤون السموات و الارض ، و ينفي السياق ذلك بقوة.

]و ما لهم فيهما من شرك[

الثالث : وسائط القوة و الثروة ، من الجنود و الخدم و الوزراء ، و القرآن ينفي أن يكون للأنداد شرك حتى بهذا القدر.

]وما له منهم من ظهير[

[23]وانما كانت تعبد هذه الاصنام طمعا في شفاعتها ، و ينقض القرآن هذا الاعتماد فيقول:

]ولا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له[

الشفاعة هي الدعاء وما يترتب عليه ، و الله ليس مجبورا ان يستجيب لأحد دعاءه في حق نفسه أو في

حق الآخرين مهما كان هذا مقربا عند الله ، و يبين القرآن هذا المعنى في قول الله الى حبيبه محمد (ص) : " ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ". (١(

اذن لا مجال لفكرة الفداء في الرسالة الالهية ، بلى . ان الله شفيع للانسان ، و يقبل شفاعة الآخرين فيه حينما تكون عنده مؤهلاتها ، حيث يقول ربنا سبحانه : " ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله و استغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما" (٢) فمعنى الشفاعة الحقيقي اذن هو ما تقدمت الاشارة اليه و هو ما تؤكده هذه الآية الكريمة . بان يشعر الانسان نفسه بالذنب ، و بضرورة

التوبة(١) التوبة / ٨٠

(2)النساء / ٦٤

لله منه ، وما يستلزم ذلك من انكسار القلب ، و عقد العزم على عدم العود اليه ، ثم المجيء للقيادة الرسالية أو من يجسدها و الاستغفار عنده.

و بكلمة : هناك فكرة للشفاعة يتخذها الانسان غطاءا لجرائمه ، و تهربه عن مسؤولياته ، و هي الشفاعة الشركية المرفوضة التي يزعم صاحبها أن أصنام السلطة و الثروة و جنودهما قادرين على إنقاذه من غضب الرب لأنهم يشاركون الله في سلطانه تعالى الله عما يشركون.

و هناك شفاعة مسؤولة تبعث الانسان نحو المزيد من المسؤولية و الطاعة و هي التي يبينها القرآن في أكثر من مناسبة ، و التي تعني دعاء الرسول و الأئمة و الصالحين بالمغفرة لمن اذن الله له بذلك ، و هم المسلمون المطيعون لله و للرسول و الأئمة بصفة عامة.

و انما تبعث هذه الفكرة نحو المزيد من العمل لأنها تقاوم اليأس ، و تزيد من طاعة القيادة الالهية.

يدخل على الامام الباقر (ع) أبو أيمن - وهو مولى لامرأة علي بن الحسين (ع - (فيقول له : يا أبا جعفر تغرون الناس و تقولون : شفاعة محمد ، شفاعة محمد ، فغضب أبو جعفر حتى تربد وجهه (١) ثم قال:

ويحك يا أبا أيمن ، اغرك ان عف بطنك و فرجك ؟! اما لو قد رأيت افزاع القيامة لقد احتجت الى شفاعة رسول الله - صلى الله عليه و آله - ويلك و هل يشفع الا لمن وجبت له. "

(1)تغيير لونه.

ثم قال:

"ما من أحد من الأولين و الآخرين الا وهو محتاج الى شفاعة رسول الله - صلى الله عليه وآله - يوم القيامة "ثم قال:

"ان لرسول الله الشفاعة في امته ، و لنا الشفاعة في شيعتنا ، و لشيعتنا شفاعة في أهاليهم. "

ثم قال:

"و ان المؤمن ليشفع في مثل ربيعة و مضر " (١)و عندما تغشاهم افزاع القيامة تطير ألبابهم ، و تزيغ ابصارهم ، ولا يعودون الى رشدهم الا بعد ان يفرغ الله قلوبهم من الفزع ، و هنالك يتساءلون : ماذا قال الرب ؟ و يجاوبون : لقد قال الحق.

]حتى إذا فزع عن قلوبهم[

و حرف " حتى " يدل على ان الفزع يستمر معهم الى ان يفرجه الله عنهم ، مما يدل على ان الشركاء لا يغنون عنهم شيئا.

و كلمة " فزع عن قلوبهم "تشبه قول العرب (قرد البعير) اذا أخذ منه القراد ، و يسمونه السلب ، و معناه سلب عنهم الفزع.

]قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق[

(1)المصدر / ص ٣٣٥

لعل السائل و المجيب هم نفس الفريق ، فسأل البعض و أجاب الأخرون ، و يحتمـــل ان يكون السائل الملائكة و أهل الشفاعة ، و المجيب هم المشفوع لهم من المذنبين ، و الكلام يكون خاصا بالذين يؤذن لهم بالشفاعة ، حيث ينزع عنهم الفزع حينما يؤذن لهم بالشفاعة ، بينما يبقى الأخرون في فزع عظيم .

]و هو العلي الكبير[

فلا شفاعة الا باذنه ولا أمنة إلا منه ، ولا نجاة إلا به سبحانه.

و في الآية تفسيرات عديدة ، بيد ان ما ذكرنا أنسب الى السياق من غيره فيما يبدو لي.

[24]ثم يمضي السياق قدما في تفنيد الأفكار التبريرية و منها الزعم بأن غير الله يرزق شيئا ، و سواء كان السلطان أو المترف أو غيرهما فان ربنا ينفي ان يكون الرازق حقا غير الله.

]قل من يرزقكم من السموات و الأرض[

من يرسل السحاب ، و يبعث بأشعة الشمس ، و يهدي الإنسان الى طرائق الزراعة و الصناعة ، و يرزقه القوة ؟

]قل الله[

ثم يستفيد من اسلوب التشكيك المنهجي لإيصال الانسان الى الحقيقة.

]و إنآ أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين[

و هذا الاسلوب يجعل الكافر يشكك في طريقه شكا منهجيا ، كما يشك - علىالأقل - في صدق الرسالة ، مما يجره للبحث و التعرف ، و هذا بالطبع سيقوده الى الحق ، مرحلــة فمرحلة ، و انما يبقى في الضلال الذي لا يشكك نفسه ، بل يعتقد جازما انه على الصواب.

و كما ان جزم الانسان بأن طريقه هو الأصح من دون بحث و تدقيق خطأ ، فان اعتقاده بصحة كل اعتقاد كما يدعي ذلك البعض هو الآخر خطأ.

[25]و الفكرة التبريرية الرابعة التي ينسفها القرآن : هي الاعتقاد بأن عمل الانسان يمكن ان يلقى على عاتق غيره ، و اذا كان هذا ممكنا في الدنيا ، حيث يلقي بالمسؤولية على الآخرين ، فانه مستحيل في الآخرة.

]قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون[

فكل انسان يلزم طائره في عنقه.

[26]ولكي نتخلص من هذه الفكرة التبريرية يجب ان نتطلع الى الآخرة ، حيث نقف جميعا أمام الله ليحكم بيننا وهناك يتحدد المصير الأبدي.

]قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم]فلابد ان نعتقد بيوم يتميز به الحق عن الباطل و ان أهلهما بحكم الله ، و ضرورة هذا الاعتقاد ان الانسان ربما يعتمد على نفسه في التمييز بينهما ، فاذا بالضغوط و الإغراءات تؤثر فيه و تضيع منه المقاييس.

و على سبيل المثال : لو لم تكن في العالم مقاييس و موازين محدودة للباعة لاجتهد كل واحد في تحديد مكيال خاص به ، و هذا أمر خطير ينهي الى التلاعب بالاقتصاد ، لكن ايجاد مقياس محدد يفرض على الجميع (البائع و المشتري) تكييفأنفسهم مع هذا المقياس ، فيكون حاكما بينهم ، كذلك العلم بوجود مقياس ثابت عند الله لابد ان ننتهي اليه جميعا يقف دون العمل بالاهواء.

[27]وفي نهاية هذا الدرس يذكرنا القرآن بأن الشركاء ليس فقط لا يملكون شيئا ، بل هم أنفسهم ليسوا بشيء اذا فكر الانسان فيهم.

]قل أروني الذين ألحقتم به شركاء [

وادعيتم انهم يتصرفون في الحياة معه ، أو يؤثرون عليه ، أو يعينونه.

]كلا بل هو الله العزيز[

الذي لا يحتاج الى معين لانه قوي و قادر بذاته.

]الحكيم[

الذي يحيط بالأمور علما ، و يتصرف فيها بدقة ، فلا يخطأ حتى يحتاج الى من يسدده أو يصحح حكمه عز وجل.

هل يجزون الا ما كانوا يعملون

هدى من الآيات

بعد ان نسف السياق التبريرات التي يحتمي بها المجرمون هربا من المسؤولية ، ابلغهم ان الرسول (ص) جاء مبشرا و منذرا لهم جميعا ، فالناس أمام مسؤولياتهم شرع سواء ، و ان وعد الله بالجزاء آت ، و ان لكل أمة أجلا هو بالغوه ، ولن يؤخر عنهم اذا جاءهم لحظة واحدة ، كما لا يتقدم أجلهم باستعجالهم.

و حين تحدى الكفار الرسالة ، و قالوا : لن نؤمن بها ولا بالذي سبقها من الكتب ، انذرهم الرب أنهم سوف يندمون يوم الجزاء الأكبر ، حين يرون العذاب ، و توضع الاغلال في اعناق الذين كفروا جزاء بما كانوا يعملون ، و هنالك لا ينفعهم التبرير الذي يتوسلون بهاليوم حين يلقي المستضعفون (التابعون) المسؤولية على المستكبرين) المتبوعين. (

و يبين السياق فساد هذا التبرير عندما يصور الحوار الساخن بينهما ، حين يرجعبعضهم الى بعض القول فيقول المستضعفون : أنتم كنتم السبب في ضلالتنا ، فيتبرأ من ذلك المستكبرون ، و يقولون : انكم كنتم مجرمين بأنفسكم ، ولا يسع المستضعفون آنئذ إلا القاء اللوم على الزمن فيقولون : بل مكر الليل و النهار ، اذ يأمروننا بالكفر.

بينات من الآيات

[28]ان ما يميز الرسول (ص) عن سائر الانبياء انه بعث لعامة الناس ، اذ لم تختص دعوته بجماعة دون

أخرى ، و لا بقوم دون آخر ، و هذا بذاته دليل على صدق رسالته ، ذلك ان الانسان مهما حاول التجرد فانه يبقى ابن بيئته التي تعكس عليه آثاره في واقع الثقافة ، كما تعكس عليه الآثار الطبيعية . من هنا حين يأتي الرسول برسالة تتجاوز القومية ، و العنصرية ، و الاقليمية ، نظريا و عمليا ، فان ذلك يكون دليلا على ان رسالته الهية.

]و ما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا و نذيرا[

و يلاحظ هنا تقديم البشارة على الإنذار ، بينما نجد العكس في بعض الآيات ، و لعل الحكمة أنه إذا كان الحديث عن هداية الانسان استلزم تقديم الانذار لأنه الاقوى أثرا في البشر ، بينما اذا جرى الحديث عن شخص الرسول تقدمت البشارة للدلالة على انه بعث رحمة للعالمين.

و السؤال : من الذي تسوقه البشارة الى العمل الصالح ، و يمنعه الانذار عن الذنب ؟

انه العالم . أوليس العلم يجعل الانسان يؤمن بالحقائق ؟! لهذا جاءت آيات كثيرة تؤكد على علاقة العلم بالايمان ، و تكميل أحدهما للآخر ، و من أبرزها قولهتعالى : " انما يخشى الله من عباده العلماء " (١) و انما لا يستجيب غالبية الناس للرسل ببشارتهم و انذارهم لجهلهم ، فاذا رأيت أغلب الناس كفارا فلا تستوحش من ذلك ، ولا تظن بان ذلك دليل على ضعف أدلة الرسالة ، بل على ان الايمان - كما العلم - درجةرفيعة لا يبلغها الا الصفوة من الناس .

]ولكن أكثر الناس لا يعلمون [

فهم لا يؤمنون.

] [29]و يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين[

و يتشبث الانسان بتبرير فاسد آخر حين يتسائل : إذن اين الجزاء ؟! لماذا يتأخر عن المجرمين ؟! اذا كنتم صادقين في ان لكل عمل صالح جزاء حسنا يبشر به الرسول ، و لكل جريمة عقابا ينذر به.

[30]و يبطل السياق هذا التبرير أيضا بان الجزاء آت ، و ان تأخيره لأجل محدود ، وانه حين يحين ميعاده لا يتأخر ساعة ولا يتقدم.

]قل لكم ميعاد يوم لا تستئخرون عنه ساعة ولا تستقدمون]وقد اخفى الله أجل الانسان ، فهو لا يدري متى يوافيه الموت و الجزاء ، و لعل اي لحظة يمر بها تحمل في طياتها أجله ، مما يدعوه الى التسارع و المبادرة لعمل الخير ، و الاستقامة عليه . يقول الرسول (ص) لابي ذر (رض: (

"يا أباذر ! اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، و صحتك قبل(١) فاطر / ٢٨

سقمك ، و غناك قبل فقرك ، و فراغك قبل شغلك ، و حياتك قبل موتك " (١)ذلك ان الحكمة من اخفاء الأجل هي بعث روح المبادرة في الانسان ، هكذا يقول الامام الصادق (ع: (

"ثم [لو] عرف ذلك - يعني أجله - وثق بالبقاء ، و انهمك في اللذات و المعاصي ، و عمل على انه يبلغ من ذلك شهوته ، ثم يتوب في آخر عمره ، و هذا مذهب لا يرضاه الله من عباده ولا يقبله ، الى ان يقول)ع) : فكان خير الاشياء للانسان ان يستر عنه مبلغ عمره ، فيكون - طول عمره -يترقب الموت فيترك المعاصي ، و يؤثر العمل الصالح " (٢)و الساعة التي تعنيها الآية الكريمة ليست كما هي عندنا ، انما هي في عرف القرآن اللحظة و أقل منها ، و في الخبر يسأل الامام الصادق (ع) عن الناس يموتون بين فاتح لعينه و آخر مغمضها ؟ يجيب : ان ملك الموت حينما يأتي على الرجل ليقبض روحه وهو مغمض العين ، يستأذنه و يقول : ائذن لي افتحها ، و الآخر على خلافه ، فلا ياذن لهما اذن لماذا نستهين بالزمن ! و لماذا نقتل المسافة التي تفصلنا عن أجلنا باللهو و اللعب و المعصية ، و نحن لا نعرف متى ينتهي هذا الزمان!

[31]ان من عقبات الايمان بالرسالة حالة العناد التي يعالجها الذكر ببيان نتائجها السيئة ، فيحدثنا السياق عن كلمة الكفار : بانهم لا يؤمنون بالقرآن ، ولا بالكتب التي سبقته ، و كأنهم قد عقدوا العزم على هذا الرفض القاطع لرسالات ربهم.

(1)بح / ج ٧٧ - ص ٧٥

(2)بح / ج ٢ - ص ٨٤

]و قال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرءان ولا بالذي بين يديه]و الله يعالج مشكلة العناد هذه عن طريق تصوير مشاهد رهيبة من يوم الآخرة.

ومن بين تلك المشاهد التي تتعرض لها آيات هذا الدرس وقوف الظالمين أمام ربهم ، يلوم بعضهم بعضا ، و لعل هذه المعالجة القرآنية تدل على أن الانسان يعتمد أولا على قوة ارضية يزعم انها تمنعه من ربه ، و تخلصه من جزاء كفره ، ثم يستكبر على ربه ، و يتحدى رسالاته ، لذلك يبين السياق بطلان ذلك ، و يصور لنا مشهد الحوار بين الكفار و من كانوا يعتمدون عليهم في الدنيا في كفرهم بالرسالة ، فيقول:

]ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم[

يلقي بعضهم المسؤولية على البعض الآخر ، طمعا في النجاة من الذل و العذاب.

]يرجع بعضهم إلى بعض القول [

متصورين انهم يقدرون على ذلك ، كما هو الحال في الدنيا ، و يتشبث بعضهم وهم المستضعفون بحجة اتباع المستكبرين.

]يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين]ولكن هل خلق الله الناس مستكبرا و مستضعفا حتى يكون لبعضهم على بعض سلطان مبين ؟! كلا ..بل خلقهم أحرارا ، ولكن خضع بعضهم للبعض الآخر بحريته ، فشجعه على الاستعلاء في الارض.

ولو عرف الانسان مدى ضلالة الاعتماد على اولي القوة و الثروة و ادعياء العلمو الدين ممن ينصبون أنفسهم سادة على الناس ، و يأمرونهم باتباعهم ، لما تورط كثير من الناس في الجرائم ، اتباعا للسلاطين و المترفين و مؤيديهم من ادعياء العلم و الدين.

و لكن الانسان يزعم ان هؤلاء المستكبرين ينقذونه من عذاب ربه يوم القيامة ، كما انهم يوفرون له بعض الحماية في الدنيا ، ولا يعلم انهم مجرد ابتلاء له في الدنيا ، و انهم لا يغنون عنه من عذاب ربه شيئا.

[32]اما المستكبرون فانهم من جانبهم يدفعون عن أنفسهم التهمة بأن الانسان حر و مختار ، لا يمكن لأحد اجباره على نمط معين من الحياة ، واذا ترك الحق للباطل فبما ينطوي عليه قلبه من النزوع الى الجريمة.

]قال الذين استكبروا للذين استضعفوا[

و هم يحاولون القاء المسؤولية عن كاهلهم.

]أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاء كم[

بلى .قد يتوسل المستكبرون بالمكر و الاساليب المضلة ، و لكن يبقى الانسان صاحب القرار ، و اذا

انحرف فلا يعدو اضلال المستكبرين له دور التشجيع.

]بل كنتم مجرمين[

و هذا ضرب من الشماتة على الانسان من قبل مـــن كان يزعم انه يخلصه و ينجيه ، و لعل ذلك من أشد انواع العذاب الذي يلقاه اصحاب النار.

ولو عقل الناس هذه الحقيقة لانهارت أسس الظلم في المجتمعات ، حين يعلونالمستكبرون فيها ، و يعيثون فسادا ، و يتبعهم المستضعفون زاعمين أن ذلك يلقي المسؤولية عن كاهلهم ، و يجعلهم مبرئين من الجرائم التي يرتكبونها بحق بعضهم ، و يقولون : المأمور معذور ، و كأن الله أمرهم باتباعهم ، أو انه خلقهم مستضعفين و جعل أولئك مستعلين عليهم.

[33]ومن صور الفكر التبريري الذي يعتمده الانسان : اعتقاده بأن الزمان هو الذي يفرض عليه نوعا من السلوك ، فيلقي عليه اللوم!

]وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل و النهار إذ تأمروننآ أن نكفر بالله و نجعل له أندادا]و الكفر بالله ليس بالضرورة نفي وجوده بقدر ما هو تحدي رسالاته ، و اتباع الأهواء ، أو الاشخاص ، أو القوانين الوضعية ، وهذا ما يبعث على الانسان بالندامة يوم الحساب ، حيث يتبرا منه الأنداد المزيفون ، و يكتشف أنهم لا ينفعونه بل يضرونه ، و ان الكلمة الفصل هناك لله الحق.

]و أسروا الندامة لما رأوا العذاب[

ولات حين مندم.

]و جعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا[

و حتى يقاوم الانسان فكرة القاء المسؤولية على الآخرين ، يؤكد القرآن مرة أخرى بان ما يلاقيه الانسان في الآخرة من ألوان العذاب و صنوفه هو جزاء أعماله في الدنيا ، و أساسا - في الرسالة الإلهية - الجزاء من جنس العمل ، فالصلاة التي يقيمها المؤمن في الدنيا تتحول حورية في الآخرة ، و على العكس فان الغيبة تصبحزقوما يؤذي صاحبه ، و ربما تحولت الى حيات و عقارب و التي ورد في الحديث ان حجمها بحجم البغل ، و لعل الأغلال التي يجعلها الله في أعناق الكفار هي ذات القيود التي يغل بها الناس أنفسهم باتباعهم في الدنيا للااهواء و الاشخاص و القوانين ، و لعل خاتمة الآية تشير الى ذلك حين تقول:

]هل يجزون إلا ما كانوا يعملون[

ولم يؤكد القرآن الكلام بحرف الباء فيقل : بما كانوا يعملون ، للاشارة إلى ان الأغلال هي ذات الأعمال التي عملوها في الدنيا و الله العالم.

وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه

هدى من الآيات

في سياق تفنيد التبريرات التي يتشبث بها الانسان للتهرب من مسؤولياته تبين الآيات ضلالة الاعتماد على المال و الثروة ، فما من قرية أرسل الله فيها منذرين الا و ادعى مترفوها بأنهم الأولى بالقيادة ، لأنهم يملكون الثروة ، فهم في زعمهم مرضيون عند ربهم ، ولا يمسهم العذاب.

و ينسف القرآن هذه الفكرة مرتين:

مرة حينما يذكرنا بأن ثروة هؤلاء ليست من أنفسهم ، بل هي من عند الله ، و مرة أخرى عندما يبين لنا بان مقياس رضى الرب عن الانسان ليس ما يملك من الثروة ، فرب غني بغيض عند ربه ، و رب فقير مرضي عنده ، انما الثروة كما السلطة و القوة و سائر النعم الالهية وسائل لابتلاء الانسان و اختباره في

الدنيا.

ثم يوجهنا السياق لاتخاذ الثروة سبيلا لمرضاة الخالق باستخدامها الصحيح ، و انفاقها في سبيله ، كما يؤكد ذلك بأن ما يعطيه الانسان في سبيل الله يخلف له بزيادة الخير في الدنيا ، و بالجنان في الآخرة ، ثم بأن ما يملكه الناس انما هو من الله و ليس من عند أنفسهم.

ثم تعالج الآيات فكرة عبادة الأولياء - كالملائكة ، و الجن ، و الصالحين - من دون الله ، و ذلك عبر حوار بين الله و ملائكته ، اذ يسألهم : هل كان هؤلاء يعبدونكم ؟ فتنفي الملائكة ذلك ، و تستغفر الله خوفا و رهبة مما يدعيه الناس عنهم اما عن هدف هذه العبادة فهو التهرب من المسؤولية ، و الزعم بان الملائكة سوف ينقذونهم من نار جهنم ان هم عبدوهم.

بينات من الآيات

[34]يبدو أن أغلب المترفين -وهم الذين نعمهم الله فأسرفوا - معاندون ، و يكفرون بالرسالات ، بل و يحملون لواء الحرب ضدها.

]وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون]و لعل القرآن عبر في هذه الآية بكلمة " قرية " عن المدينة ، بل عن الحضارة بأجمعها ، استصغارا لها ، و لأن من لا يعبدون الله ، ولا يتبعون رسالاته في حياتهم و حضارتهم أقليه و ان كثرت أعدادهم ، ذلك أن القيمة الحقيقية للإنسان كما المجتمع بقربهمن الحق أو بعده عنده ، لا بما يملك من تقدم مادي بحت.

[35]اما لماذا يكفر هذا الفريق فذلك - كما يصرحون أنفسهم - للاسباب التالية:

الاول :كثرة الأموال و الأولاد ، و لعل التعبير كما الأموال لا يختص بظاهر الكلمتين انما تشمل كلمة الأموال كل أنواع الثروة ، كما تنطوي كلمة الأولاد أيضا على الأتباع و المطيعين.

]و قالوا نحن أكثر أموالا و أولادا[

إذ ان اول أهداف الرسل هو تغيير القوة السياسية الحاكمة على الناس ، و لكن المترفين يعارضون ذلك مبررين رفضهم بأن السلطة لا تكون لصاحب الحق و العلم ، انما للمترف بما يملك من المال و الاتباع.

الثاني : الاعتقاد بأن من يملك المال و الرجال لا يلحقه الأذى ، و لا يشمله العذاب الالهي ، حتى ولو فعل الفواحش.

]و ما نحن بمعذبين[

و لعل هذه الفكرة تكون سببا لتوغلهم في الجرائم ، لأن اعتماد الانسان على ما يملك من مال و مؤيدين ، بعيدا عن هدى الله و العقل يقحمه في المهالك ، و هذا ما دفع امريكا للدخول في حرب فيتنام ، فتمرغ أنفها ، و سقطت هيبتها المزيفة ، كما سقطت روسيا باحتلالهاافغانستان الاسلامية غرورا و استكبارا ، فتعرضت لهزائم منكرة على يد ابطال الاسلام هنالك.

وما يدريك لعل الغرور يكون سببا لانتهاء الجاهلية الحديثة ؟ فقد قال الامام علي (ع) يصف بعض الاقوام:

"زرعوا الفجور و سقوه الغرور ، و حصدوا الثبور " (١)(١) نهج البلاغة / خ ٢ -ص ٤٧

و قال (ع: (

"طوبى لمن لم تقتله قاتلات الغرور " (١)[٣٦] و يعالج ربنا هذا الانحراف النفسي حينما يذكر بان ما في

أيدي الناس من مال انما هو من عند الله لا من عند أنفسهم حتى يغتروا بها.

]قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر[

فتارة يزيد الله الرزق للعبد حتى يكفيه و أكثر ، و تارة يضيق عليه فيه ، فالغنى و الفقر اذن بيده عز وجل ، و لعل غني اليوم يكون فقيرا غدا أو العكس ، الا أن الغالبية من الناس لا يعقلون هذه الحقيقة لأنهم لا يعلمون الا ظاهر الحياة الدنيا ، فيعتقدون مثلاأن سعيهم فقط يدر الرزق ، و لو تعمقوا في الحياة قليلا لعرفوا أن ذلك وسيلة فقط أما السبب الحقيقي فهو رحمة الله.

]ولكن أكثر الناس لا يعلمون [

و لعل من مشاكل البشر العقلية و النفسية انهم لا يتدرجون في تعليل ظواهر الحياة لمعرفة العلة الأسمى و الارفع ، انما يقتصرون على الأسباب الظاهرة المباشرة.

[37]ثم لنفترض بأن المترفين يملكون الأموال و الأولاد ، فهل ذلك يقربهم بهم الى ربهم . كلا..

]و ما أموالكم و لا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى]بلى . من الممكن ان يكون المال و الاتباع وسيلة لرضى الرب ، و ذلك اذا بعث(١) غرر الحكم.

الايمان في القلب ، و تحول الى أعمال الخير و الصلاح ، فعمر بالمال الحرث و النسل ، و استخدمت القوى البشرية للدفاع عن المستضعفين و احقاق الحق ، و متى صار اصحاب المال و الاتباع بهذا المستوى عظم شأنهم عند ربهم بزيادة الخير لهم في الدنيا ، و اعطاهم الجنان والأمن في الآخرة.

]إلا من ءامن و عمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف]لايمانهم من جهة ، و لعلمهم من جهة أخرى ، و هذا ما يشير اليه الحديث الشريف:

"شكر الغني خير من صبر الفقير"

وفي تفسير القمي قال : ذكر رجل عند ابي عبد الله (ع) الاغنياء و وقع فيهم ، فقال ابو عبد الله (ع: (

"أسكت ! فان الغني اذا كان وصولا لرحمه ، بارا باخوانه ، أضعف الله له الأجر ضعفين لان الله يقول " و ذكر الآية " (١)أما جزاء الآخرة فهو الأمن من فزع يومئذ.

]و هم في الغرفات ءامنون[

[38]كان هذا جزاء الغني حينما يستخدم قدراته المادية و البشرية في سبيل اعلاء كلمة ربه ، اما اذا كان الغنى طريقا للجحود ، و لحرب الرسالات الإلهية ، فليس جزاؤه سوى العذاب الشديد.

(1)تفسير القمي / ج ٢ -ص ٢٠٣

]و الذين يسعون في ءاياتنا [

وهي القرآن ، و ما يتصل به من الحقائق المعنوية و المادية كالقيادات و آيات الطبيعة.

]معاجزين[

اي يجعلونها عاجزة عن بيان الحقيقة ، عبر إثارة الشبهات الزائفة حولها ، أو تفسيرها على غير وجهها.

]أولئك في العذاب محضرون[

أرادوا ذلك أو رفضوه.

و تتضمن الآية الكريمة معنيين:

المعنى الأول : ان المعاند الذي قرر الكفر بالله ، و السعي من أجل تحريف آياته ذاتها ، أو تأويل دلالاتها ، فانه حتى لو قرأ القرآن أو بحث عن الحقائق فليس للايمان بها و انما للبحث عن وسيلة لردها و معارضتها.

المعنى الثاني : أن المنحرف يستخدم كل قوة يملكها في غير أهدافها المشروعة ، فاذا بالمال الذي هدفه تقويم النظام الاجتماعي ، و تحريك الفاعلية الاقتصادية ، يصبح وسيلة لدمار المجتمع ، و إفساد الإقتصاد ، واذا بالسلطة التي هدفها اقامة العدل ، و بناء الحياةالفاضلة ، تصير أداة لفساد الأرض ، و هلاك الحرث و النسل " واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها و يهلك الحرث و النسل و الله لا يحب الفساد " (١)(١) البقرة / ٢٠٥

واذا بالآيات التي هي وسيلة الهداية تضحى عندهم محورا للمعاجزة و للجدال العقيم ، فتزيدهم كفرا و طغيانا.

و حينمـــا نقرأ اليوم عن اقتصاد العالم نرى كيف صارت الثروة أداة لهدم الحضارة ، فميزانيات التسلح في هذا العصر تبتلع انتاج الحضارة البشرية ، و كل التقدم العلمي و التكنلوجي لديها ، فاذا بالمترفين و حفاظا على مصالحهم ، يلقون بالقنابل المدمرة على مدينةبنتها القوى و الفاعليات البشرية خلال عشرات السنين ، فتدمرها في بضع دقائق ، كما فعلت القنبلة الذرية في هيروشيما و نكزاكي ، أو كما فعلت قنابل الحلفاء في المدن الالمانية.

[39]اذن فما هو الموقف السليم من الآيات و الافكار السليمة ، و من الثروة و القوة و هما من آيات الله ؟

الجواب أولا : معرفة المنعم مقدمة لشكره النظري و العملي.

]قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له]فالذي يرى ان ربه هو الذي أعطاه ما يملك لا يكفر به ، ولا يحارب رسالاته ، و عباده الصالحين ، ولا يخشى من الإنفاق في سبيله ، بل يسعى لذلك إحساسا منه بالمسؤولية . أوليس القدرات و الإمكانات كما النفس امانة من عند الله ؟! فلماذا لا يردها حين يطلبها منه؟ بلى . سوف يعطيها راضيا مطمئنا لرزق ربه.

]وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه[

وذلك من ناحيتين:

الناحية الغيبية : قال رسول الله (ص: (

"ومن يبسط يده بالمعروف إذا وجده يخلف الله له ما أنفق في دنياه ، و يضاعف له في آخرته(1) " وقال ابو عبد الله (ع: (

"ان الرب - تبارك و تعالى - ينزل أمره كل ليلة جمعة الى السماء الدنيا من أول الليل ، وفي كل ليلة في الثلث الأخير ، و أمامه ملك ينادي : هل من تائب يتاب عليه ؟ هل من مستغفر يغفر له ؟ هل من سائل فيعطى سؤله ؟ اللهم اعط كل منفق خلفا ، و كل ممسك تلفا ، إلى أن يطلع الفجر ، فإذا طلع الفجر عاد أمر الرب - تبارك و تعالى - الى عرشه ، فيقسم ارزاق العباد " (٢)و لعل الناحية الغيبية في خلف

الرزق و مضاعفته تكمن في البركة الإلهية التي يسبغها على عبده ، و في التوفيق الى القرارات الصائبة ، و التصرفات المالية النافعة.

الناحية الطبيعية : ان ما يدفع الانسان للبحث عن حوائجه و من بينها المال هو الشعور بالحاجة ، و لا شك أن المنفق سوف يسعى بقواه العقلية و المادية من أجل التعويض عما أنفقه ، عبر تحريك المال من خلال المشاريع و الاعمال المختلفة.

و حتى ينفق الانسان في سبيل الله ، لابد ان يتعرف على كرم ربه عز و جل ، لهذا لم يكتف القرآن بذكر ما تقدم - من أن الله يخلف على من أنفق - انما أضاف.

]وهو خير الرازقين[

(1)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٣٤٠

(2)المصدر / ص ٣٣٩

و الاحاديث تؤكد هذه الحقيقة ، قال رسول الله (ص: (

"من صدق بالخلف ، جاد بالعطية " (١(

و قال (ص: (

"من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة " (٢)و هل يصدق بالخلف و يوقن به الا اذا عرف أن ربه خير الرازقين.

ثم لماذا لا ينفق الانسان ماله في سبيل الله وهو ان بقي لم ينتفع به ، و ان انفقه كان في سبيل الحق ، قال الامام الباقر (ع) للحسين ابن ايمن:

"يا حسين ! أنفق و أيقن بالخلف من الله ، فانه لم يبخل عبد ولا أمة بنفقه فيما يرضي الله عز و جل الا أنفق اضعافها فيما يسخط الله " (٣)[٤٠] هروبا من ثقل المسؤولية يتشبث البشر بأي تبرير ، ولابد من إبطال كل تبريراته ، ليتحمل امانته بصدق ، و ما عبادتهم للأصنام أو الملائكة أو الجن إلا صورة لهذه الحقيقة ، و يفند السياق هذه العبادة عبر ذكر الحوار الذي يجري بين الرب و بين عباده المكرمينمن الملائكة ، حيث يجمعهم هم و الذين زعموا أنهم يعبدونهم من المشركين ، ثم يخاطب الملائكة بما يوحي : كيف رضيتم بعبادة المشركين لكم ؟!

فيجيبون : أولا : نحن لا نتخذ من دونك وليا ، و بالتالي لا نرضى بعبادة أحد(١) المصدر / ص ٣٣٩

(2)المصدر / ص ٣٤٠

(3)المصدر / ص ٣٤٠

لنا ، ثانيا : اذا كانت العبادة حقا هي الطاعة فانهم كانوا مطيعين للجن وليس لنا نحن الملائكة.

]و يوم يحشرهم جميعا[

المشركون و من عبدوهم.

]ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون[

ولعل تقديم المفعول الذي يدل على الحصر يوحي بأن طبيعة العبادة لا تتجزأ ، فلو كانوا يعبدوا الملائكة حقا فلابد انهم كانوا يخلصون العبادة لهم.

[41]هنالك انكشف زيف ادعاء المشركين عبادتهم للملائكة اذ...

]قالوا سبحانك[

لا يمكن أن نرضى بشريك لك ، فأنت الرب القدوس ، الذي لا شريك له.

]أنت ولينا من دونهم[

و يبدو أن معنى " الولي " هو القريب ، فيكون مراد الملائكة : انت الذي نتقرب اليك ، و لسنا نرضى بقرب هؤلاء الذين لا يسوى ولاؤهم لنا شيئا ، فما قيمة عبادة همج رعاع ، لا يضرون ولا ينفعون ؟!

و نستوحي من هذه الإجابة :ان علينا الا نرضى بطاعة الناس لنا إذا كانت تسخط الرب ، فان طاعتهم لا تغني شيئا عن عذاب الرب ، و ما قيمة طاعتهم إذا اسخطت ربنا الذي بيده نفعنا و ضرنا وهو بكل شيء قدير ؟!

ثم اشارت الملائكة إلى أن عبادة المشركين هي للجن في الواقع.

]بل كانوا يعبدون الجن[

فالعبادة هي الطاعة ، و بالطاعة تنعكس توجهات المعبود على سلوك العابد ، و بما ان سلوك المشركين المنحرف يعكس توجهات الجن فانهم كانوا في الواقع يعبدون الجن التي هي الموجودات الغيبية التي يمكن ان تكون منحرفة ، ولذلك أمرنا الله ان نستعيذ به منهم في سورةالناس فقال : " قل اعوذ برب الناس * ملك الناس * إله الناس * من شر الوساوس الخناس * الذي يوسوس في صدور الناس * من الجنة و الناس. "

ثم ان العبادة تعكس عادة صلة العابد بالمعبود ، وصلة هؤلاء كانت مع الجن دون الملائكة ، إذ أن الجن كانت توسوس في صدورهم ، و تدعوهم الى الضلالة.

]أكثرهم بهم مؤمنون[

فالجاهليون كانوا ينسبون الخوارق للجن ، و يقدسونها ، و لعل تغيير الصيغة من العموم الى الاكثرية جاء بسبب أن العبادة اشمل من الايمان اذا فسرناها بالتسليم و الطاعة المطلقة ، فكثير أولئك الذين يعبدون السلاطين خوفا و طمعا ولا يؤمنون بهم ، و من أبرز مظاهـــر العبادة بلا إيمان طاعة البسطاء للأحبار و الرهبان ، و اتخاذهم أربابا من دون الله ، دون ان يسجدوا لهم ، أو يؤمنوا بأنهم خالقوهم و رازقوهم.

[42]و ينسف القرآن الكريم أساس الشرك ، و عبادة الملائكة و الجن بان الخلائق لا تملك نفعا ، ولا تدفع ضرا من دون أمر الله و إذنه.

]فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا و لا ضرا[

و يؤكد ربنا مسؤولية الانسان عن أفعاله دون ان يقدر الشركاء الذين يعبدونمن دون الله نجاته من النار.

]و نقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون[

قل جاء الحق وما يبدء الباطل وما يعيد.

هدى من الآيات

في سياق معالجة أمراض الفؤاد ، و التبريرات التي يتشبث بها الكفار يداوي الذكر هنا مرض التقليد الأعمى ، الذي يدعو الى تكذيب الرسول ، و يسوق الحجج على صدق الرسالات:

أولا : بان القوم جاهليون ، ولا رسالة إلهية لهم من قبل حتى يفتخروا بها ، ولا رسول نذير.

ثانيا : ان الله أهلك القرون الغابرة بتكذيبهم ، وقد كانوا أشد منهم قوة ، وما بلغ هؤلاء معشار ما بلغه أولئك.

ثالثا :ليقوموا لله مثنى و فرادى ، ثم يعودوا الى ضمائرهم و يتساءلوا في أنفسهم :هل صحيح ما يتهمون به رسولهم من الجنون ، أفلا يعرفون أن صفاته صفات من ينذرهم بعذاب شديد وليس صفات مجنون حاشاه ؟!

رابعا : ان ما نسبوه اليه من الكذب ينفيه شدة إخلاصه لرسالته ، و انه لا يطالبهم بأجر ، بل كل ما يبتغيه هو خير لهم ، وان يشهد ربه على أفعاله.

خامسا :انه يذكر أبدا بالحق ، و ان الحق باق ، و يقذفه الله على الباطل فيدمغه ، و انه اذا جاء الحق زهق الباطل ، و هذا أكبر شهادة على صدق رسالات الله ، حيث انها حق ، و ان الله ينصرها.

و تشير الآيات الى ان الهدى من الله ، و ان الرسول يهتدي بهدى الله ، وان عاقبة الضلالة تعود الى صاحبها.

سادسا : يحذرهم عذاب الله الذي أعده للكافرين برسالاته حين يؤخذون فزعين ، لا يفوت أحد منهم هربا ، بل يؤخذون من مكان قريب.

و حينذاك قالوا : آمنا ، و لكن كيف يؤمنون هنالك ولا ينفعهم الايمان الا في الدنيا ؟! ويكون مثلهم مثل من يريد التناوش من مكان بعيد . أوليسوا قد كفروا به من قبل يوم كانت الفرصة متاحة ؟!

وهكذا لا يبلغون مناهم كما لم يبلغ الأولون أمانيهم لأنهم كانوا في شك مريب.

بينات من الآيات

[43]يخلط أعداء الرسالة أمرها عادة و أمر صاحبها ، فاذا بهم يتركون الحديث عنها وعن الآيات الواضحة التي تتلى عليهم و يحاولون النيل من رسولهم) مبلغها اليهم. (

]وإذا تتلى عليهم ءاياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أنيصدكم عما كان يعبد ءاباؤكم[

فهم يريدون أولا اسقاط شخصية الرسول (ص) في المجتمع ، حتى يتسنى لهم رفض أفكاره ، وذلك عن طريق إثارة العصبيات الجاهلية ، و أنهم لو أفلحوا في ذلك لأوجدوا هدفهم وهو العداء بين المجتمع و بين الرسول ، بحيث يتخذ المجتمع موقفا مسبقا تجاه كل ما يصدر عنه من الأفكار ، و كان هذا وراء كفرهم ، الا أنهم برروا كفرهم بأن اتهموا الرسول (ص. (

]قالوا ما هذا إلا إفك مفترى[

حتى لا يسلم الناس مباشرة للرسالة ، ثم يقوموا بإعطاء المقاييس الخاطئة التي تنتهي الى نتيجة من جنسها ، و لهذا أسموا الرسالة بالإفك المفترى و هو الكذب المحبوك ، و لما اكتشفوا ان الكذب هو ما يخالف الحقيقة ، و ان الذي يقوله الرسول (ص) عين الحقيقة ،فكروا في تغيير موقفهم بالبحث عن تسمية أكثر مناسبة من الكذب ، فيها شباهة بالواقع ولو ظاهرا ، حتى يقنعوا المجتمع بأن ما يراه ليس هو الحق ، فلم يجدوا في نظرهم أفضل من تهمة السحر .

]وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين][٤٤] و يبين الله الدافع الحقيقي لهؤلاء نحو تكذيب الرسالة و معارضتها الا وهو الجهل ، وفي الحديث قال أمير المؤمنين (ع: (

"الناس اعداء ما جهلوا (1) "

و جهل المجتمع الذي جاءه الرسول (ص) يتجسد في انعدام الخلفية الفكرية(١) بح / ج ٧٨ - ص ١٤

الصحيحة.

]وما ءاتيناهم من كتاب يدرسونها[

اي لم تصلهم أصداء الرسالات الأخرى فيستنيروا بها.

]وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير[

فتكون ثمة بقايا لحركته الرسالية فيهم ، ليقيسوا بينك و بينه فيعرفون الحقيقة ، فانكار هؤلاء نابع من غرور الجهل لا من اسس علميه ، ولعل في الآية اشارة الى ان هؤلاء الذين يتغنون بامجاد أجدادهم ، و يخشون عليها من الرسالة ، لا يوجد في ماضيهم نور المعرفةأو ضياء الرسالة ، فلا ينبغي لهم ان يقلدوا آباءهم البعيدين عن العلم و الرسالة.

[45]ثم ينسف الله قاعدة أخرى لكفرهم وهي غرروهم بقوتهم ، و ينذرهم بان القوة الظاهرية لا تمنع عنهم جزاء كفرهم و ظلمهم ، و ان الذين كفروا بالرسالات من قبلهم كانوا أشد منهم قوة ، و أكثر جمعا ، و لكن الله دمرهم فهل يقدرون على تجنب هذا المصير.

]و كذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما ءاتيناهم]من القوة.

]فكذبوا رسلي[

غرورا بما يملكون من طاقات و امكانات و جهلا بهما ، و لكن هل منعت قوتهم عنهم العذاب ؟! كلا .. انما تعرضوا لنقمات الله الجبار ، و القرآن يوجهنا لدراسةتاريخ تلك الأمم و مصائرهم للاعتبار بها فيقول:

]فكيف كان نكير[

و النكير : : السوء الذي ينكره الانسان و لا يريده ، اشارة الى فظاعة الخطب و الدمار اللاحق بهم.

وبعد ان نسف القرآن قواعد الكفر ، و أبطل أعذار رفض الرسالة من اتباع الآباء ، أو الغرور بالقوة ، دعاهم الى التفكر . وهذا هو المنهج السليم في الدعوة : ان ترفع في البدء الحجب التي تمنع الرؤية ، ثم تخاطب الوجدان ، و تستثير العقل بالدعوة الى التفكر.

]قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى و فرادى]بصورة جماعية - اثنان اثنان و أكثر - أو بصورة فردية .

و يجب ان يكون هذا القيام بهدف التفكر لمعرفة الحقيقة التي تخالف أراجيف الكبراء و المترفين حول الرسول (ص. (

]ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد]و اول ما يذكرهم به بعد استثارة عقولهم هو ان صاحبهم الذي عرفوه طوال اربعين سنة ليس بمجنون ، و كيف يكون به جنة و

الحكمة تتفجر من جوانبه ، و تشهد مواقفه على كمال عقله ، و فصل منطقه ؟!

فهو انما يتحدث لكم عن حقيقة لو تركتموها أصابتكم نقمة ، و هذا أدعى البالتفكر ، و أقوى في اثارة العقل.

و اذا كان الله قد رفع عن أمه النبي محمد (ص) العذاب المادي كالصواعق و الريح كرامة له ، فان سنته في تعذيب الجاحدين جارية في صور أخرى كالتخلف و التبعية و الحروب ، فما تعيشه الامة الاسلامية الى اليوم انما بسبب الأفكار و العادات المتخلفة التي تعارض رسالة الله.

و لعل هذه الآية تنسحب الى كل الدعوات الاصلاحية ، و في كل عصر ، فليس من الصحيح ان يرفض المجتمع أو يقبل أية دعوة بصورة ارتجالية سريعة ، فلعل ما يرفضه يكون صحيحا ، و لعل ما يقبله يكون خطأ ، انما يجب عليه التفكر الشامل عميقا ، في ظروف مناسبة ، و عبر منهج حكيم ، و بهدف شريف هو التوصل الى الحقيقة ، و لهذا أكد القرآن أن يكون القيام لله وليس بهدف آخر ، اذ من الممكن ان يطلب العلم من أجل المصالح الشهوانية المادية كالشهرة و المال فلا يبلغ الحقيقة ، بينما إذا أخلص الإنسان نيته لله عند بحثه عن الحق هداه الله اليه ، لان من شروط التفكير السليم الهدف السليم منه ، ولعل هذا هو سبب تقديم النية المخلصة (القيام لله) على التفكير.

بعد ان نسف السياق قواعد الجحود و رفع عن الابصار غشاوات العناد و المعاجزة ثم أمرهم بالتفكر بنية صادقة ، ذكرهم بشواهد صدق الرسول (ص) ومن أبرزها : اخلاصه في دعوته ، حيث لا يطمع في أجر ، اللهم إلا أجرا يعود اليهم نفعه ، أوليس الكاذب أو الساحر يقترف جريمة التضليل بهدف مادي ؟! وها هو الرسول لا يبحث عن أجر مادي فهو اذا صادق.

[47]ولان التفكير السليم سوف يقود الانسان للايمان بالله ، و الالتزام بالدين ، الأمر الذي يكلف شيئا من التضحية كضريبة لتحمل الرسالة ، يؤكد القرآن أن هذهالتضحيات تخرج من يد الناس لتعود اليهم بالنفع في الدنيا و الآخرة.

]قل ما سألتكم من أجر فهو لكم[

و ليس للرسول ، لأنه يعمل لله وليس للمصلحة ، وهذا من الدلائل على صدق الانبياء في دعوتهم.

]إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد[

يلحظ كل جهد و حركة في سبيله ، ليضيف ذلك الى رصيد الرساليين ، و يثيبهم على عملهم بالتوفيق و النصر في الدنيا ، و بالجنة و الرضوان في الآخرة.

[48]ثم تهدينا الآيات الى احدى خصائص الأنبياء في صراعهم مع انصار الباطل وهي شهادة الله على صدق رسالاتهم ، لانها حق ، و الله يؤيد الحق ، و لمعرفة الرسل بهذه الحقيقة فانهم يتوكلون على ربهم ، و يخوضون غمار التحديات دون ان يخشوا أحدا أو يخافوا فشلا.

]قل إن ربي يقذف بالحق[

على كيان الباطل فيهدمه ، والله..

]علام الغيوب[

ولان الرسول يوحى اليه من لدن علام الغيوب ، فهو يبصر مالا يراه الأخرون ، و يتدرج من نصر الى نصر حتى يفتح الله على يديه البلاد ، و هذا أقوى شاهد على صدقه ، و انه يدعو الى الله الذي هو على كل شيء شهيد ، و لعل خاتمة الآية السابقة كانت تمهيدا لبيان هذهالحقيقة وهي شهادة الله على صدق رسالته.

[49]و حين يأتي الحق يزهق الباطل ، و رب أمة تبقى سادرة في الغي و الضلال مئات السنين ، لكنها تهتدي للحق اذا جاءها مصلح يحمل راية الحق.

]قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد[

فهو مسلوب الارادة أمام الحق ، و هذا يعني ان ما نراه من غلبة ظاهرية لانصار الباطل على انصار الحق ، ليس لقوة فيهم بل لضعف في الطرف المقابل ، فهؤلاء تدعمهم ارادة الله ، و سنن الحياة ، و منطق الحق ، و كان أحرى بهم ، ان يربحوا المعركة لولا انفصام العلاقة بينهم و بين عوامل النصر.

ولعل معنى " وما يبدئ الباطل " : انه لم يكن - منذ البدء - شيئا ، فهو زهوق بذاته.

و فسروا الآية تفسيرات شتى ، و ربما الأقرب ما ذكرناه آنفا ، و يحتمل أيضا ان يكون المعنى : ان الباطل لا يبتدا في كيان جديد ولا يتجدد كيانه السابق .

[50]ثم ان الضلالة نابعة من نفس الانسان ، بما تنطوي عليه من الضعف و العجز و الجهل و .. و.. ، بينما الهدى نعمة من الله له ، و اذا ضل الانسان فان المردود السلبي للضلالة سيعود عليه.

]قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي و إن اهتديت فبما يوحي إلي ربي إنه سميع قريب]وفي الآية تذكرة بالرسالة ، وانها مبعث الهدى ، وان الضلالة تعود على صاحبها بالخسار العظيم.

ولعل خاتمة الآية تشتمل على طلب بالهداية ، في أرقى صيغ الدعاء ، بما تشتملعليه العبارات من تنزيه لله ، و اعتراف بالضعف أمامه ، و الحاجة اليه ، وانه مصدر الخير الذي ذروته الهداية للحق ، و انه السميع لدعاء عبده برحمته ، و القريب في الاجابة بكرمه و جوده.

[51]وفي نهاية السورة يعود السياق للتذكير بالآخر ة ، لانها أعظم فكرة تعطي التوازن لروح الانسان و عقله ، و لهذا نجد الذكر الحكيم يؤكد على الايمان بالآخرة عند حديثه عن مختلف حقول المعرفة.

و انما يجحد البشر الحق اتباعا لشهواته ، و بحثا عن مصالحه في زعمه ، فإذا عرف ان الجحود ينتهي به الى نار جهنم فأية مصلحة له فيه ؟

]ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت [

فهم يرهبون يوم القيامة ، و لكنهم لا يستطيعون الفرار من العدالة الالهية حينئذ.

]و أخذوا من مكان قريب[

لان قدرة الله و حكومته تشمل الكون بأكمله ، فأينما كانوا فهم قريبون من أخذ الله ، و جاء في رواية ابي حمزة الثمالي قال سمعت علي بن الحسين و الحسن بن علي يقولان:

"هو جيش البيداء يؤخذون من تحت اقدامهم " (١)وهو اشارة الى يوم ظهور القائم من آل محمد - صلى الله عليه وآله - حيث يبيد الله جيش الكفر في منطقة بين مكة و المدينة تسمى بالبيداء.

(1)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٣٤٣

[52]وفي اللحظة التي ينزل فيها عذاب الله يرى الكفار عين الحقيقة ، وانه لا خيار سوى الايمان ، و كان ينبغي لهم ان يؤمنوا بذلك ، في يوم الحرية و الاختيار التي يكون عليها الثواب و العقاب ، لانها تلتقي و

حكمة الله من خلق الدنيا.

]و قالوا ءامنا به[

لما رأوا العذاب أو نصر المؤمنين ، و لكن هيهات فالايمان بعيد عنهم ، لانه قمة سامية لا يصلها الانسان الا بالنية الصادقة و العمل الصالح ، بل و السعي الحثيث و الجهاد الدؤوب.

]و أنى لهم التناوش من مكان بعيد[

فليس الايمان كلمة يقولها الواحد في اللحظة الأخيرة من عمره ، و كيف يعيد الانسان دورة الزمن الى الوراء ، فيشتغل الى ايام حريته التي قصر فيها ، كلا .. إنه يشبه التناوش من مكان بعيد ، كمن يقف على الأرض و يريد أن يتناول بيده ما على الذرى السامقة.

وفي الحديث قال ابو حمزة الثمالي سألت أبا جعفر (ع) عن قوله عز وجل : " و أنى لهم التناوش من مكان بعيد " قال:

"انهم طلبوا الهدى من حيث لا ينال وقد كان لهم مبذولا من حيث ينال " (١)[٥٣] لقد كفروا بالوحي في الدنيا و فاتت فرصتهم.

(1)نور الثقلين / ج ٤ -ص ٣٤٥

]وقد كفروا به من قبل و يقذفون بالغيب من مكان بعيد]فهم يتكلمون على غير بصيرة ، و بعيدا عن الواقع ، و من دون هدف ، بينما يقذف الله بالحق و هو يعلم بتفاصيل كل شيء ، و هذا ما يجعل الوحي صادقا لا نقص فيه ، بينما كلامهم باطل في باطل.

[54]ومن الشواهد على ان الباطل سراب لا ينتهي الى شيء ، ان من اتبعه كان يبحث من ورائه عن الملذات و الشهوات ، و لكن الموت أو نصر المؤمنين ، الذي يقضي به الله عليهم يحول بينهم و بين الوصول اليها.

]و حيل بينهم وبين ما يشتهون[

وهذه سنة جرت على الاجيال الماضية من امثالهم ، لكنهم لم يستفيدوا ممن سبقهم فحلت بهم الندامة ، و لفهم الأسف.

]كما فعل بأشياعهم من قبل[

و يبين الله السبب المباشر لهذه النتيجة السيئة ، الا وهو الشك في الرسالة ، التي لو آمنوا بها لحصلوا على مصالحهم أيضا ، ذلك أنها الطريق للسعادة ، و قد حذرتهم سابقا من هذه العاقبة فلم يستجيبوا لها .

]إنهم كانوا في شك مريب[